الدكتور بكري شيخ أمين

التعبير الفني في القرآن

دار الشروق

إهـــــــداء 2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

التعبير الفني في القرآن

التعبير الفني في.القرآن

الطبعة الأولى
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

©


بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة

الدكتور بكري شيخ أمين

التعبير الفني في القرآن

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، أفصح العرب أجمعين . وبعد .

فإني لأشعر بهزة في نفسي كلما قرأت قصة إسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ذلك الجبار في الجاهلية ، وناصر الاسلام في عهد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخليفة المسلمين بعد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وتنتابني هيبة من اللحظات الأولى التي مرّ بها الفاروق يوم سمع القرآن لأول مرة ، فَرَقَّ قلبه ، ودخل في دين الله .

فلقد روت الأخبار قصة إسلامه على الوجه التالي : « خرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورهطاً من أصحابه قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء ، ومع رسول الله ـ ص ـ عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قُحافَة الصديق ، وعليّ بن أبي طالب في رجال من المسلمين . فلقيه نُعَيْم بن عبد الله[1] فقال له : أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبّ آلهتها فأقتله . فقال نُعَيْم : والله لقد غرّتك نفسك يا عمر . أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأيّ أهل بيتي ؟ قال : خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد[2] وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه . فعليك بهما.

ورجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خبّاب[3] في مخدع لهما ، أو في

---

(١) صحابي من بني عدي ، كان يكتم إسلامه آنذاك ، استُشهد بأجْنَادِين أيامَ خلافة عمر (الاصابة ٢٤٨/٦).

(٢) سعيد بن زيد : صحابي ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، شهد المشاهد كلها الا بدرا . ولاه أبو عبيدة دمشق . توفي بالمدينة سنة ٥١ هـ /٦٧١م . (طبقات ابن سعد ٢٧٥/٣)

(٣) خبّاب بن الأرَتّ : سبي في الجاهلية ، فبيع بمكة ، وأسلم وأظهر إسلامَه فعُذِّب عذابا شديدا . شهد المشاهد كلها مع الرسول ، وتوفي بالكوفة وفيها دفن (الاصابة ١/٢) .

بعض البيت . وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما . فلما دخل قال : ما هذه الهَيْنَمَةُ التي سمعت ؟ قالا له : ما سمعتَ شيئاً . قال : بلى والله . ولقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه . وبطش بختنه سعيد بن زيد . فقامت اليه أخته فاطمة لتكفّه عن زوجها ، فضربها فشجها . فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد .. وقرأ من سورة طه ، « طَهَ ، ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرآنَ لِتَشْقَى ، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ، تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَواتِ العُلى ، الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ومَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، اللهُ لا إِلَه إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى [1] » . فقال عمر : ما أحسن هذا الكلامَ وأَرْوَعَه . فلما سمع ذلك خبّاب خرج اليه من مكمنه فقال له : يا عمر ، واللهِ إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه ، فاني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أَيِّدِ الإسلامَ بأحَدِ الْعُمَرَيْنِ [2]. فاللهَ الله يا عمر . فقال له عند ذلك عمر : دُلَّني يا خبّاب على محمد حتى آتِيَهُ فأسلِم . فقال له خبّاب : هو في بيت عند الصَّفا معه فيه نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشَّحَهُ ثم عمد الى رسول الله ـ ص ـ وأصحابه فضرب عليهم الباب . وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خَلَلِ الباب فرآه متوشِّحاً بالسيف ، فرجع الى رسول الله وهو فَزِع . فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف . فقال حمزةبن عبد المطلب : نأذن له . فاذا كان يريد خيراً بذلناه له ،وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه . فقال رسول الله : ائذن له . ونهض اليه حتى لقيه ، فأخذ بحُجْزَته أو بمجمَع ردائهِ ثم جَبَذَه جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزِل الله بك قارعة . فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبما جاء من عند الله ، أشهدُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ ، وأشهدُ أنّكَ رسولُ الله . وكَبَّرَ الرسولُ وكبّر معه الصحابة .

---

(١) سورة طه . ١ ـ ٩

(٢) يقصد بالعُمَرَيْن : عمر بن الخطاب ، وعَمْرو بن هشام المعروف بأبي الحَكَم وبأبي جَهْل . والحديث صحيح أخرجه الترمذي في المناقب .

إن عمر أسلم حين قرأ عدداً من آيات سورة طه ليس أكثر ، ودخل النور الى قلبه ، واندفع يَلْقى محمداً ويعلنُ إيمانه بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . ولو لم يثق عمر بأن ما قرأ ليس كلامَ بشر لم يؤمن ، ولم يصدّق ، ولم يذعن .

وقصة زعماء مكة ، واستراقهم السمع حين كان محمد يتهجّد في الليل ، ويرتّل القرآن دليل آخر يدفع إلى التفكر بهذا الكتاب وما ضمه .

خرج أبو سفيان بن حَرْب وأبو جهل بنُ هشام والأخنس بن شريق[1] ليلة ليستمعوا الى محمد وهو في بيته ، فأخذ كلٌّ منهم مجلساً يستمع فيه ؛ وكلٌّ منهم لا يعلم بمكان صاحبه . وكان محمد يقوم الليل الا قليلاً ، يرتّل القرآن في هدوء وسكينة ، ويردد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه . فلما كان الفجر تفرق المستمعون عائدين إلى منازلهم ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ، وَلَنَصَرَ محمداً عليكم : فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم في مثل الموعد الذي ذهب فيه أمس كأنَّ رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضي ليله حيث قضاه أمس ، وليستمع الى محمد يتلو كتاب ربه . وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر ، وتلاوموا من جديد ، فلم يَحُلْ تَلاوُمُهُمْ دون الذهاب في الليلة الثالثة . فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا على ألا يعودوا لمثل فعلتهم ، وإن ترك ما سمعوا من محمد في نفوسهم أثراً جعلهم يتساءلون فيما بينهم عن الرأي فيما سمعوا ، وكلهم تضطرب نفسه ، ويخاف أن يضعف ، وهو سيد قومه ، فيضعف قومه ، ويتابعوا محمداً معه .

وهناك من الأخبار ما لا يحصى عن دهشة العرب أمام القرآن ، وعجبهم من أسلوبه وأفكاره وبيانه .

ودراستنا للقرآن لن توجّه على أنه كتاب تشريعي ، ولا على أنه أصل ديني ، بل على كونه كتاباً يقف في قمة البلاغة العربية ، والأسلوب الذي أعجز الفصحاء عن أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وسنحاول ــ قَدْر الطاقة ، وجهد المستطاع ــ أن نبين خصائص الأسلوب القرآني ،

(١) أسلم ، وكان من المؤَلَّفَة قلوبُهم ، وشهد حنَيْناً ، ومات في أول خلافة عمر ، وقال ابن عطية : إنه لم يُسلِم ، وقيل إنه أسلم ، ثم ارتد عن إسلامه ، ثم رجع إلى الإسلام . (انظر تفصيل ترجمته في الاصابة ١/٢٣) .

ونجلو شيئاً من سماته ومزاياه حيث نتحدث عن تعريفه ، وكيفية وحيه ، وأوله ، وآخره ، وتنجيمه ، وجمعه ، كما نتحدث عن علومه ، ومكّية ومدنيّة ، ومحكمه ومتشابهه ، وأحرفه ، وقراءاته ، ورسمه وما الى ذلك . ونستعرض الألوان المختلفة لتفسيره ، والاتجاهات التي اتجه اليها المفسرون في تفسيره ، ونستعرض كذلك الدراسات المختلفة لاعجازه ، وآراء العلماء في هذا الإعجاز .

ذلك كله ـ في رأينا ـ الجسر ، أو المَعْبَرَ لغرضنا الأصيل ، ألا وهو الوصول إلى سرّ الجمال الفني في هذا القرآن .

والوقوف على سر الجمال يقتضي التعرف على العناصر التي تألف منها هذا البناء أو الهيكل . لذلك وقفنا طويلاً عند دراسة المفردة القرآنية ، والتعبير ، والصورة ، والوجوه المختلفة للتراكيب ، سواء أكوّنت موعظة أو قصة ، أو قاعدة اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو سياسية .

في هذا الباب الأساسي وقفنا طويلاً عند التحدي والمعارضة التي قام بها نفر من الناس ينافسون أسلوب القرآن ، كما وقفنا وقفة أطول عند القصة القرآنية وحللناها ، ثم قارناها بالقصة الفنية المعاصرة ، وكان لنا رأي خاص ، خالفنا فيه عدداً من الباحثين العرب والمستعربين .

كذلك درسنا الأمثال القرآنية ، وقرناها بالأمثال العربية ، وأظهرنا وجوه اللقاء والفراق بينهما . ثم توجنا الدراسة بتحليل أدبي لعدد من السوروالآيات ، لا ندّعي أنها جاءت على ما نريد لها من الكمال ، بل كانت جهد الطاقة ، وقدر المستطاع .

ولئن أخطأنا في بعض ما أتينا به ، ورأيناه ، إن عذرنا الوحيد أنا كنا مجتهدين في دراستنا ، مخلصين في عملنا ، صادقين في قولنا وفعلنا ، هادفين إلى الخير ، مندفعين إلى خدمة أبنائنا وإخواننا وتعريفهم كتاب الله تعريفاً صادقاً ، لا يعتريه زيغ ، ولا يدخله زغل . ندعوالله الذي لا إله غيره : ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أوأخطأنا . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

حلب ـ رجب ١٣٩٢ هـ
أيلول ١٩٧٢ م

الدكتور بكري شيخ أمين

الباب الاول

تاريخ القرآن

الفصل الأول

القرآن والوحي

أ ــ تعريف القرآن

« هو كلام الله المعجز ، المنزَّلُ على خاتَم الأنبياء والمرسلين ، بوساطة الأمين جبريل عليه السلام ، المكتوبُ في المصاحف ، المحفوظ في الصدور ، المنقولُ إلينا بالتواتر ، المتعبَّد بتلاوته ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المُختَتَمُ بسورة الناس » .

هذا التعريف متفقٌ عليه بين العلماء والأصوليين.

أما معنى لفظ « قرآن » فهو مرادف لمعنى القراءة . ذلك أن « قرأ » تأتي بمعنى « جمع » ، والقراءة ضمُّ الحروف والكلمات بعضهاالى بعض في الترتيل ؛ والقرآن في الأصل كالقراءة ، مصدر قرأ قراءة وقرآنا . قال تعالى : « إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه ، فَإذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرآنَه » أي قراءته .

ولكتاب الله أسماء عدة : منها القرآن ، والفرقان [1] ، والكتاب [2] ، والذكر [3] ، والتنزيل [4] .

---

(١) تَبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده لِيَكُونَ لِلْعَالمينَ نَذيراً (الفرقان ، ١)

(٢) ذلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فيهِ هُدَىً لِلمتقين (البقرة ، ٢)

(٣) إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون (الحجر ، ٩)

(٤) وَإنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمين (الشعراء ، ١٩٢)

وقد وصفه الله بأوصاف كثيرة : منها : أنه نور ، وهدى ، ورحمة ، وشفاء ، وكريم ، ومبين ، وموعظة ، ومبارك ، وبشرى ، وبشير ، ونذير ، وعزيز .

ب ـ معنى الوحي وأنواعه :

قد أسمع منك حديثاً في موضوع من الموضوعات ، فأستوحي منه خواطر ، وأستنتج منه نتائج ؛ وقد تنصت إلى خطاب زعيم ، أو قائد ، أو رئيس في أمر من أمور السياسة ، أو الاجتماع ، أو الاقتصاد فتستوحي منه أشياء معينة لم تذكر صراحة في سياق ذلك الخطاب ؛ وقدتجتمع بمسؤول أو صديق وتتحدث معه بأحاديث شتى ، فتفهم من خلال حديثه رضاه أو سخطه دون أن يظهر في كلامه ذلك الرضى أو السخط ظهوراً بَيِّناً واضحاً ، فتقول : إن حديثه يوحي بكذا وكذا .

فالوحي ـ في هذه الأمثلة ـ هو الإدراك الضمنيّ لأمر من الأمور ، دون أن يذكر صراحة في كلام واضح . إنه ـ بتعبير آخر ـ الإلهام ، والفهم ، والاستنتاج .

والوحي ـ في هذه الأمثلة ـ عام مشترك بين الناس جميعاً . يختلف باختلاف مداركهم ، وملكاتهم العقلية ، وثقافاتهم ، وأعمالهم ، وأوضاعهم .

وهناك نوع آخر من الوحي ، هو خطاب الله أنبياءه ورسله ، أولئك النفر الذين هيئوا تهيئة خاصة ، ورُبّوا تربية معينة ، ليستطيعوا قيادة الأمم والشعوب ، والآلاف أو الملايين من بني الانسان ، فلا غرابة ـ إذن ـ أن تكون القوى المدركة ، والعاقلة ، ووسائل التلقي عندهم أقوى من وسائل الناس العاديين .

لقد خاطب الله رسله جميعاً ، وأوحى إليهم ، وكلّمهم ؛ لم يستثن من ذلك أحداً . وطبيعي ذلك الخطاب ، أو ذلك الوحي ، لأنه الوسيلة الأولى والأساسية لتعليمهم أولاً ، وإرشادهم ثانياً إلى تبليغ الناس رسالة الله وهداه .

والعجيب في هذا الأمر البديهي الطبيعي أنه لم يثر في نفوس فريق من الناس شكاً أو ريباً أو اعتراضاً في خطاب أي نبيٍ من الأنبياء إلا في خطاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . لذلك فإن الاعتراض أو التشكيك أو الجدل فيه يوحي بأن وراءه نفوساً خبيثة ، ونوايا سيئة ، وكلاماً لم يعرف طريقه الى الحق والاخلاص .

ونتساءل الآن : كيف كان يُوحَى الى محمد ؟ ونجد الجواب واضحاً في الأحاديث النبوية التي صح سندها ، وفي سيرة الرسول ذاته ، وفي كلام الناس الذين عاصروا الرسول ، وشهدوا تلك الحقبة ، ورأوا بأعينهم ، وسمعوا

بآذانهم ، ولمسوا الحقائق بأيديهم .

بين أيدينا ــ إذن ــ وثائق صحيحة ، وشواهد واضحة ، ودلائل دافعة .

وأول هذه الوثائق وأقواها جاءتنا في حديث رواه البُخاريّ ومسلم في صحيحيهما في باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ــ ص ــ » ، عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت :

أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي **الرّؤيا الصادقة في النوم** ، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فَلَق الصّبح ثم حبّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حِراء فيتحنّثُ فيه ، وهو التعبّد اللّياليَ ذواتِ العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ؛ ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه المَلَك ، فقال : اقْرَأْ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فَأخذني فَغَطَّني حتى بلغ منّي الجَهد ، ثم أرسلني . فقال : « اقْرَأْ » . فقلت : « مَا أَنَا بقارئ » . فأخذني ، فَغَطَّني الثانيةَ حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني ، فقال : « اقْرَأْ » . فقلتُ : « مَا أَنَا بقَارئ » . فأخذني ، فَغَطّني الثالثةَ ، ثم أرسلني ، فقال : « اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ، خلقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم » . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خُوَيلد فقال : « زَمِّلوني » . فَزمَّلوه ، حتى ذهب عنه الرَّوْع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : « لقد خَشِيتُ على نَفسي » . فقالت خديجة : « كلاَّ واللهِ ما يُخزيك الله أبداً ، إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِم ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وتُكْسِبُ المعدوم ، وتَقري الضّيف ، وتعين على نوائب الحق » فانطلقت به خديجة ، حتى أتت به وَرَقَةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكِتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ . فقالت له خديجة : « يا ابن عمّ ! اسمع من ابن أخيك » فقال له ورقة : « يا ابن أخي ماذا ترى » ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خَبَر ما رأى . فقال له ورقة : « هذا الناموسُ الذي نَزَّلَ الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعاً ، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ » ؟ قال : « نعم ، لم يأت رجل قطّ بمثل ما جئتَ به الاّ عُودِيَ ، وإنْ يدركني يومُك أنصرْك نصراً مؤزرًا » ثم لم ينشَب ورقة أن توفي . وَفَتَر الوحي . قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سَلَمَة بن عبد الرحمن أنّ جابر بن

عبدالله الأنصاري قال : وهو يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه : بينما أنا أمشي اذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فاذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض فرُعِبْتُ منه ، فرجعت ، وقلت : زمّلوني فأنزل الله تعالى : « يَا أَيُّها المُدَّثِّر قُمْ فَأَنْذِرْ ... إلى قوله ... والرُّجْزَ فاهْجُرْ .. » فَحَمِيَ الوحيُ وتتابع .

هذا الحديث جاءنا بِسَنَدٍ متصل من الرواة الذين خَلَوْا ـ بعد دراسة تراجمهم وأحوالهم ـ عن كل تهمة تبعث الشك في كلامهم .

هناك وثائق أخرى ، أدلى بها الشهود الثقات ، وأثبت صحتها العلماء الأعلام ؛ وكلها تنص على أن وحي الله لرسوله محمد ـ ص ـ كان على أنواع وأشكال متعددة . منها :

أنه كان يأتيه جبريل بصورة رجل أعرابي ، فيكلمه ، ويسأله ، ويلقي اليه ما يريد إلقاءه بكلام واضح مفهوم ، ويرى الصحابة ذلك الرجل الأعرابي ، ولكنهم لا يعرفون أنه جبريل ، ويسمعون كلامه . ولقد جاءه مرة في صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، وجلس بين يدي الرسول وتحدث معه عن الايمان ، والاسلام ، وأمارات الساعة ؛ فلما ارتفع قال رسول الله لأصحابه : إنه جبريل أتاكم ليعلمكم أمر دينكم .

ومنها **أنه كان يأتيه جبريل في مثل صلصلة الجرس** ، فاذا سمع الرسول هذه الصلاصل سكت ، وأدرك أنه الوحي ، وكان الصحابة الذين يجالسون محمداً آنئذ يسمعون دوياً كدويّ النحل ، لكنهم لا يفهمون من ذلك الدويّ شيئاً ، ويتلقى الرسول تلك الإشارات ، ويعي ذلك الوحي ؛ فاذا ما ارتفع جبريل أفهم الرسول الصحابة ما جاء به جبريل .

ومنها **أنه كان يأتيه على هيئته التي خلقه الله بها** ، وهي صورة ملك له أجنحة . ولم يحدث ذلك الا مرتين : الأولى ، عندما طلب محمد من جبريل أن يريه خلقته على حقيقته ، كما خلقه الله . والثانية ، حين عرج به جبريل الى السماء .

ومنها ، **النفث في الروع** ، وذلك يعني القاء المعنى في خاطر الرسول . وفي ذلك يقول الصادق الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ان روح القدس نفث في روعي ، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب » . ويبدو لنا أن هذه الحالة قد تكون هي المرافقة لصلصلة الجرس ، حيث تسمع

أذناه الصلاصل ، ويدرك فؤاده المعنى .

ومنها **تكليم الله اياه بلا وساطة** . ولقد كان ذلك حين عرج إلى السماء ، وأوحى الله إليه بالصلاة ، وكان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى . في تلك الحالة لم يكن جبريل حاضراً ، وكان محمد وحده ، وكان وحي الله وحياً مباشراً . لقد حدث ذلك مع موسى عليه السلام ، فلقد كلمه الله تكليما [1] » .

تلك هي الصور المتعددة للوحي ، يقبلها العقل السليم حين يقبل فكرة الفوارق الطبيعية بين الناس ، فهناك الأقوياء بفطرتهم ، والضعفاء بفطرتهم ، وهناك من وُلد أعمى ، وهناك من وُلد وعيناه كعيني النسر ، هناك ضعفاء العقول ، وهناك المتوسطون ، وهناك النوابغ ، وهناك الأنبياء . ليس في الأمر ما يدعو الى الشك ، والحقد ، وبذاءة اللسان ؛ اللهم الا إذا كانت البذاءة لغتهم الأصيلة ، والحقد طعامهم اليومي ، والشك الذي لا ينتهي الى يقين مبدأهم في الحياة ..

وقد يسأل سائل : ما بال الوحي ينزل على محمد ، وهو بين ملأ من أصحابه ، فلا يرى الملك أحد منهم سواه ؟ .

ونجيب : إنه ليس من شرط وجود الموجودات أن تُرى بالأبصار ، لأن قوة الإبصار عندنا محدودة بحدّ معين ، والا لاقتضى أن يكون الشيء معدوماً اذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته . وإن من اليسير على الله ـ وهو خالق العين وبصرها ـ أن يزيد في قوة ما شاء منها ، فترى ما لا تراه العيون الأخرى .

ألم ندرس في الفيزياء أن النور مركب من ألوان ، وأن بعض الألوان لا تراها كل العيون ؟ وأن هناك اشعاعات ضوئية دون الضوء الأحمر ، وفوق الأشعة البنفسجية لا تراها عيوننا ؟ ولا شيء يثبت أنها كذلك بالنسبة إلى جميع العيون ؟ أوليس هناك عيون أقل أو اكثر حساسية من عيون أخرى ؟ اذن ؛ فما المانع أن يرى محمد وحده الملك ويفهم ما يتكلم به ، ولا يراه الآخرون ، أو لا يدركون ماذا تعني تلك الهينمة أو الدوي [2] ؟

هناك شيء آخر ، لو ادعى محمد ذلك ادعاء ، وافتراه افتراءً لكان يجب أن

---

(١) انظر الاتقان ٤٥/١ ، والإيمان بالرسل لمحمد رواس قلعه جي ص ١١

(٢) انظر الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ص ١٧٨

يكون أسلوب القرآن كأسلوب الحديث ، فالأسلوب هو الرجل في كل ظروفه وحالاته ، ودراسة أسلوب القرآن تدل على أن هذا الأسلوب غير ذاك ، وأن قائل هذا ليس ذاك أبداً .

لقد كان محمد يرسل ألفاظ الحديث ارسالاً ، مكتفياً بأن يستودعه ذاكرة أصحابه ، على حين كان يأمر بتسجيل كل ما يوحى إليه من آي القرآن ، ويظلّ يكرّره ويعيده خوفاً من أن ينساه فلا يذكره .

وكان محمد يُسأل عن كثير من الأمور فلا يجيب عنها ، وربما مرّ على إمساكه عنها زمن طويل ، حتى اذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال ، طلب محمد السائل ، وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأنه ؛ وربما تصرّف هو نفسه في بعض الأمور على نحو معين ، فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه ، بل ربما انطوت على شيء واضح من العتب واللوم .

ثم إنه عليه السلام كان يعلن في كل مرة أن القرآن كلام الله ، وأنه ليس الا أميناً على نقله وتبليغه ، وأنه يتلقاه من جبريل . ولقد ظل محمد صادقاً أربعين سنة مع قومه ، حتى كان بينهم مثال الصدق والأمانة ، وبديهي أن مثل هذا الانسان لا بد أن يكون قبل كلّ ذلك صادقاً مع نفسه ، يتحرى الدقة في كل مشاعره وأقواله وإحساساته .

وبعد ذلك كله ، فقد كان ـ على ما أجمع عليه المؤرخون ـ أمياً لم يقرأ كتاباً ، ولا خطّه بيمينه ، ولم يدرس تشريعاً ، ولا تاريخاً ، ولا شيئاً من قصص الرسل والأنبياء السابقين ، فمن أي نافذة طبيعية يمكن لهذه الإلهامات كلها أن تنزل عليه ، وكيف لها بأن تنبع هكذا من داخل قلبه وعقله ؟

وننتهي الى أن الوحي القرآني إذاً : « إنما هو استقبال منه صلى الله عليه وسلم لحقيقة ذاتية مستقلة خارجة عن كيانه وشعوره الداخلي ، وبعيدة عن كسبه أو سلوكه الفكري أو العملي » .

أما المستشرقون فقد انقسموا الى فريقين ، فريق مخلص للحقيقة ، متجرد للعلم ، مؤثر للحق ، محب للانصاف ، قال بما قاله المسلمون ، ودافع عن نبوة محمد ، وصدقه ، وأثبت حقيقة الوحي الآلهي ، وربطها بوحي الله الى أنبيائه الآخرين ـ صلوات الله عليهم .

وفريق آخر أعماه التعصب ، وسدّ عليه مسالك الحق ، فركب شيطانه ،

وراح يقذف ما تتمخض به نفسه من أرجاس ، وقاذورات .

وبرهاناً على ما نصم به هذا الفريق الحاقد ، نورد نُبَذاً من أقوال أولئك النفر الذين أعماهم الحقد ، مشيرين الى المصادر التي وردت فيها أقوالهم ، غير عابئين بما فيها من شتم ، وبذاءة ، وبعد عن الحق والانصاف . إنّ ايراد هذه الأمثلة وحدها لدليل صدق على ما نصمهم به .

جاء في موسوعة « لاروس » الفرنسية [1] : « بقي محمد مع ذلك ساحراً ، ممعناًفي فساد الخلق ، لصّ نياق ، كردينالاً لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه » .

وسيرة ماهوميه [2] - أي محمد - تكاد تقيم أدباً من هذا النوع الذي تحدث عنه كاتب المقال في موسوعة « لاروس » .

وراع المستشرق إميل دِرْمَنْجِم [3] ما افتراه إخوانه في الدين على محمد ، وراح يرد عليهم رداً مفحماً ، ويفند مزاعمهم وأباطيلهم . واحتقر درمنجم الكُتّاب البيزنطيين - ما عدا جان داماسين - ما أوقروا الاسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة دراسته .

ورد درمنجم على الكتاب والنُّظّامين في العصور الوسطى الذين زعموا أن محمداً لصّ نياق ، وزعموه متهالكاً على اللهو ، وزعموه ساحراً ، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق ، بل زعموه قسّاً رومانياً مَغيظا مُحْنَقاً لأنه لم يُنتخَب لكرسيّ البابوية ... وحَسِبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرّب له عبادُه الضحايا البشرية .

وهال درمنجمَ قولُ أحدهم : إن محمداً مات في نوبة سكْر شديد ، وإن جسده وُجِد مُلقىً على كَوْم من الرَّوْث ، وقد أكلت منه الخنازير ، وذلك ليفسّر السبب الذى من أجله حَرّم الخمر ، وحَرّم لحمَ ذلك الحيوان .

وامتلأت الأغنيات الدينية بمزاعم فظيعة عن الإسلام ، فجعلت محمداً صنماً من ذهب ، وجعلت المساجد الإسلامية ملأى بالتماثيل والصور .

---

1 — Dictionnaire Larousse, Art MAHOMET

2 — Renault et Francisk Michel , MAHOMET. Paris 1831

3 — Emile Dermenghem. La Vie de MAHOMET pp. 135

وتحدث واضع أغنية « أنطاكية » حديث من رأى صنم « ماحوم » ـ أي محمد ـ مصنوعاً من ذهب ، ومن فضة خالِصَيْن ، وقد جلس محمد فوق فيل على مقعد من فسيفساء .

أما أغنية « رولان » التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الأوثان الاسلامية ، فتزعم الأغنية أن مسلمي الأندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من « تُرَفَاجَان » و« مَاهُوم » أي محمد ، وأَبُّولون . وتحسب « قصة محمد » أن الاسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج .

ويقول درمنجم : « وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فمنذ « رودُلف دُولُوهِيم » الى وقتنا الحاضر قام « نيكولا دِكِيزْ » و « فِيفِشَ » و « فراتْشِي » و « هوتّنجَر » و« بيلْيَانْدر » و« برِيدو » وغيرهم ، فوصفوا محمداً بأنه دجال ، والاسلامَ بأنه مجموعة الهرطقات كلها ، وأنه من عمل الشيطان ، والمسلمين بأنهم وحوش ، والقرآنَ بأنه نسيجٌ من السخافات . وما كان يحلو للمستشرق دوتي أن يقول عن محمد إلاّ : « هذا الأعرابي المنافق القذر » .

وذهب عدد من المستشرقين الألمان واليهود أمثال « فيل ، وجُولْدزِيْهِر ، ونُولْدِكِه ، وغيرهم » الى أن القرآن حُرِّف وبدّل بعد وفاة النبيّ ، وفي الصدر الأول للاسلام ، واسم النبي بعض ما بدّل فيه ، فقد كان اسمه « قُثَم » أو « قُثامة » ثم أبدل من بعد وصار « محمداً » ليتسنى وضع الآية « وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » . وأن النبي كان يُصاب بالصرع ، وأن ما كان يسميه الوحي الذي ينزل عليه انما كان أثراً لنوبات الصرع التي كانت تعتريه ، وأن أعراض الصرع كانت تبدو على محمد ، فكان يغيب عن صوابه ، ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنجات ، وتخرج من فيه الرغوة ، فاذا أفاق من نوبته ذكر أنه أوحي اليه ، وتلا على المؤمنين به ما يزعم أنه من وحي ربه .

ويخيل إلينا أن الرد على هذه المزاعم من قِبَلِ المستشرقين أنفسهم ، ولا سيما من قبل المسيحيين المتعصبين أوقع في النفس ، وأكثر قبولاً من رد غيرهم . ونختار المستشرق السير وليام موير صاحب كتاب « حياة محمد »[1] لهذه المهمة :

---

1 — Sir William Muir. Life of MOHAMMAD. pp. 14-29

يتحدث موير أول ما يتحدث عن القرآن ، ودقة وصوله الينا بكلام طويل لا يختلف عما يتحدث به المسلمون الثقات ، ويذكر أن الذين هاجموا الاسلام ورسول الله دفعهم الحقد ، والتجني ، والتعصب الأعمى ، وأنهم بعيدون كل البعد عن البحث العلمي النزيه .

ثم ينتقل إلى ظاهرة الوحي ، فيذكر ما افتراه بعض الجاهلين من أن محمداً كان يصاب بالصرع وغير ذلك فيقول : « وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو خاطىء من الناحية العلمية أفحش الخطأ . فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مرّ به أثناءها ، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً ، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حلّ به خلالها ، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل .

هذه أعراض الصرع ، كما يثبتها العلم ، ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي . بل كانت تتنبه حواسّه المدركة في تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به ، يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه ، وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه .

ثم إن نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الادراك الروحي غاية التنبه ، بل كان كثيراً ما يحدث والنبي في تمام يقظته العادية » ..

ويذهب مذهب السير وليام موير الأب الجليل هَنْري لامَنْسْ ، وفون هامِر .

فالعلم ينفي أن الصرع كان يعتري محمداً ، ولذلك لم يجرؤ على القول به سوى أقلية من المستشرقين ظنت أنها تحط من قدر النبي العربي ، وتلقي ريبة على الرسول والقرآن من أساسه . وتحطم أعظم ما يعتز به المسلمون .

لقد كان الوحي بعض ما شهد المسلمون أثناء حياة محمد . وكان القرآن كلما ذكره زادهم به ايماناً . وكان منهم أذكياء غاية الذكاء ، وكان منهم يهود ونصارى طال الجدال بينهم وبين النبي العربي ، ثم آمنوا برسالته ، ولم ينكروا عليه من أمر الوحي شيئاً .

ولقد حاول قوم من قريش أن يتهموه بالسحر والجنون ، ثم أقروا أنه ليس بساحر ، ولا بمجنون ، وتابعوه ، وآمنوا بما جاء به [1].

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص ٨ .

الفصل الثاني

تنجيم القرآن وأوله وآخره

أ ـ تنجيم القرآن

قضت حكمة الله أن يظل الوحي متجاوباً مع الرسول ـ ص ـ يعلمه كل يوم شيئاً جديداً ، ويرشده ويهديه ، ويثبته ويزيده اطمئناناً ، ومتجاوباً مع الصحابة يربّيهم ويصلح عاداتهم ، ويجيب عن وقائعهم ، ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته . فكان مظهر هذا التجاوب نزوله منجماً مفرقاً بحسب الحاجة ، خمس آيات ، وعشر آيات ، وأكثر ، وأقل .

على هذا المنوال ظل القرآن ينزل نجوماً ، ليقرأه النبي ـ ص ـ على مُكْث ، ويقرأه الصحابة شيئاً بعد شيء ، يتدرج مع الأحداث والوقائع ، والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول ـ ص ـ خلال ثلاثة وعشرين عاماً .

بدأ نزول القرآن في ليلة القَدْر « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ[1] » ثم نزل بعد ذلك نجوماً في أوقات مختلفة من سائر أوقات السنة[2] .

وقد أفاض العلماء في سرّ نزول القرآن منجَّماً وأسهبوا . ومما قالوا :

أولاً : لقد قضت سنة الله تعالى في عباده أن يلاقي النبي عليه الصلاة والسلام أذى كبيراً من قومه من أجل نهوضه بينهم بتبليغ رسالة ربه ، وقد لاقى من ذلك أنواع الشدائد التي جعلته بينهم مدة طويلة غريباً لا ناصر له .

ولقد كان لاتصال الوحي به إذ ذاك ، وتتابع نزول الآيات عليه ، تشد من أزره ، وتحمله على الصبر والمصابرة ، وتعده بالنصر والتأييد في النهاية ـ كان

---

(١) القدر ، ١ (٢) الدكتور صبحي الصالح : في علوم القرآن ص ٤٩

لذلك أبلغ الأثر في مواساته ، وتخفيف تلك الشدة عنه ، وازاحة معاني الغربة والضعف عن نفسه . فن هذه الآيات مثلاً قوله تعالى« فَاصْبِرْ عَلَىَ مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغروبِ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجود[1] » .

ومن ذلك قوله تعالى« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ، وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِكَ وكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ[2] » .

فلو أن القرآن نزل كلَّه جملة واحدة ، لكان لانقطاع الوحي عنه بعد ذلك أثر كبير في استشعاره الوحشة والغربة . ومهما يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أوتي من العزيمة والصبر ، فان لِبشريته أيضاً أثراً بيِّناً في حياته ما دام بشراً .

وقد كان لديه صلى الله عليه وسلم من قوة الايمان بالله ما يكفي لأن يحمله على تبليغ دعوة ربه والجهاد في سبيلها ، ولكنه مع ذلك لم يكن به غناء عن المواساة والمعنوية والتصبير اذ يأتيه كل ذلك من ربه المرة تلو المرة ، يعيده الى الأمن والانشراح والأنس والرضى .

وهذا المعنى هو ما عبر عنه القرآن بالتثبيت في قوله تعالى : « كذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ[3] » .

ثانياً ــ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فليس لديه من الوسائل الكتابية ما يضبط ويحفظ به كل ما ينزل عليه إلا وسيلة التكرار والحفظ . فكان لا بد من نزول الآيات بتدرج ، وخلال مُدَدٍ متقطعة من الزمن ، حتى يكون السبيل الى حفظه ووعيه أيسر .

ورغم ذلك ، فقد كان من عادته عليه الصلاة والسلام اذا نزلت عليه الآية من القرآن أن يأخذ في تكرارها ، ويستعجل في محاولة حفظها ، ويظل يحرّك لسانه بها خشية أن تتفلت من حفظه الى أن نزل عليه قوله تعالى : « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بهِ ، إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ[4] » .

---

(١) سورة ق ، ٣٩ (٢) الحجر ـ ٩٨
(٣) الفرقان ، ٣٢ (٤) القيامة ـ ١٧

ثالثاً ـ احتوى القرآن على متن الفقه الإسلامي كله ، أي على عامة أحكامه في الجملة ، سواء منها ما يتعلق بالمعاملات المدنية أو الأحوال الشخصية ، أو العقوبات ، أو النظم الدستورية ، أو المالية . وكان العرب قبل الإسلام متفلّتين من كل قيد ، لا يخضعون لقانون ، ولا يرتبطون بأي تنظيم ، فكان من العسير عليهم أن ينتقلوا من تلك الحالة ، في طفرة مفاجئة ، الى التقيد بعامة أحكام الإسلام ونظمه وقوانينه .

فمن أجل ذلك أخذهم القرآن في ذلك بالوسيلة التربوية التي لا بد منها ، وهي وسيلة التدرج في نقلهم من حياة الفوضى الى الحياة النظامية والتقيد بالمعايير التي لا بد منها في المجتمع الصالح . فنزلت أولاً الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها ، حتى اذا آمن الناس وثابوا الى عقيدة التوحيد ، نزلت آيات الحلال والحرام وعامة الأحكام في مهل وتدرج .

وفي ذلك يروي الامام البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « إنما نَزَلَ أول ما نزل من القرآن سورةٌ من المفصَّل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيءٍ : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا » .

رابعاً ـ اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون عامة أحكامه التي تضمنها كتابه المبين جوابا عن أسئلة ، أو حلاً لمشكلات واقعة ، حتى تكون أوقع في النفس وألصق بالحياة . وتلك وسيلة تربوية ظاهرة لا تحتاج الى مزيد بيان لها . وانما سبيل ذلك أن تتدرج هذه الأحكام وآياتها في النزول تنتظر مناسباتها وظروفها .

ولذلك نجد أن كثيراً من آي القرآن انما نزل جواباً عن سؤال ، أو حلاً لإشكال . فمن الأول قوله تعالى :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ، قُلْ : إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ »[1]

وقوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ . قُلْ هُوَ أَذًى ، فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ[2] » .

وقوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ : الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ »[3] .

---

(١) البقرة ، ٢٢٠ (٢) البقرة ، ٢٢٢

(٣) الأنفال ، ١

ومن الثاني (حل الأشكال) قوله تعالى : « وَلاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤمِنَّ ، وَلأَمَةٌ مُؤمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُم[1] » .

وقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ ، لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ، وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيْمَاً[2] » .

فقد نزل كل منها حلاً لمشكلة حدثت .

خامساً ـ اقتضى التدرج بالناس في التشريع أن يوجد ثمة ناسخ ومنسوخ ، إذ رُبَّ حكم كانت المصلحة والرحمة بالناس تقتضي أخذهم به على مراحل ، كتحريم الخمر مثلاً . فقد اكتفى القرآن في أول الأمر ببيان أن اضراره أكثر من فائدته ، وذلك في قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِر ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما[3] » . حتى إذا استقر في النفوس ذلك نزلت آية تنهي الناس عن السكر في أوقات الصلاة ، وذلك في قوله : « يَا أَيُّهَا الذيْنَ آمَنُوا لاَ تَقربُوا الصَلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ[4] » وهوتحريم جزئي في أوقات متقطعة من الزمن . فلما أخذ الناس أنفسهم بذلك ، واعتادوا الامتناع عن الخمر في تلك الأوقات نزلت آية قاطعة تحرمه تحريماً كلياً ، وذلك في قوله تعالى : « إِنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِر وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفلحُون[5] » .

لقد كانت كل مرحلة من هذه المراحل تنسخ ما قبلها وتصعد بالناس إلى طور جديد نحو تكامل التشريع واستقراره .

إن التكامل لا يتم إلا بنزول القرآن منجماً على مدة طويلة من الزمن[6].

ب ـ أوله وآخره

أما أول ما نزل من القرآن : الآيات الأولى من سورة العلق « اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ . خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم . الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَم . عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » وكان ذلك في السابع عشر من رمضان لأربعين سنة خلت من حياة النبي ،

---

(١) البقرة ، ٢٢١ (٢) النساء ، ١٠٥
(٣) البقرة ، ٢١٩
(٤) النساء ، ٤٣ (٥) المائدة ، ٩٠
(٦) انظر البوطي ، من روائع القرآن ص ٣٢

ويوافق هذا التاريخ السنة الثالثة عشرة قبل الهجرة ، كما يوافق شهر آب سنة عشر وستمائة للميلاد . (٦١٠ م)

أما آخر ما نزل من القرآن فهو قوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى اللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كلّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ » .

هذا هو الصحيح الذي اختاره العلماء[1] ، وعلى رأسهم السيوطي وهو منقول عن حَبْر هذه الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، وقد عاش النبي بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات ليلة الاثنين في الثالث من ربيع الأول .

وأما قول بعض العلماء : إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا .... الآية » فهو رأي غير صحيح ؛ لأن هذه الآية نزلت على رسول الله في حجّة الوداع ، وهو واقف بعَرَفة ، وقد عاش بعدها واحداً وثمانين يوماً . وقبل وفاته بتسع ليال نزلت « وَاتَّقُوا يَوْماً . . . » فتكون هي آخر ما نزل[2] . وبنزولها انقطع الوحي ، فكان ذلك آخر اتصال السماء بالأرض ، وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بعد نزول ختام القرآن ، وبعد أن أدّى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ودعا الناس إلى دين الله . صلى الله عليه وسلم .

---

(١) من العلماء من قال : أول ما نزل : سورة المدثر ، ومنهم من قال : سورة الفاتحة : ومنهم من قال « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم » ومنهم من قال نقلا عن حديث عائشة : أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار .. » الحديث ، انظر تفصيل ذلك والتوفيق بين الأقوال المتضاربة في كتاب « الإتقان للسيوطي الجزء الأول من صفحة ٢٣ إلى ٢٦ . »

(٢) للعلماء أقوال في آخر ما نزل ، فمنهم من قال : « آية الربا » ، ومنهم من قال « آية الكَلاَلة » . ومنهم من قال « ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ » ومنهم من قال « آخر سورة المائدة ، أو سورة الفتح » . انظر تفصيل الأقوال وتخريجها في الاتقان للسيوطي ١٦/١ ــ ٣٨ .

الفصل الثالث

جمع القرآن وترتيبه في عهد الرسول

ترتيب القرآن في عهد الرسول

استغرق نزول القرآن الكريم بين عشرين وثلاثة وعشرين عاماً ، هي جملة العمر الذي تكامل فيه هذا الكتاب العظيم نزولاً وترتيباً بين سوره وآياته . روى البخاري عن عائشة وابن عباس أنهما قالا : « لبث النبيّ ـ ص ـ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن وبالمدينة عشرا » .

فكيف تم ترتيبه وتنسيقه بهذا الشكل ، وهل كان ثمة من يكتب كل ما ينزل عنه في عهده صلى الله عليه وسلم ؟

أما الترتيب والتنسيق فان الأحاديث الواردة في هذا الشأن تتفق على أن ترتيب الآيات الى جانب بعضها ـ حسبما عليه المصحف الآن ـ إنما هو ترتيب توقيفي ، لم يجتهد فيه رسول الله ـ ص ـ ولا أحد من الصحابة في عهده ، أو من بعده ، وانما كان يتلقى ترتيبها الى جانب بعضها وحيا من عند الله تعالى بوساطة جبريل عليه السلام .

روى أحمد بإسناده عن عثمان بن أبي العاص[1] قال : كنت جالساً عند رسول الله ـ ص ـ اذ شخص ببصره ثم صوّبه ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة « إنَّ اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والاحسانِ وإيتَاءِ ذي القُرْبى[2] » . الآيـة .

وروى القرطبي بسنده عن ابن عباس قال : « آخر ما نزل من القرآن : « واتَّقُوا يوْمَاً تُرْجَعُونَ فيه الى الله ثم تُوَفَّى كُلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وهمْ لا يُظْلَمُونَ[3] » . فقال جبريل : « يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة » .

وبناء على هذه الأحاديث وأمثالها تمّ إجماع العلماء ، والمؤرخين والباحثين على أن ترتيب آيات القرآن عمل توقيفي من قِبَلِ الله عز وجل .

وما يقال عن ترتيب الآيات ، هو الذي يقال أيضاً عن ترتيب السور ، ووضع

---

(١) أسلم في وفد ثقيف ، فاستعمله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الطائف ، وأقره أبو بكر ثم عمر . ثم استعمله عمر على عمان والبحرين سنة خمس عشرة للهجرة ، ثم سكن البصرة حتى مات بها في خلافة معاوية . (الإصابة ٢٢١/٤) . (٢) النحل ، ٩٠ (٣) البقرة ، ٢٨١

البسملة في الأوائل .

وروى القرطبي عن ابن وهب قال : سمعت سليمان بن بلال يقول : سمعت ربيعة يسأل : لِمَ قُدّمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وإنما نزلتا في المدينة ؟ فقال ربيعة : قُدّمتا وأُلِّف القرآن على عِلم ممن أَلَّفــه .

وبهذا يتضح أن أصح الأقوال والروايات تثبت أن ترتيب الآيات ضمن السورة الواحدة ، وترتيب السور في المصحف توقيفي من الله جل جلاله .

جمع القرآن في عهد الرسول

جمع القرآن الكريم في عهدين : عهد النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين ، وقد كان لكل جمع خصائصه ومزاياه .

وكلمة « جمع » تطلق أحياناً ويراد منها الحفظ والاستظهار في صدور الرجال ، وتطلق تارة ويراد منها الكتابة والتسجيل في الصحائف والأوراق

وقد كان لجمع القرآن في عصر النبوة المعنيان معاً .

الأول ــ الجمع في الصدور ، عن طريق الحفظ والاستظهار .

الثاني ــ الجمع في السطور ، عن طريق الكتابة والنقش .

وستتحدث عن كلا الجمعين بشيء من التفصيل ، ليتبين لنا العناية الفائقة بالقرآن العظيم وكتابته وتدوينه .

أ ــ جمع القرآن في الصدور :

نزل القرآن الكريم على النبي الأمي ، فكانت همته منصرفة الى حفظه واستظهاره ليحفظه كما نزل عليه ، ثم يقرأه على الناس على مُكْث ليحفظوه ويستظهروه ، ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله الى العرب خاصة والى العالمين أجمعين « هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمِّيّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، ويُزَكّيهِمْ ويعلّمهم الكِتَابَ والْحِكْمَةَ [1] » .

ومن شأن الأمي ــ في العادة ــ أن يعتمد على حافظته وذاكرته ، ولقد كانت

---

(١) سورة الجُمُعَة ، ٢

الأمة العربية على عهد نزول القرآن تتمتع بخصائص العروبة الكاملة ، وفيها قوة الذاكرة ، وسرعة الحفظ ، وسيلان الأذهان ، وكان العربي يحفظ الآلاف من الأشعار ، ويعرف الأحساب والأنساب ، فيستظهرها عن ظهر قلب ، ويعرف التواريخ ، وَقَلَّ أن نجد فيهم من لا يَعُدُّ لك الحسب والنسب ، أو من لا يحفظ المعلقات ، والأخبار ، والروايات .

ثم جاء القرآن فبهرهم بقوة بيانه ، وروعة أحكامه ، وجلال سلطانه ، فأخذ عليهم مشاعرهم ، واستحوذ على عقولهم وأفكارهم ، حتى صرف هممهم الى الكتاب المجيد فيمموا وجوههم نحوه ، يحفظونه ويستظهرونه ، وتركوا الشعر لأنهم وجدوا في القرآن روح الحياة ، وروعة الأدب .

أما النبي ـ ص ـ فقد بلغ من حرصه الشديد على حفظ القرآن أنه كان يسابق الوحي في تلاوته ، لئلا يفوته منه شيء ، حتى لقد أمره الله قائلاً : « لا تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِه[1] » . وأنه كان يحيي الليل بتلاوة آياته في الصلاة ، عبادة وتلاوة وتدبراً لمعانيه ، حتى تفطرت قدماه من كثرة القيام امتثالاً لأمر الله العلي الكبير « يا أَيُّها المُزَّمِلُ . قُم اللَّيْلَ الاَّ قَليلاً . نِصْفَهُ أو انْقُصْ منه قَليلاً . أو زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرْتِيلاً[2] » . لذلك فلا عجب أن يكون الرسول ـ ص ـ سيد الحفاظ ، وأن يجمع القرآن في قلبه ، ويكون مرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن العظيم .

ومما يزيد الطمأنينة في حفظ الرسول للقرآن أن الوحي ـ جبريل ـ كان يراجعه فيه في كل سنة مرة ؛ وفي السنة التي توفي فيها ـ عليه السلام ـ راجعه الوحي فيها مرتين . وكان الرسول ـ ص ـ بدوره يعرض القرآن على الصحابة عرضاً رسمياً ، من أوله الى آخره ، وبالترتيب الذي هو عليه ، في كل سنة مرة .

وأما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا يتسابقون الى تلاوة القرآن ومدارسته ، ويبذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه ، ويعلمونه أزواجهم وأولادهم في البيوت ، حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في دجى الليل يسمع فيها دوياً كدويّ النحل ، حتى كان عليه السلام يمرّ على بعض دور الأنصار ، فيقف عند بعضها يستمع القرآن في ظلام الليل . أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري

---

(١) سورة القيامة ، ٧٥ (٢) المزمل ، ١ ـ ٤

أن رسول الله ـ ص ـ قال له : « لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك ؟ لقد أُعطِيتَ مزماراً من مزامير آل داوود ... وزاد في رواية لمسلم : فقلت : لو علمتُ والله يا رسول الله أنك تستمع لقراءتي لحَبَّرتُه لَكَ تَحْبِيراً » .

وقد اشتهر كثير من الصحابة بحفظ القرآن الكريم ، وكان الرسول ـ ص ـ يُذْكي فيهم روح العناية بحفظ القرآن ، ويبعث الى المدن والقرى من يعلمهم ويقرئهم ، كما بعث ـ قبل الهجرة ـ مُصْعَب بن عُمَير[1] وابن امّ مَكْتوم[2] إلى أهل المدينة ، يعلمانهم الإسلام ، ويقرئانهم القرآن ، وكما بعث مُعَاذَ بن جَبَل[3] إلى مكة للتحفيظ بعد هجرته إلى المدينة .

قال عُبَادةُ بن الصامت[4] : كان الرجل اذا هاجر دفعه النبي ـ ص ـ الى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يُسمَع لمسجد رسول الله ـ ص ـ ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا .

ومن هنا كان حفاظ القرآن في حياة الرسول ـ ص ـ لا يُحصَوْن ، ويكفي أن نعلم أن عدد الذين استشهدوا في معركة اليمامة يزيد عددهم على سبعين حافظاً ، كما استشهد مثل هذا العدد ببئر معونة[5] في أيام الرسول .

---

(١) مصعب بن عمير : صحابي من قريش ، شجاع ، ومن السابقين الى الاسلام ، أسلم في مكة وكتم اسلامه ، فعلم به أهله ، فأوثقوه وحبسوه ، فهرب مع من هاجر الى الحبشة ، ثم رجع الى مكة ، وهاجر الى المدينة ، شهد بدراً ، واستشهد بأحد سنة ٣هـ/٦٢٥م (طبقات ابن سعد ٣/٨١) .

(٢) عمرو بن قيس ، صحابي ، شجاع ، كان ضرير البصر . أسلم بمكة ، وهاجر الى المدينة بعد موقعة بدر . وكان يُؤذِّن لرسول الله في المدينة مع بلال . وكان النبي يخلفه على المدينة ، يصلي بالناس ، في عامة غزواته . وحضر حرب القادسية ومعه راية سوداء ، وعليه درع سابغة ، فقاتل ـ وهو أعمى ـ ورجع بعدها الى المدينة ، فتوفي فيها سنة ٢٣هـ/٦٤٣م (طبقات ابن سعد ٤/١٥٣) .

(٣) معاذ بن جبل : صحابي جليل ، كان أعلم الناس بالحلال والحرام . وهو أحد الرجال الذين جمعوا القرآن في عهد النبي . أسلم وهو فتى ، وآخى النبي بينه وبين جعفر بن أبي طالب ، وشهد العقبة ، وبدرا ، وأحُدا ، والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ـ ص ـ وبعثه الرسول الى أهل اليمن قاضياً ومرشداً ، اشترك مع أبي عبيدة في فتح الشام . توفي بالأردن سنة ١٨هـ/٦٣٩م (طبقات ابن سعد ٣/١٢٠) .

(٤) عباده بن الصامت : صحابي ، ورع ، شهد العقبة ، وبدرا ، وسائر المشاهد ، وحضر فتح مصر . مات بالرملة من فلسطين سنة ٣٤هـ/٦٥٤م (السيوطي ، حُسْن المحاضرة ١/٨٩).

(٥) بئر معونة : في أرض بني سليم وأرض بني كلاب ، وعندها كانت قصة الرجيع (الحَمَوي ، معجم البلدان) .

ويكفي هذا رداً على أستاذنا المستشرق الفرنسي « ريجيس بلاشير[1] » الذي ذكر في كتابه « مدخل الى القرآن » أن حفظة القرآن لم يزد عددهم على سبعة .

ب ـ جمع القرآن في السطور

كان لرسول الله ـ ص ـ كتّاب للوحي ، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته ، مبالغة في تسجيله وتقييده ، وزيادة في التوثق والضبط ، والاحتياط الشديد في كتاب الله ، حتى تدعم الكتابة الحفظ ، ويعضد التسجيل المسطور ما أودعه الله في الصدور .

وكان من كتاب وحي رسول الله زيد بن ثابت[2] وأُبيّ بن كعب[3] ، ومُعاذ ابن جَبَل، ومعاوية بن أبي سفيان ، والخلفاء الراشدون ، وغيرهم من الصحابة الأجلاء .

أما طريقة الكتابة فقد كانوا يكتبون القرآن على العُسُب[4] ، واللِّخَاف[5] والرقاع[6] ، والكَرانيف[7] ، والأقتاب[8] ، وقِطَع الأديم ، وعظام الأكتاف ، وغيرها . ذلك

(١) ريجيس بلاشير : مستشرق فرنسي كبير ، ولد في ضاحية من ضواحي باريس سنة ١٩٠٠ م ، وتلقى علومه الثانوية في مدينة الدار البيضاء بالمغرب ، وتعلم العربية في كلية الآداب بالجزائر ، درَّس حقبة في المغرب ، ثم انتقل مدرساً في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، بعدها عُيِّن أستاذاً في الصوربون ، من كتبه : « دراسات عن المتنبي » ، «وقواعد اللغة العربية » ، « وترجمة القرآن » ، « وحياة محمد » ، « وتاريخ الأدب العربي » ، « ومدخل الى القرآن » . لا يزال حياً . ولكن كف بصره منذ عدة سنوات (معلومات شخصية لتلمذتنا عليه) .

(٢) زيد بن ثابت : من أكابر الصحابة ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة ، ونشأ بمكة ، وهاجر مع النبي وعمره ١١ سنة . درس بين يدي الرسول ، وكان ابن عباس ـ على جلالة قدره وسعة علمه ـ يأتيه الى بيته للأخذ عنه . وهو أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي وأبي بكر وعثمان . توفي سنة ٤٥هـ/٦٦٥م (الأعلام ٣/٩٦) .

(٣) أبي بن كعب : صحابي جليل ، كان قبل الاسلام حَبْراً من أحبار اليهود ، وكان يتقن القراءة والكتابة ، ولما أسلم صار من كُتّاب الوحي ، وشهد بدراً وأُحُداً والخندق والمشاهد كلها ، وكان يفتي على عهد الرسول وعمر ، وهو الذي كتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس . وهو الذي اشترك في جمع القرآن أيام عثمان توفي بالمدينة سنة ٢١هـ/٦٤٢م (الأعلام ١/٧٨) .

(٤) العُسُب : ج عَسِيب ، وهو جريد النخل ، كانوا يكشِطون الخُوصَ ويكتبون في الطرف العريض .

(٥) اللِخاف : ج لَخْفه ، وهي صفائح الحجارة .

(٦) الرِقاع : ج رُقْعة ، وتكون من جلد أو ورق أو غيرها من أدوات الكتابة .

(٧) الكرانيف : ج كُرنافة ، وهي أصول سعف النخل .

(٨) الأقتاب : ج قَتَب ، وهو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .

لأن صنع الورق لم يكن مشتهراً عند العرب ، وقد كان عند بعض الأمم الأخرى كالفرس والروم ، ولكنه كذلك كان نادراً ، فكان العرب يكتبون على ما يقع تحت أيديهم مما يصلح للكتابة .

روي عن زيد بن ثابت أنه قال : « كنا عند رسول الله ـ ص ـ نؤلف القرآن من الرقاع » .

يقول الزرقاني في كتابه « مناهل العرفان في علوم القرآن » : « وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب ارشاد النبي ـ ص ـ ، وكان هذا الترتيب بتوقيف جبريل ـ عليه السلام ـ ، فقد ورد أن جبريل كان يقول : « ضعوا كذا في موضع كذا » ، ولا ريب ان جبريل كان لا يصدر في ذلك الا عن أمر الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ .

أما الصحابة ـ رض ـ فقد كان منهم من يكتب القرآن ،ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتف ، أو عظم ، أو نحو ذلك ، بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ـ ص ـ . ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها ، وذلك لأن أحدهم كان اذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله ـ ص ـ أو كتبها ، ثم خرج في سَرِيَّةٍ مَثَلاً ، فنزلت في وقت غيابه سورة ، فانه كان اذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه ، فيجمعه ، ويتتبعه على حسب ما يسهل له ، فيقع فيما يكتبه ذلك الرجل تقديم وتأخير بسبب ذلك .

وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه ، فلا يكتب جرياً على عادة العرب في حفظ أنسابها ، واستظهارها مفاخرها وأشعارها من غير كتابة .

وصفوة القول : إن القرآن كان مكتوباً كله على عهد الرسول ـ ص ـ ، وكانت كتابته ملحوظاً فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها ، غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة ، وربما كتبه غير مرتب ، ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعاً في صحف ، ولا مصاحف عامة .

والسؤال الآن : **لماذا لم يجمع القرآن في عهد الرسول في مصحف واحد ؟** .

والجواب : لم يجمع القرآن في مصحف واحد لاعتبارات عدّة :

أولها : أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد في عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف ، ولا مثل ما وجد في عهد عثمان حتى نسخه في مصاحف . فالمسلمون وقتئذ بخير ، والقراء كثيرون ، والاسلام لم

يستبعد عمرانه بعد ، والفتنة مأمونة ، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير ميسورة ، وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف ، وتوفي على الغاية .

ثانيها : أن النبي ـ ص ـ كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات .

ثالثها : أن القرآن لم ينزل مرة واحدة ، بل نزل مُنَجَّماً في مدى عشرين سنة أو أكثر .

رابعها : أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله ، فنزوله كان على حسب الأسباب . أما ترتيبه فلغير ذلك من الاعتبارات .

ولو جمع القرآن في صحف أو مصاحف ـ والحال على ما شرحنا ـ لكان عرضة لتغيير الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ ، أو حدث سبب[1]. بل كيف يُجْمَع ولم يكن بين نزول آخر آية من القرآن ووفاة الرسول سوى تسع ليال ؟ .

---

(١) الزرقاني ١ / ٢٤٢

الفصل الرابع

جمع القرآن في عهد أبي بكر

ما إنْ تولى أبو بكر ـ رض ـ الخلافة حتى واجهته خطوب جسيمة ، وشدائد عظيمة ، منها حروب الردة التي وقعت بين المسلمين وغيرهم من القبائل المرتدة ، وكان أعنفها تلك المعارك التي قامت بين المسلمين وأتباع مُسَيْلِمة الكذاب [1] ، في معركة اليمامة المشهورة التي استشهد فيها من القراء ، وحفظة القرآن ما يزيد على سبعين رجلاً . وقد هال ذلك المسلمين ، وعزَّ الأمر على عمر بن الخطاب ، فدخل على أبي بكر فوجده في حزن وألم ، فأشار عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ . فتردد أبو بكر أول الأمر ، ثم رأى أن يأخذ بإشارة عمر بعد أن تبين له وجه المصلحة ، وشرح الله صدره لذلك العمل الجليل . فأرسل إلى زيد بن ثابت وعرض عليه الأمر ، وطلب منه أن يقوم بجمع القرآن في مصحف واحد . ولكن زيداً تردد في بادئ الأمر ، ثم شرح الله صدره لِلّذي شرح له صدر أبي بكر وعمر .

وقد روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع ننقلها بنصها لأهميتها :
عن زيد بن ثابت ـ رض ـ أنه قال :

أرسل إليّ أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة [2] فإذا عمر جالس عنده . فقال أبو بكر : إنّ عمر جاءني فقال : إن القتل قد استحَرَّ [3] يوم اليمامة بقُرّاء القرآن ،

---

(١) مسيلمة بن ثمامة الحنفي الوائلي ، أبو ثمامة ، متنبئ ، ولد ونشأ باليمامة في القرية المسماة اليوم « الجُبَيْلَة » بوادي حنيفة في نجد ، تلقب بالجاهلية « بالرحمن » ادعى النبوة أيام الرسول ـ ص ـ وأكثر من وضع أسجاع يضاهي بها القرآن ، وتوفي الرسول قبل القضاء على فتنته ، وفي عهد أبي بكر انتدب له خالد بن الوليد على رأس جيش عظيم ، فظفر به خالد ، وقتله ، وأنهى فتنته سنة ١٢ هـ/٦٣٢ م سيرة (ابن هشام ٧٤/٣) .

(٢) أي : عقب استشهاد الحفاظ السبعين في معركة اليمامة

(٣) استحرّ : كثر واشتد .

وإني أخشى أن يستمرّ القتل بالقراء في كل المواطن ، فيذهبَ من القرآن كثير ، واني أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت : وكيف أفعلُ ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر رضي الله عنه : هو والله خير . فلم يزل يُراجعني في ذلك ، حتى شرح الله تعالى صدري للذي شرح الله له صدر عمر ، ورأيت في ذلك الذي رأى . قال زيد : فقال أبوبكر : إنك رجل شاب عاقل ، لا نتَّهمك ، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَتَتَبَّعِ القرآن واجمعْه . قال زيد : فو الله لوكلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني بـه . فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح لـه صدر أبي بكر وعمر . فتتبعت القرآن أجمعه من اللِّخاف والعُسُب وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خُزَيمة الأنصاري [1] لم أجدها مع غيره ، « لقد جاءكم رسولٌ منْ أنْفُسِكُم [2] » حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله تعالى ، ثم عند حفصة بنت عمر [3] .

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت ، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابـة ، وقوله في الحديث : « ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمـة الأنصاري لم أجدها مع غيره » لا ينافي هذا ، وغاية ما فيه أنه لم يجده مكتوباً عند أحد غيره ، بينما وجده محفوظاً عند كثير من الصحابة ، وكذلك الشأن فيما هو مثل هذا ، في آية « مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عليه [4] » الآية .

وقد روي أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : « اقعـدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدَيْن على شيء من كتاب الله فاكتباه » .

---

(١) أبو خزيمة الأنصاري : صحابي من أشراف الأوس في الجاهلية والإسلام ، ومن شجعانهم ، حمـل راية الاوس يوم فتح مكة ، وشهد معركة صفين وقاتل مع علي ، وفيها استشهد سنة ٣٧هـ/٦٥٧م (الاصابة ٤٣٥/١) .

(٢) التوبة ، ١٢٨ .

(٣) حفصة بنت عمر : صحابية جليلة صالحة ، من أزواج النبي ـ ص ـ ولدت بمكة ، وتزوجها خُنَيس بن حُذافة السهمي ، فكانت عنده الى أن ظهر الاسلام ، فأسلما ، وهاجرت معه الى المدينة ، فمات عنها ، فخطبها رسول الله من أبيها ، فزوجه اياها . توفيت سنة ٤٥هـ/٦٦٥م (الاصابة ٢٧٣/٤) .

(٤) الأحزاب ، ٢٣

قال ابن حَجَر[1] : وكأن المراد بالشاهدين : الحفظ والكتابة .
وقال السَّخاوي[2] : المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ـ ص ـ .

وبهذا فقد كان أبو بكر أول من جمع القرآن في مصحف ، وان كانت مصاحف فردية عند بعض الصحابة كمصحف علي بن أبي طالب . وعليٌّ نفسه يقول : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله » .

ونستطيع أن نلخص مزايا مصحف أبي بكر بالنقاط التالية :

١ ـ التحرّي الدقيق التام ، والتثبت الكامل .
٢ ـ لم يسجل في المصحف الا ما ثبت عدم نسخ تلاوته .
٣ ـ إجماع الأمة عليه ، وتواتر ما سجل فيه من الآيات القرآنية .
٤ ـ طريقة كتابته اشتملت على الأحرف السبعة[3] .

ولقد حفظ أبو بكر صحف القرآن عنده حتى توفاه الله ، ثم صارت الصحف الى عمر بن الخطاب وظلت عنده حتى وفاته ، ثم انتقلت الى ابنته حفصة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تسلم وقتئذ الى عثمان لأن عمر جعل أمر الخلافة شورى من بعده ، ولم يكن عثمان قد اختير للخلافة بعد ، ولذلك فمن الطبيعي ألا تسلم اليه الصحف .

أما تسمية القرآن « بالمصحف » فقد نشأت على عهد أبي بكر ، فقد روي أنه لما جمع زيد وعمر القرآن ، وكتباه على الورق ، قال أبو بكر : التمسوا له اسما . فقال

---

(١) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، أبوالفضل ، شهاب الدين ، ابن حجر. من أئمة العلم والتاريخ . ولد بفلسطين ومات بالقاهرة . ولع بالأدب والشعر ، ثم أقبل على الحديث ، ورحل في طلبه ، من مؤلفاته : « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » و « لسان الميزان » و « تقريب التهذيب » و « الاصابة في أسماء الصحابة » وعشرات غيرها . توفي سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٩م (الاعلام ١/١٧٤) .

(٢) محمد بن عبد الرحمن ، شمس الدين . مؤرخ حجة ، وعالم بالحديث والتفسير ، والأدب . أصله من « سَخَا » من قرى مصر ، ومولده في القاهرة ، ووفاته في المدينة . صنف زهاء مئتي كتاب . منها « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » و « شرح ألفية العراقي » في مصطلح الحديث ، و « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » . توفي سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م (الاعلام ٦٨٧) .

(٣) سنشرح في فصل مستقل معنى الأحرف السبعة

بعضهم : « السِّفْر » . قال : ذلك اسم تسميه اليهود . فكرهوا ذلك . وقال بعضهم : « المصحف » فإن الحبشة يسمون مثله « المصحف » . فاجتمع رأيهم على أن سموه « المصحف [1] » .

(١) صبحي الصالح : في علوم القرآن ص ٨٧ نقلاً عن الاتقان ١/٨٩ .

الفصل الخامس

جمع القرآن في عهد عثمان

أما جمع القرآن في عهد عثمان فقد كان له سبب آخر غير السبب الذى حدث في عهد أبي بكر ، فقد اتسعت الفتوحات الاسلامية في عهد عثمان ، وتفرق المسلمون في الأقطار والأمصار ، واشتهر في كل بلد من البلاد الاسلامية قراءة الصحابي الذي علّمهم القرآن ، فأهل الشام كانوا يقرؤون بقراءة « أُبيّ بن كعب » ، وأهل الكوفة كانوا يقرؤون بقراءة « عبدالله بن مسعود[1] » وغيرهم كان يقرأ بقراءة « أبي موسى الأشعري » ، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ، ووجوه القراءات ، حتى كاد الأمر يصل الى النزاع والشقاق بينهم ، وكاد بعضهم يكفر بعضا بسبب اختلاف القراءة .

كانوا اذا ضمهم مجمع أوموطن من مواطن الغزوعجبوا من وجوه هذا الاختلاف وقد يقنعهم بعضهم بأنها جميعا مسندة إلى رسول الله ـ ص ـ ، ولكن هذا لا يحول دون تسرب الشك إلى الناشئة التي لم تدرك الرسول ، فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها ، وذلك يؤدي إلى الملاحاة إن استفاض أمره ، وَمَرَدوا عليه ، ثم إلى اللجاج ، والتأثيم والتكفير ، وتلك فتنة لا بد لها من علاج .

يضاف إلى هذا أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار ، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها حتى يتحاكموا إليها حينما يختلفون . إنما كان كل صحابي في إقليم ، يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن . ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد .

---

(١) عبدالله بن مسعود : من أكابر الصحابة ، فضلاً وعقلاً ، وقرباً من الرسول ـ ص ـ ومن السابقين الى الاسلام ، وكان خادم الرسول ، وصاحب سِرّه ، ورفيقه في حله وترحاله وغزواته ، يدخل عليه كل وقت ، ويمشي معه . قال عنه عمر : وعاء مُلِىءَ علماً . توفي سنة ٣٢هـ/٦٥٣م (الإصابة : ت ٤٩٥٥ ؛ والأعلام ٤/٢٨٠) .

ولننقل مرة أخرى ما رواه البخاري في هذا الصدد .

عن أنس بن مالك[1] أنه قال :

إن حُذَيْفَة بن اليَمَان[2] قدِم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة . فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك . فأرسلت بها حفصة الى عثمان . فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم . ففعلوا ، حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في صحيفة أو مصحف أن يُحرَق[3]. قال زيد : آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ــ ص ــ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خُزَيْمَة بن ثابت الأنصاري « مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه[4] » فألحقناها في سورتها في المصحف .

وبهذا العمل الحاسم قطع عثمان دابر الفتنة ، وحصَّن القرآن من أن يتطرق اليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان .

وكانت هذه المصاحف سبعة ، عدد الآفاق التي أرسل اليها : مكة ، والشام ، والبصرة ، والكوفة ، واليمن ، والبحرين ، والمدينة وهو الذي حبسه لنفسه . وقيل عددها أربعة : العراقي ، والشامي ، والمصري ، والمصحف الامام ، وقيل غير ذلك .

---

(١) أنس بن مالك : صحابي ، جليل ، صاحب الرسول وخادمه ، روى عنه ٢٢٨٦ حديثاً . أسلم صغيراً وخدم النبي ــ ص ــ الى أن قبض . ثم رحل الى دمشق ، فالى البصرة ، وفي هذه توفي سنة ٩٣هـ/ ٨١٥م (طبقات ابن سعد ٧/١٠) .

(٢) حذيفة بن اليمان : صحابي ، شجاع ، كان صاحب سر النبي ــ ص ــ في المنافقين . ولاه عمر على المدائن ، ففتح نهاوند ، والدينَوَر ، وماه سندان ، وهمذان ، والريّ ، وبلاد أرمينية . كان من أزهد الناس في الدنيا . توفي بالمدائن سنة ٣٦هـ/٦٥٦م (الاصابة ٣١٧/١) .

(٣) صحيح البخارى ٩٩/٦

(٤) الأحزاب ، ٢٣

ويمتاز مصحف عثمان بالترتيب المعروف في السور اليوم . وهذا الجمع كان سنة (٢٥) خمس وعشرين للهجرة ، بينما كان جمع أبي بكر في السنة (١٢) الثانية عشرة للهجرة .

ونتساءل : ما ميزة مصحف عثمان ، وما الدستور الذي اتبعه في نسخ المصاحف؟

ونرى الجواب واضحاً في النقاط التالية :

١ ـ لم تكتب اللجنة الرباعية في المصحف إلا ما تحققت أنه قرآن ، وتيقنت أنه قد استقر في العَرْضَة الأخيرة أي في آخر مرة عرض فيها الرسول الكريم القرآن كاملاً أمام جبريل ، وما تثبتت اللجنة صحته عن النبي مما لم يُنسَخ .

٢ ـ كتبت اللجنة مصاحف متعددة ، لأن عثمان قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار المسلمين المتعددة . وكانت تلك النسخ متفاوتة في اثبات وحذف وبدل وغيرها ، لأن عثمان قصد اشتمالها على الأحرف السبعة . وقد كانت المصاحف خالية من النقط والشكل تحقيقاً لهذا الاحتمال .

٣ ـ عدم وجود النقط والشكل جعل رسم بعض الكلمات يقرأ بأكثر من وجه نحو : « فَتَبَيَّنوا » من قوله تعالى « إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبأ فَتَبَيَّنوا[1] » فإنها تصلح أن تقرأ « فتثبتوا » وهي قراءة أخرى .

وكذلك كلمة « نُنْشِرُهَا » من قوله تعالى « وانظُرْ إلى العِظَامِ كيف نُنْشِرُهَا[2] » فإنها تصلح أن تقرأ « نُنْشِزهَا » بالزاى ، وهي قراءة واردة .

٤ ـ الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة ، وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية .

فقراءة « وصّى » بالتضعيف ، و« أوصى » بالهمز ، وهما قراءتان في قوله تعالى : « وَوَصّى بها إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ويعقوبُ[3] » .

وقراءة « تَحْتَها الأَنْهَارُ » ، وقراءة « مِنْ تحتِها الأنهارُ » بزيادة « من » في قوله تعالى في سورة التوبة « لهم جنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحتِها الأنهارُ[4] » وهما قراءتان .

---

(١) الحجرات ، ٦ — (٢) البقرة ، ٢٥٩

(٣) البقرة ، ١٣٢ — (٤) التوبة ، ١٠٠

٥ ـ كانت اللجنة تتحاشى أن تكتب اللفظ الواحد بمصحف واحد برسمين : أحدهما في الأصل ، والآخر في الحاشية ، لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح للأول . وذلك قد يعني ـ أيضاً ـ ترجيحاً لقراءة على قراءة .

٦ ـ إن اللجنة الرباعية باتخاذها صحف حفصة أساساً لنسخ المصاحف ، إنما استندت الى أصل أبي بكر .

٧ ـ كانت كتابة اللجنة الرباعية للمصاحف وفقاً للهجة قريش أصلاً ، فالقرآن نزل بلغتها ، وأمر عثمان أن يكتب بها عند حدوث خلاف بين أعضاء اللجنة الذين كان ثلاثة منهم من قريش وزيد بن ثابت وحده من الأنصار .

لقد أعاد عثمان الصحف الى حفصة بعد نسخها ، وبقيت عندها ، وورد في الأخبار أن مروان بن الحكم في عام ٦٥ للهجرة حاول أن يأخذها منها ليحرقها ، فأبت ، حتى إذا توفيت أخذها وأحرقها ، وقال مدافعاً عن وجهة نظره : إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كُتِب وحُفِظ بالمصحف الإمام ، فخشيت إنْ طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه المصاحف مرتاب .

وحين توزعت مصاحف عثمان في الآفاق أحرق كل امرىء ما كان عنده من قبل ، وأقبل الناس على استنساخ المصاحف من هذه الأصول الوثيقة المعتمدة ، الى جانب دراستها وتلقيها مشافهة من كبار القراء الذين بعثهم عثمان مع المصاحف .

وننتهي إلى القول : إن القرآن الكريم منذ نزوله على محمد ـ ص ـ إلى وصوله إلينا اليوم كان سلسلة من التدوين الكتابي الدقيق ، والتلقي الشفهي السليم ، ما فيه حلقة مفقودة ، أو ثغرة ينفذ منها شك أو اختلاف يبعث على ريبة . وصدق الله العظيم اذ قال : « إنّا نحنُ نزّلنا الذِكرَ وإنّا لهُ لحَافِظُونَ[١] » .

---

(١) الحجر ، ٩

الباب الثاني

عُلومُ القُرْآن

الفصل الأول

المكي والمدني

ينقسم القرآن في مجموعه الى مكي ومدني . وقد عني الرواة والعلماء عناية كبيرة بتمييز هذين القسمين من بعضهما . واستخراج خصائص كل منهما ، لما يترتب على ذلك من أمور تشريعية وتاريخية وغير ذلك .

ولقد عني الرواة والباحثون بتصنيف القرآن إلى ما نزل منه في مكة ، وما نزل في المدينة . وما نزل بالجُحْفَة ، وما نزل في الطائف ، وما نزل ببيت المقدس . ثم ما نزل نهاراً . وما نزل ليلاً ، وما نزل مُشَيَّعا ، وما نزل مفرداً ، ثم الآيات المدنية في السور المكية ، والآيات المكية في السور المدنية ، ثم ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة ، وما حُمِل من المدينة الى مكة ، وما حُمِل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مُجْملا ،وما نزل مُفَسراً ، وما نزل مرموزاً ، ثم ما اختلفوا فيه فقال بعضهم : مدني وما إلى ذلك ...

هذا الاستقصاء في تحري أماكن نزول الآيات ، ومعرفة أسباب نزولها قد يبدو لبعض الغافلين أنه أمر غير ذي بال ، ولكنه في نفوس الرواة والعلماء يعني صدق الرواية ، وإحاطة القرآن بسياج من العناية لم يظفر بأقل منها أي كتاب آخر في هذا الوجود في مشارق الأرض ومغاربها ، منذ أن خُطَّ أول سطر في هذه الحياة الى يومنا هذا .

ومما رُوي في هذا الصدد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « والله الذي لا آله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت . ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه[1] » .

---

(١) البخارى ١٠٢/٦

وجاء في كتاب الإتقان للسيوطي[1] أن رجلاً سأل عكرمة رضي الله عنه عن آية من القرآن فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل ، وأشار الى سَلْع[2] .

هذا الحرص الشديد وجدناه عند عدد من الصحابة ، والذين حرصوا هم قرّاء القرآن ، وحَفَظَتُه من فم الرسول صلى الله عليه وسلم وهم كثيرون . وقد كانوا يحفظون مَعَ نطق الآية وتلقيها : كتابَتَها وتاريخَ نزولها .

وجاء التابعون من بعد الصحابة ، فاشتغلوا برواية هذا كله ، ونقلوه بالطرق العلمية ، وحسب قواعد المصطلح . وبذلك وجد العلماء بين أيديهم ما أطلق عليه فيما بعد اسم « علم المكي والمدني » .

وقد يتساءل أحد الناس : ما الفائدة من دراسة علم المكي والمدني ؟ .

والجواب سهل ميسور . ذلك أنه يترتب على إتقان هذا العلم معرفة ما قد يوجد في كتاب الله من ناسخ ومنسوخ ، ليصار الى الأخذ بالناسخ ، واطِّراح المنسوخ ، ولا سيما في مجال الأحكام والتشريع . ولن تتيسر هذه المعرفة إلا بإتقان تاريخ نزول الآيات ، ومواطنها .

إن وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن اقتضته ضرورة أخْذِ الناس بالتدريج في الأحكام الشرعية ، كالآيات التي نزلت متدرجة في تحريم الخمر ، وكالآيات التي نزلت في عقوبة الزنى .

وليس معنى نسخ الحكم في آية من آيات القرآن أن قرآنيتها قد سقطت بذلك ، بل تظل قرآناً يتلى ويتعبد به ، وهي من كلام الله ، ولكن يبطل العمل بها لمكان الآية التي نسختها .

وفائدة ذلك لنا نحن : التبصر بالمراحل التدريجية التي سار فيها التشريع ، والاطلاع على الطريقة الحكيمة المثلى التي أخذ الله بها فيما سنّ لهم من أحكام . كذلك فإنا نقف على مراحل الدعوة الإسلامية ، ونطلع على تكامل بنية الفكر والتصور الإسلامي .

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي ، جلال الدين ، امام ، حافظ . مؤرخ ، أديب . له نحو ٦٠٠ مصنف . توفي سنة ٩١١ هـ/١٥٠٥م (الأعلام ٤/٧١).

(٢) الاتقان ١/٩ (وسَلْع : جبل قرب المدينة المنورة) .

وفائدة أخرى لا تقل أهمية عما سبقها هي أن هذه المعرفة تبصرنا بمعنى الآية القرآنية، وتحجزنا عن الخطأ في تفسيرها. ذلك أن من قرأ سورة «قُلْ يا أيُّها الكافرونَ، لا أعبُدُ ما تَعْبُدونَ، ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ، ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ، ولا أنتمْ عابِدُونَ ما أعبُدُ، لكُمْ دينكُمْ وليَ دِين[1]» ولم يعلم زمن نزولها، وهل هي مكية أو مدنية، فانه يحار في معناها، وقد يستخرج منها أن المسلمين لا يكلَّفون في الجهاد، وإنما عليهم أن يقولوا للآخرين: «لكم دينُكُمْ وليَ دين»، لكنه إذا علم أن هذه السورة إنما نزلت في مكة، حين قال بعض صناديد الشرك لرسول الله ـ ص ـ: «تعال يا محمد نعبدْ إلهك يوماً، وتعبد آلهتنا يوماً.» أدركَ أنَّ هذه السورة علاج للمرحلة التي كان فيها الرسول في مكة، وليست دليلاً على عدم مشروعية الجهاد كما نزلت بذلك الآيات الأخرى في المدينة[2].

* * *

إن المتأمل في القرآن يجد للآيات المكية خصائص تشريعية وأدبية ليست للآيات المدنية في وقعها ومعانيها، وإن كانت الثانية امتداداً للأولى في الأحكام والتشريع.

فحيث كان القوم في جاهلية تُعمي وتُصِمّ، يعبدون الأوثان، ويشركون بالله، وينكرون الوحي، ويكذِّبون بيوم الدين، وكانُوا يقولونَ: «أئِذا مِتْنا وكنا تُراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون[3]». «وقالوا ما هِيَ الا حياتُنا الدنيانموتُ ونحيا ومَا يُهْلِكُنَا إلا الدهرُ[4]»، وهم ألدَّاءُ في الخصومة، أهلُ مماراة ولجاجة في القول ـ عن فصاحة وبيان ـ نزل الوحي المكي قوارع زاجرةً، وشُهُباً منذِرة، وحججاً قاطعة، يحطم وثنيتهم في العقيدة، ويدعوهم الى توحيد الألوهية والربوبية[5]، ويهتك أستار فسادهم، ويقيم دلائل النبوة، ويضرب الأمثلة للحياة الآخرة. وما فيها من جنة ونار، ويتحداهم على فصاحتهم بأن يأتوا بمثل القرآن؛ ويسوق إليهم قصص المكذبين العابرين عبرة وذكرى، فتجد في مكي القرآن ألفاظاً شديدة

---

(١) الكافرون

(٢) البوطي، من روائع القرآن ص ٨٥

(٣) المؤمنون، ٨٢ (٤) الجاثية، ٢٤

(٥) توحيد الألوهية يعني عبادة آله واحد، دون ان يشرك معه في غيره في العبادة. وتوحيد الربوبية يعني الاعتقاد بأن الخالق والمدبّر هو الله وحده دون سواه.

القرع على المسامع ، تقذف حروفها شرر الوعيد ، وألسنة العذاب ، فـ « كَلاَّ » الرادعة الزاجرة ، والصّاخّة ، والقارعة ، والغاشية ، والواقعة ، وألفاظ التهجّي في فواتح السور ، وآيات التحدّي في ثناياها ، ومصير الأمم السابقة « فكُلاًّ أخذْنا بذَنْبه ، فمنهم مَنْ أرْسَلْنا عليه حاصباً ، ومنهم مَنْ أخذتْه الصَّيْحَةُ ، ومنهم من خَسَفْنا به الأرضَ ، ومنهم مَنْ أغْرَقْنا ، وما كان اللهُ لِيظلمَهم ، ولكن كانوا أنفسَهم يظلِمونَ[1] » ، وإقامة الأدلة الكونية ، والمجادلة العقلية ، كل هذا نجده في سياق الآيات المكية .

وحين تكونت الجماعة المؤمنة ، وامتُحِنت في عقيدتها بأذى المشركين ، فصبرت ، وهاجرت بدينها ، مؤثرة ما عند الله على متع الحياة أصبحت الآيات المدنية طويلة المقاطع ، تتناول أحكام الإسلام وحدوده ، وتدعو الى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، وتفصل أصول التشريع ، وتضع قواعد المجتمع ، وتحدد روابط الأسرة ، وصلات الأفراد ، وعلاقة الأمم ، كما تفضح المنافقين ، وتكشف عن دخيلتهم . وهذا هو الطابع العام للآيات المدنية .

وأقرب ما قيل في تعداد السور المكية والمدنية الى الصحة أن المدني باتفاق العلماء عشرون سورة هي : ١ ـ البقرة ٢ ـ آل عمران ٣ ـ النساء ٤ ـ المائدة ٥ ـ الأنفال ٦ ـ التوبة ٧ ـ النُّور ٨ ـ الأحزاب ٩ ـ محمد ١٠ ـ الفتح ١١ ـ الحُجُرات ١٢ ـ الحديد ١٣ ـ المجادِلة ١٤ ـ الحَشْر ١٥ ـ الممتحِنة ١٦ ـ الجُمُعَة ١٧ ـ المنافقون ١٨ ـ الطلاق ١٩ ـ التحريم ٢٠ ـ النصر .

وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة هي : ١ ـ الفاتحة ٢ ـ الرعد ٣ ـ الرحمن ٤ ـ الصف ٥ ـ التغابُن ٦ ـ التطفيف ٧ ـ القَدْر ٨ ـ لم يكن ٩ ـ اذا زُلْزِلت ١٠ ـ الإخلاص ١١ و ١٢ ـ المُعَوِّذَتَان .

وأن ما سوى ذلك مكي باتفاق ، وهو اثنتان وثمانون سورة ، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربعَ عشرة سورة .

ولا يقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك ، فقد يكون في السورة المكية بعض آيات مدنية ، وفي السورة المدنية بعض آيات مكية ؛

---

(١) العنكبوت ـ ٤٠

ولكنه وصفٌ بحسب أكثر آياتها ، ولذا يأتي في التسمية : سورة كذا مكية إلا آية كذا فانها مدنية ، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية ، كمانجد ذلك في المصاحف .

وإذا أردنا **معرفة المقاييس التي أطلقت ، فسمي هذا مكيا وسمي هذا مدنيا** وجدنا ثلاثة آراء .

الأول : **اعتبار زمن النزول .**

فالمكي ما نزل قبل الهجرة ، وإن كان بغير مكة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإنْ كان بغير المدينة . فما نزل بعد الهجرة ـ ولو بمكة ، أو عَرَفة ، أو غيرهما ـ مدنيّ ، كالذي نزل عام الفتح أو بحجة الوداع كقوله تعالى : « اليومَ أكْمَلْتُ لكمْ دينَكُمْ ، وأتْمَمْتُ عليكم نِعمَتي ، وَرَضِيتُ لَكمُ الإسلامَ دِيناً[1] » . وهذا الرأي أولَى من الرأيين التاليين لحصره واطراده .

الثاني : **اعتبار مكان النزول .**

فالمكي ما نزل بمكة وما جاورها كَمِنًى وعرفات والحُدَيبية . والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحُد وقُباء وسَلْع .

ويترتب على هذا الرأيِ عدم ثنائية القسمة وحصرها ، فما نزل بالأسفار ، أو بِتَبُوك ، أو ببيت المقدِس لا يدخل تحت القسمة ، فلا يسمى مكيا ولا مدنياً ، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكياً .

الثالث : **اعتبار المخاطب .**

فالمكي ما كان خطاباً لأهل مكة . والمدني ما كان خطاباً لأهل المدينة . وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى « يا أيُّها الناسُ » مكي ، وما فيه من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » مدني . وبالملاحظة يتبين أن هذا لا يطرد ، وأن أكثر سور القرآن لم تُفْتَتَحْ بأحد الخطابين . والقرآن خطاب الله للخلق أجمعين .

لقد حاول كثير من العلماء أن يجمعوا السمات البارزة في كل من المكي والمدني ، فوصلوا إلى نتائج أهمها :

---

(١) المائدة ، ٣

خصائص الآيات المكية .

١ ـ الدعوة إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده ، وإثبات الرسالة والبعث ، والجزاء بآيات الله الكونية ، وقطع دابر خصومتهم بالبراهين العقلية ، وذكر القيامة وَهَوْلِها ، والنارِ وعذابها ، والجنة ونعيمها .

٢ ـ وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل التي يقوم عليها المجتمع ، وفضح جريمة المشركين في سفك الدماء ، وأكل أموال اليتامى ، ووأد البنات ، وما كانوا عليه من سوء العادات .

٣ ـ ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً للكافرين حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم ، وتسلية لرسول الله ـ ص ـ حتى يصبر على أذاهم ويطمئن الى الانتصار عليهم .

٤ ـ قِصَر الفواصل مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة بما يصِخّ الآذان ، ويشتد قرعه على المسامع ، ويصعق القلوب كقصار المفصَّل ـ إلا نادراً ـ .

٥ ـ كل سورة فيها سجدة مكية .

٦ ـ كل سورة فيها لفظ « كلاَّ » مكية .

٧ ـ كل سورة فيها « يا أيها الناس » وليس فيها « يا أيها الذين آمنوا » مكية إلا سورة الحج ـ على اختلاف ـ .

٨ ـ كل سورة تفتتح بحروف التهجي كـ « آلم ، وآلر » ونحو ذلك فهي مكية سوى الزهراوين ـ هما سورة البقرة وآل عِمران ـ ، وفي سورة الرعد خلاف .

٩ ـ كل سورة فيها قَسَم يترجح مكيتها .

خصائص الآيات المدنية:

١ ـ بيان العبادات ، والمعاملات ، والحدود ، والمواريث ، وفضيلة الجهاد ، ونظام الأسرة ، وصلات المجتمع والدولة ، وقواعد الحكم ، ومسائل التشريع .

٢ ـ مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ودعوتهم الى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العِلم بَغْياً بينهم .

٣ ـ الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسيتهم ، وازاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين .

٤ ـ طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ، ويوضح أهدافها ومراميها .

الفصل الثاني

أسباب النزول

إن الدارس المتمعّن للأدب لا يستطيع أن يحكم على ظاهرة من الظواهر الا اذا عرف الأسباب والمقدمات التي أدت الى نشوء تلك الظاهرة . وإن الدارس لقصيدة من القصائد لا يستطيع أن يدرسها دراسة حقة إلا إذا وقف على الأسباب التي دعت الشاعر الى نظم تلك القصيدة ، وكذلك الأمر في كل بحث من البحوث ، فإنه لا يستقيم ، ولا يتضح الاّ اذا فصّل فيه القول من مبتدئه الى منتهاه .

ودراسة القرآن تشبه دراسة كل الموضوعات الأخرى ، إذ لا تستقيم حتى تعرف المبادىء الأولى للنص ، ويوقف على الأسباب التي دعت الى نزول هذه الآيات ، أو السورة .

لهذا عكف العلماء على معرفة أسباب نزول كل آية معرفة دقيقة موثوقة ، ليتمكنوا من تفسيرها التفسير الصحيح ، ولينطلقوا إلى استخلاص الأحكام الشرعية على أساس ثابت مكين .

ولقد ألّفوا في هذا الموضوع كتباً عدة ، كان منها كتاب أستاذ الإمام البخاري المسمّى « علي بن المديني » وكتاب الواحدي الذي دعاه « أسباب المنزول »وكتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني المسمى كذلك « أسباب النزول » وكتاب السيوطي المعروف باسم « لُبَاب النقول في أسباب النزول » .

ولو ضربنا بعض الأمثلة على ضرورة معرفة أسباب نزول كل آية لأدركنا قيمة هذا العلم ، ووقفنا على وجوب معرفته .

قال تعالى : « ولله المشرِقُ والمغرِب ، فأينما تُوَلّوا فَثَمَّ وجه الله »[١] . لقد فهم

(١) البقرة ، ١١٥

بعض الناس من ظاهر الآية جواز التوجه الى الشرق أو الغرب حين الصلاة ، فالله في كل الجهات ، والصلاة الى كل جهة جائزة . إن فهم أولئك الناس من ظاهر الآية صحيح ، ولكن الصلاة الى غير القبلة غير جائزة . والسبب في ذلك أن الآية المذكورة نزلت في سبب خاص ، ووضع معين ، ذلك أن جماعة كانوا في سفر ، وأقبل عليهم الليل ، واشتدَّ الظلام ، وأراد كلٌّ منهم الصلاة ، فاجتهد ، وعيّن جهة ، وصلىَّ نحوها . والطريف أن كلاً منهم توجه الى غير الجهة التي توجّه اليها صاحبه ، وأصبح الصباح ، فأدرك بعضهم أن اجتهاده قاده إلى الخطأ في تعيين القبلة ، وجاءوا الى الرسول العظيم ، فقصوا عليه خبرهم ، فنزلت الآية « ولله المَشْرِق والمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » .

إن معرفة سبب نزول هذه الآية يقرر حكماً يختلف عن الحكم الذي يكون عند الجهل بسبب النزول . إن العالم بالسبب يقرر أن المجتهد في تحري القبلة تصِحُّ صلاته ، ولايجب عليه إعادتها اذا تبين له فيما بعد خطأ اجتهاده . أما غير المتحرّي والمجتهد فعليه إعادة الصلاة . الفرق ـ اذاً ـ في الاجتهاد وعدمه ، ولم يكن يُعْرف هذا إلا بمعرفة سبب نزول الآية .

ومثال آخر على أهمية معرفة سبب النزول في فهم الآية قوله تعالى : « ليس على الذين آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصالحات جُناحٌ فيما طَعِمُوا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتَّقَوْا وأحسنوا ، واللهُ يحبُ المحسِنِين[1] » . قد يتوارد الى الذهن أن الآية أباحت شرب الخمر ـ كما ظن بعض الجهلة ، واحتجوا بهذه الآية ، فحللوا الخمرة ـ ولو علموا سبب نزولها لم يَفْتَروا ذلك . فقد رُويَ أنه لما نزل تحريم الخمر في قوله تعالى : « إنما الخمرُ والميسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رجْسٌ من عَمَلِ الشيطان فاجتنبوهُ لعلكم تُفلِحون[2] » قال ناس من أصحاب رسول الله ـ ص ـ : فكيف بمن قتِلوا في سبيل الله وماتوا ، وكانوا يشربون الخمر ، وهي رجس ؟ فنزلت الآية الكريمة تُبَيِّنُ أنَّ مَنْ شربها قبل التحريم ، فإن الله قد عفا عنه ، وليس عليه ذنب أو اثم ، لأن الله لا يؤاخذ على ما سبق من العبد قبل الإسلام أو قبل التحريم ، وبذلك تُفْهَمُ الآية ، ويبقى النص القطعي في تحريم شرب الخمر .

---

(١) المائدة ، ٩٣ (٢) المائدة ، ٩٠

ومثال ثالث : أشكل على عروة بن الزبير ـ رض ـ معنى قوله تعالى : « إِنَّ الصَّفا والمَرْوَةَ مِنْ شعائرِ اللهِ ، فَمَن حَجَّ البيتَ أو اعتَمَرَ ، فلا جُناحَ عليه أن يَطَّوَّفَ بهما[1] .. » الآية . فإن الظاهر يشير إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة ، حتى قال عروة بن الزبير لخالته عائشة أم المؤمنين : يا خالة ! إن الله تعالى يقول : « فلا جُناح عليه أن يَطَّوَّفَ بهما » فأرى أنه لا بأس على الإنسان أن يترك السعي بينهما ؟ فقالت له عائشة : بئس ما قلتَ يا ابن أختي ، لو كان الأمر كما ذكرتَ لقال الله تعالى : فلا جُناحَ عليه ألاَّ يطَّوَّفَ بهما ... ثم أخبرته بأن الناس في الجاهلية كان يَسْعون بين الصفا والمروة ، وكانوا يحجون في سعيهم لصنمين أحدهما على الصفا يسمى « إسافا » والثاني على المروة ويسمى « نائلة » فلما دخل الناس في الإسلام تحرَّجَ بعض الصحابة من السعي بينهما خشية أن يَلْتَبِسَ الأمر بعبادة الجاهلية . فنزلت الآية الكريمة تدفع عنهم الاثم والحرج ، وتوجب عليهم السعي لله تعالى لا للأصنام . فقد ردت عائشة على عروة فهمه وكان ذلك بسبب معرفة النزول .

ولقد أشكل على بعض الأئمة فهم معنى الشرط في قوله تعالى : « واللاَّئي يَئِسنَ من المَحيضِ من نسائِكمْ ان ارتبتم فعِدَّتُهُنَّ ثلاثةُ أشهرٍ[2] ... » الآية ، حتى قال أهل الظاهر : إنَّ الآيِسَةَ لا عِدّةَ عليها إذا لم تَرْتَبْ ، وقد تبين خطأ فهمهم بسبب النزول ، فان الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن في العدَّة ؟ وارتاب هل عليهن عِدة أم لا ؟ فيكون معنى « إن ارتبتم » أي إنْ أشكلَ عليكم حكمُهُنَّ ، وجهلتم كيف يَعْتدُّون فهذا هو حكمهن ؛ وقد نزلت هذه الآية بعد أن قال بعض الصحابة إن عِدة بعض النساء لم تُذكر في القرآن وهن « الصغيرات والآيسات » فنزلت الآية الكريمة تبين حكم عدة كلٍّ منهن .

كيف يعرف سبب النزول ؟

يظهر من الأمثلة السابقة أن أسباب النزول لا يمكن أن تدرك بالرأي ، ولا بد فيها من الرواية الصحيحة والسماع ، ممن شاهدوا التنزيل ، أو وقفوا على الأسباب ، وبحثوا فيها من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن اكتسبوا علومهم على أيدي العلماء الموثوقين .

---

(١) البقرة ، ١٥٨ (٢) الطلاق ، ٤

ويُعتمد في معرفة سبب النزول على « النقل الصحيح » فاذا صرح الراوي بلفظ السبب فهو نص صريح فيه كقول الراوي : سبب نزول الآية كذا وكذا .

وكذلك إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول كقوله : حدث كذا ، أو سئل النبي ـ ص ـ عن كذا فنزلت ... فهذا نص صريح في سبب النزول أيضاً .

وقد لا تكون الصيغة صريحة في ذكر السبب كقولهم « نزلت هذه الآية في كذا ... » فقد يراد منه سبب النزول ، وقد يراد ما تضمنته الآية من أحكام ، فيكون مثل قوله : عنى بهذه الآية كذا ...

قال الزركشي في البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم اذا قال : نزلت هذه الآية في كذا ... فانه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب في نزولها . وقال ابن تيمية : قولهم « نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وان لم يكن السبب فيه » .

هل يتعدد سبب النزول ؟

كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعددة ، والمعتمَد في هذه الحالة أن ننظر الى العبارة التي قالوها ، ونستطيع أن نعتمد على المبادئ التالية :

١ ـ أن يعبِّر كل منهما بقوله : ونزلت هذه الآية في كذا « ويذكر أمراً آخر غير الذي ذكره الأول ، فيحمل على أنه استنباط للحكم ، وتفسير لمعنى الآية ، فلا منافاة بينهما كما مر لأنه ليس بسبب للنزول .

٢ ـ أن يعبر أحدهما بقوله : « نزلت الآية بكذا » ويصرح الآخر بذكر سبب النزول . فالمعتمد هنا « التصريح » ويقدَّم على التعبير .

٣ ـ أن يذكر كل واحد سبباً صريحاً للنزول غير الآخر ، فيعتمد هنا الصحيح دون الضعيف ، كما ورد في سبب نزول سورة الضحى ، فقد روى الشيخان في صحيحهما سبباً ، وروى الطبراني سبباً آخر فتقدم رواية الشيخين على رواية الطبراني .

٤ ـ أن يستوى الإسنادان في الصحة ، فنرجح أحدهما على الآخر لوجه من

وجوه الترجيحات كذكر الراوي أنه حضر القصة أو نحو ذلك .

٥ ـ أن تكون كلٌّ من الروايتين صحيحة الاسناد ، وأن يكون بينهما تقارب في المدة ، فتنزل الآية أو الآيات بسبب الحادثتين معاً ، وننتهي الى الجمع بين الروايتين .

٦ ـ ألاّ يمكن الجمع بين الروايات الصحيحة ، فيحمل على تعدد النزول وتكرره ، لأن المدة بينهما بعيدة .

ويبقى سؤال أساسي في هذا البحث خلاصته : هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ؟

وبمعنى آخر : اذا وقعت حادثة فنزلت في شأنها آية قرآنية ، فهل يقتصر حكم هذه الآية على تلك الحادثة أو الواقعة أو الشخص الذي نزلت فيه ، أم يتعدى الحكم على الجميع ؟ .

لقد اختلف علماء الأصول في هذا اختلافاً كبيراً ، فمنهم من قال : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومنهم من رجح خصوص السبب على عموم اللفظ . ولكن جمهور العلماء المحققين تبنّوا ترجيح عموم اللفظ على خصوص السبب .

قال السيوطي في كتابه « الإتقان في علوم القرآن » :

ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة ، كنزول آية الظِّهار في « سَلَمَةَ بنِ صَخْر » وآيةِ اللِعَان في شأن « هلال بن أمية » وحد القذف في رماة عائشة ، ثم تعدّى الحكم الى غيرهم لعموم اللفظ . وقد ورد عن ابن عباس ما يدل على اعتبار العموم ، فانه قال به في آية السرقة مع أنها نزلت في امرأة خاصة سرقت ، ثم روي عن نجدة الحنفي[1] قال : سألت ابن عباس عن قوله تعالى : « والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما » أخاص أم عام ؟؟ قال : بل عام[2] .

---

(١) ويعرف بنجدة الحروري : رأس فرقة خارجية . من كبار أصحاب الثورات في صدر الاسلام ، وكان عدد من الصحابة يُصَلُّون خلفه . وله أخبار كثيرة (الأعلام ٨/٣٢٥) .

(٢) محمد علي الصابوني ، التبيان في علوم القرآن ص ٢٣ ؛ والسيوطي ، الاتقان في علوم القرآن .

وأخيراً ، فان آيات كثيرة تتعلق بأمم غابرة وما حل بها ، أو بوصف الجنَّة والنار والقيامة قد نزلت ابتداء بدون سبب أو واقعة معينة وأكثرها من نوع الوصف والإخبار .

الفصل الثالث

الناسخ والمنسوخ

تتنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله لاصلاح الناس في العقيدة والعبادة والمعاملة . وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية ، فقد اتفقت دعوة الرسل جميعاً إليها « وما أرْسَلْنا من قَبْلِكَ من رسولٍ إلا نُوحِي اليه أنهُ لا إلَه إلا أنا فاعبُدُون[1] » .

أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق في الأسس العامة التي تهدف إلى تهذيب النفس ، والمحافظة على سلامة المجتمع ، وربطه برباط التعاون والاخاء ، إلاَّ أنَّ مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها ، وما يلائم قوماً في عصر قد لا يلائمهم في آخر ، ومسلك الدعوة في طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء . فحكمة التشريع في هذه غيرها في تلك ؛ ولا شك أن المشرع سبحانه وتعالى يسع كل شيء رحمة وعلماً ، ولله الأمر والنهي « لا يُسْأَلُ عَما يَفْعَلُ وهُمْ يُسأَلُون[2] » . فلا غرابة في أن يُرفَع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول وبالآخر [3] .

والباحث في تفسير القرآن من جهة ، وتقعيد الأحكام الشرعية من جهة ثانية ، والقضاء والفتوى من جهة ثالثة يحتاج إلى معرفة الناسخ والمنسوخ معرفة تامة ليكون على هدى من أمره ، وبينة في سلوكه . ولقد رُوي عن علي بن أبي طالب ــ رض ــ أنه مرّ على قاض فقال له : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكتَ وأهلكتَ . وعن ابن عباس ــ رض ــ أنه قال في قوله تعالى : « وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أوتِيَ خَيْراً كثيراً » قال : ناسخَه ومنسوخَه ، ومُحْكَمَه ومتشابِهَه ، ومقدَّمَه ومؤخَّرَهُ ، وحرامَهُ وحلاَلَهُ[4] .

---

(١) الأنبياء ، ٢٥ (٢) الأنبياء ، ٢٣

(٣) مباحث في علوم القرآن ص ١٠١

(٤) مناهل العرفان ٢/٧٠

وللنسخ معان عدة في اللغة ، وفي الاصطلاح . فمن معانيه في اللغة : « الإزالة » فيقال : نَسَخَت الشمسُ الظلَّ : أي أزالته . ومنه قوله تعالى : « فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشيطانُ ثم يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ[1] » ويأتي بمعنى « نَقْل الشيء من موضع الى موضع » فيقال : نسختُ الكتابَ ، اذا نقلتُ ما فيه حاكياً للفظه وخطه ، ويقال : تناسختِ المواريثُ اذا انتقلت من قوم الى قوم ، وتناسخت الأرواح : اذا انتقلت من بَدَن الى بَدَن ـ عند القائلين بذلك ـ .

أما النسخ في الاصطلاح فهو : « رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي قطعي الدلالة ومتأخر عنه. والمقصود بـ « الحكم الشرعي » : خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، كما أن المقصود بـ « الخطاب الشرعي » هو وحي الله مطلقاً ، مَتلواً أو غير متلوّ ، ويشمل الكتاب والسنة .

ويطلق الناسخ على الله جل وعلا بدليل قوله تعالى : « ما نَنْسَخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ منها أو مِثلِهَا[2] » ، **كما يطلق لفظ الناسخ على الآية** ، فيقال : هذه الآية ناسخة لآية كذا ، **ويطلق كذلك على الحكم** فيقال : هذا الحكم ناسخ للحكم كذا .

والمنسوخ : هو الحكم المرتفع . فالآية القرآنية مثلاً « كُتِبَ عَلَيْكُمْ اذا حَضَرَ أحدَكُمُ الموتُ إنْ تَرَكَ خيراً الوصيةُ للوالدَيْنِ والأقربينَ بالمعروفِ حقا على المتقين[3] » منسوخة بآية المواريث[4] .

ويشترط في النسخ :

١ ـ أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً

٢ ـ أن يكون الناسخ دليلاً شرعياً متراخياً عن المنسوخ ، غير متصل به .

٣ ـ ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين ، والا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته . ولا يُعَدُّ هذا نسخاً .

إن النسخ لا يكون إلا في الأحكام الفرعية العملية من أوامر أو نواه . ولا يكون في أصول العقائد ، وأمهات الفضائل ، والأخبار .

---

(١) سورة الحج ، ٥٢ (٢) البقرة ، ١٠٦ (٣) البقرة ، ١٨٠

(٤) وقيل : إن الناسخ حديث « ألَا لاوصيةَ لِوارث » وقيل إنَّ الناسخَ هو الإجماع ـ حكاه ابن العربي ـ انظر الاتقان ٢/٦٥ .

أما أصول العقائد فلأنها حقائق ثابتة كوحدانية الله تعالى ، والإيمان باليوم الآخر ، ونحو ذلك .

وأما أمهات الفضائل والأخلاق فلظهور مصلحتها كَبِرِّ الوالديْن ، والأمانة والحفاظ على العهد ، والصدق في القول ، وما إلى ذلك .

وأما الأخبار فلاستحالة كذب الله تعالى في إخباره[1] .

وشرائع السماء جميعاً متفقة في هذه الأصول ، واحدة في هذه المعاني ، لاتختلف شريعة عن أخرى ، بدليل قوله تعالى :

« شَرَعَ لكُمْ مِنَ الدِين ما وصّى بِه نُوحاً والذي أوحَيْنا إليكَ ، وما وصّينا بِهِ إبراهيمَ ومُوسَى وعيسى أنْ أقيمُوا الدِينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه[2] » .

وللعلماء طرق يعرفون بها الناسخ والمنسوخ . منها

١ ـ النقل الصريح عن النبي ـ ص ـ أو عن صحابي ، كحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها » .

٢ ـ إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ .

٣ ـ معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ ، مع وجود التعارض بين النصّين تعارضاً لا يمكن معه التوفيق بينهما .

ولا يعتمد في النسخ على الاجتهاد ، أو قول المفسرين ، أو التعارض الظاهر بين الأدلة ، أو تأخر إسلام أحد الراوييْنِ وما أشبه ذلك .

واتفق العلماء على أن **النسخ أربعة أقسام**

القسم الأول : **نسخ القرآن بالقرآن** .

وهذا القسم متفق على جوازه ، ووقوعه من القائلين به بالنسخ ، فآية الاعتداد بالحَوْل نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرة أيام . والآية الأولى المنسوخة هي : « والذين يتوفونَ منكم وَيَذَرُونَ أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً الى الحَوْلِ غيرَ إخْراجٍ[3] » والآية الناسخة هي : « والذين يتوفونَ منكم ويَذَرُونَ أزواجاً يَتَرَبَّصْنَ بأنْفسهِنَّ أربعةَ أشهرٍ وعشراً[4] » .

---

(١) انظر تعليق محمد رواس قلعه جي على كتاب « العالم والمتعلم » لأبي حنيفة ص ٤٣

(٢) الشورى ، ١٣ (٣) البقرة ، ٢٤٠ (٤) البقرة ، ٢٣٤

والقسم الثاني : **نسخ السنة بالقرآن**

وأجازه جمهور العلماء ، فتوجه المصلين الى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة ، وليس في القرآن ما يدل عليه ، وقد نسخ بالقرآن في قوله تعالى : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ[1] » ، ووجوب صوم يوم عاشوراء كان ثابتاً بالسنة ، ونُسِخَ بقوله تعالى « فَمَنْ شَهِدَ منكُم الشَهْرَ فَلْيَصُمْهُ[2] » . وللشافعي في هذا النسخ تفصيل أكثر .

القسم الثالث : **نسخ القرآن بالسنة** .

واختلف العلماء بين السنة الأحادية والسنة المتواترة ، وانتهى جمهورهم على عدم جواز نسخ القرآن بالسنة الأحادية ، لأن القرآن متواتر ويفيد اليقين،والسنة الأحادية تفيد الظن ، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون[3] .

أما نسخ القرآن بالسنة المتواترة فأجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية، محتجين بأن الكل وحي ، ورسول الله لا ينطق عن الهوى ومنعه الشافعي ، وأهل الظاهر وأحمد في الرواية الثانية،محتجين بقوله تعالى : « ما نَنْسَخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نَأْتِ بخيرٍ منها أو مثلها » وأن السنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله .

القسم الرابع : **نسخ السنة بالسنة** .

وينضوي تحت هذا القسم أربعة أنواع :

١ ــ نسخ متواترة بمتواترة .
٢ ــ نسخ آحاد بآحاد .
٣ ــ نسخ آحاد بمتواترة .
٤ ــ نسخ متواترة بآحاد .

والثلاثة الأولى جائزة ، أما النوع الرابع ففيه خلاف ، والأصح عدم جوازه .

ويفصل العلماء في الناسخ والمنسوخ من حيث وجود بدل أو غير بدل فيقولون :

---

(١) البقرة ، ٤٤   (٢) البقرة ، ١٨٥

(٣) المراد بـ « المعلوم » قطعيّ الثبوت ، والمراد بـ « المظنون » : ظنيّ الثبوت .

١ ـ قد يكون النسخ الى غير بدل .

كنسخ الصدقة بين يدَيْ نجوى رسول الله ـ ص ـ في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا ناجَيْتُمُ الرسولَ فقدِّمُوا بينَ يَدَيْ نجواكُم صَدَقَةً[1] » نُسخت بقوله : أأشفقتُم أنْ تُقدِموا بينَ يدَيْ نجواكم صَدَقاتٍ ، فإنْ لم تَفعَلوا وتابَ اللهُ عليكم فأقيموا الصلاةَ ، وآتوا الزكاة[2] » .

٢ ـ وقد يكون النسخ الى بدل أخف

ويمثلون له بقوله تعالى : « أُحِلّ لكُمْ ليلَةَ الصيامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُم[3] . » فهي ناسخة لقوله تعالى : « كمَا كُتِبَ على الذِينَ مِنْ قَبْلِكُم[4] » لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلوا العَتَمة أو ناموا إلى الليلة التالية ، كما ذكروا ذلك ، فقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : أنزلت « كُتِبَ عليكُم الصيامُ كما كُتِبَ على الذينَ مِن قبلِكم » كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة أو نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ، فأنزل الله عز وجل « أُحِلَّ لَكُمْ ليلَة الصِيامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكم » .

٣ ـ وقد يكون النسخ الى بدل مماثل

كنسخ التوجه الى بيت المقدس بالتوجه الى الكعبة ، في قوله : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجِدِ الحَرامِ[5] » .

٤ ـ وقد يكون النسخ إلى بدل أثقل .

كنسخ الحبسِ في البيوت في قوله : « واللاتي يأتِينَ الفاحِشَةَ من نسائِكُمْ فاستشهِدوا عليهِنَّ أربعةً منكم ، فإنْ شهِدوا فأمْسِكوهُنَّ في البيوتِ[6] » بالجَلْد في قوله « الزانيةُ والزاني فاجلِدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جلدة[7] » .

* * *

بقي أخيراً حديث العلماء عن أنواع النسخ في القرآن من حيث نسخ التلاوة والحكم معاً ، ونسخ الحكم وبقاء التلاوة ، ونسخ التلاوة وبقاء الحكم .

---

(١) المجادلة ، ١٢ (٢) المجادلة ، ١٣ (٣) البقرة ، ١٨٧
(٤) البقرة ، ١٨٣ (٥) البقرة ، ٤٤
(٦) النساء ، ١٥ (٧) النور ، ٢

ولما كان الاختلاف في هذه الأمور بين العلماء كبيراً ، والحديث فيها لا يتصل بالنطاق الأدبي ، فلقد آثرنا تجاوز الحديث عنها ، وتجاوز تلك الخلافات ، ولعلها إلى الأصول والفقه أقرب منها إلى الأدب .

الفصل الرابع

المحكم والمتشابه

لهذين اللفظين إطلاقات في اللغة ، وإطلاقات في الاصطلاح . فاللغويون يستعملون مادة الإحكام (بكسر الهمز) في معان متعددة ، لكنها مع تعددها ترجع إلى شيء واحد ، هو المنع . فيقولون : أحكم الأمر أي أتقنه ومنعه عن الفساد . ويقولون : أحكمه عن الأمر أرجعه عنه ومنعه منه . ويقولون : حكم نفسه وحكم الناس أي منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغي . ويقولون : أحْكَمَ الفرسَ أي جعل له حَكَمَة (بفتحات ثلاث) . والحَكَمَة : ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه تمنعه من الاضطراب . وآتاه الله الحِكمه : أي العدل أو العلم ، أو الحلم ، أو النبوة ، أو القرآن ، لما في هذه المذكورات من الحوافظ الأدبية الرادعة عما لا يليق .

وكذلك يستعمل اللغويون مادة التشابه فيما يدل على المشاركة في المماثلة والمشاكلة ، المؤدية الى الالتباس غالباً . تقول : تشابها واشتبها أي أشبه كلٌّ منهما الآخر حتى التبسا . ويقال : أمور مشتبهة ومشبهة . والشُّبْهَة (بالضم) الالتباس . ومنه قول الله تعالى وصفا لرزق الجنة « وأُتوا بِهِ مُتَشَابِهاً[1] » . ومنه قوله حكاية عن بني إسرائيل : « إنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا[2] » .

وبناء على هذا التفسير اللغوي لكل من اللفظين نستطيع أن نقول : إن القرآن كله مُحْكَم ، إنْ أردنا بإحكامه إتقانَه ، وجمالَ نظمه ، بحيث لا يتطرق اليه الضعف في ألفاظه ومعانيه ؛ وبهذا المعنى أنزل الله قوله الكريم « كِتَابٌ أحْكِمَتْ آياتُهُ[3] » ، كما نستطيع أن نقول : إن القرآن كلَّه متشابِه ، إنْ أردنا بتشابهه تماثلَ آياته في البلاغة والإعجاز ، وصعوبةَ المفاضلة بين أجزائه . وبهذا المعنى نزل

---

(١) البقرة ، ٢٥ (٢) البقرة ، ٧٠ (٣) هود ، ١

قوله تعالى : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كتاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ[1] » . فالإحكام والتشابه في كل من الآيتين السابقتين ليسا مثار بحثنا عن محكم القرآن ومتشابهه[2] . انما يثير بحثنا المعنى الاصطلاحي في الآية السابعة من سورة آل عمران : « هُوَ الذي أَنْزَلَ عليكَ الكِتَابَ منه آياتٌ مُحكَمَاتٌ هنَّ أُمُّ الكتاب ، وأُخَرُ مُتَشَابِهَات ، فَأَمَّا الذِينَ في قلوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابتغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا الله ، والراسِخونَ في العِلْمِ يقُولونَ : آمنَّا بِهِ ، كلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ، وما يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الألبابِ[3] » .

في هذه الآية يقف المحكَم تُجاه المتشابه ، ويقف الراسخون في العلم تُجاه الذين في قلوبهم زيغ . وهذا التقابل حمل العلماء على تعريف كلٍ من المُحْكَم والمتشابه الواردين في الآية الكريمة . وتعددت وجهات نظرهم[4] . ومما ورد في هذا الصدد من تعريفات اصطلاحية قولهم :

المُحْكَمُ ما عُرِف المراد منه ، إما بالظهور ، وإما بالتأويل .

والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ، وخروج الدجّال ، والحروف المقَطَّعَةِ في أوائل السُّوَر .

وقيل : المحكم ما وضح معناه ، والمتشابه نقيضه .

وقيل : المحكم ما لا يحتمل من التأويل الا وجهاً واحداً . والمتشابه ما احتمل أوجهاً .

وقيل : المحكم ما استقل بنفسه ، والمتشابه ما لا يستقل الا بِردِّه الى غيره[5] .

والملاحظ في الأقوال الواردة أنها تؤول في النهاية الى أن المحكم هو الذي يدل على معناه بوضوح لاخفاء فيه ، والمتشابه هو الذي يخلو من الدلالة الواضحة على

---

(١) الزمر ، ٢٣ (٢) مناهل العرفان ٢/١٦٦

(٣) آل عمران ، ٧ (٤) علوم القرآن ص ٣٢٢

(٥) الاتقان ٣/٤ (طبعة مكتبة الحسيني ، وتحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم)

معناه[1] .

ووضوح الدلالة في المحكم يغنينا عن البحث عنه ، لأن قراءتنا له كافية لإفهامنا المراد منه ، ولكن خفاء المتشابه جدير أن يشغلنا بعض الشيء ، لكي نعرفه ، ثم نتجنبه ، فلا نتبعه كالذين في قلوبهم زيغ[2] .

ان أكثر العلماء يذهبون الى أن المتشابه لا يعلم تأويله الا الله وقد قرأوا الآية السابقة على النحو التالي : وَمَا يَعْلَمُ تأويلَهَ الا اللهُ . (وهنا يقفون ويعتبرون الكلام التالي مستأنفاً) والراسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقولونَ : آمنا . (ويعتبرون : « الراسخون » مبتدأ ، خبره : جملة« يقولون ») .وعلى هذا المذهب ذهب الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم خصوصاً أهل السنة .

ومما يؤيد هذا المذهب قراءة ابن عباس للآية على الوجه التالي : « وَمَا يَعْلَمُ تأويلَهُ الا اللهُ ويقولُ الراسخُونَ في العِلمِ آمنَّا به » وقراءة شاذة أخرى رويت على لسان ابن مسعود « وَإنْ تأويلُهُ إلا عندَ اللهِ والراسخونَ في العلم يقولونَ آمنا به » ، وحديث رواه الشيخان عن طريق عائشة قالت : تلا رسول الله ـ ص ـ هذه الآية : هُوَ الذِي أنزلَ عليكَ الكتابَ ... الى قوله : أُولُو الألبابِ . قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فاذا رأيتَ الذينَ يَتَّبِعُونَ ما تشابَهَ مِنْهُ فأولئك الذين سَمَّى اللهُ فاحذَرْهم[3] » . كذلك وردت أحاديث عدة تشير هذه الإشارة منها « أن القرآن لم ينزل لِيكَذِّبَ بعضُه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به » .

وذهب فريق آخر من العلماء الى أن الراسخين من العلماء يعرفون تأويل المتشابه . وقرأوا الآية على الوجه التالي : « وَمَا يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ والراسِخُون في العلم يقولونَ

---

(١) يقول علماء الأصول في هذا الصدد مفصلين : يدخل في المحكم : النص (وهو ما دل على معناه من غير احتمال ارادة معنى آخر). والظاهر (وهو ما دل على المعنى مع احتمال ارادة معنى آخر احتمالاً مرجوحاً) . ويدخل في المتشابه : المجمل (وهو لفظ لم تتضح دلالته على معناه ، وعدم وضوح دلالته عائدة الى أسباب منها : أ ـ وضع اللفظ لمعان متعددة ـ وهو ما يسمّى بالاشتراك اللفظي . ب ـ كون اللفظ له حقيقة ، ولكن قام الدليل على عدم ارادتها ، وله مجازات متعددة متساوية بالنسبة للمعنى الحقيقي . جـ ـ كون اللفظ مشتركاً معنوياً ، له أفراد متعددة ، ولكن المراد منها فرد معين ، ولم يقم الدليل على تعينه .) كما يدخل في المجمل : المشكل (وهو ما لا يفهم معناه حتى يدل عليه دليل من غيره) .

(٢) علوم القرآن ص ٣٢٢

(٣) الاتقان ٦/٣ (المطبعة المذكورة آنفاً) .

آمنا به » فتكون الواو في « والراسخون » عاطفة « والراسخون » معطوف على لفظ الجلالة وجملة « يقولون » حالية . من هذا الفريق مجاهد بن جبر ، وابن عباس ، وقد رُوي عن الأخير قوله : أنا ممن يعلم تأويله ، كما رُوي عن مجاهد قوله : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ، ويقولون آمنا به[1] . وروي عن الضحاك قوله : الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ، ولا محكمه من متشابهه . واختار النووى هذا القول فقال في شرح مسلم : إنه الأصح ، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق الى معرفته . ومن هذا الفريق أبو الحسن الأشعري الذي كان يرى أن الوقوف في الآية على قوله تعالى : « والراسخون في العلم » ، فهم على ذلك يعلمون تأويل المتشابه . وقد أوضح هذا الرأي أبو إسحاق الشيرازي وانتصر له فقال : ليس شيء استأثر الله تعالى بعلمه ، بل وقف العلماء عليه ، لأنه تعالى أورد هذا مدحاً للعلماء ، فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامة[2] .

وتوسط الراغب الأصبهاني فقسم المتشابه من حيث إمكان الوقوف على معناه إلى ثلاثة أضرب :

١ ـ ضرب لا سبيل الى الوقوف عليه . كوقت الساعة ، وخروج الدابة ونحو ذلك .

٢ ـ وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة ، والأحكام المغلقة .

٣ ـ وضرب متردد بين الأمرين يختص به الراسخون في العلم ، ويخفى على من دونهم . وهو المشار إليه بقوله ـ ص ـ لابن عباس : « اللهم فقهه في الدين ، وَعَلِّمْهُ التأويل[3] » .

ولا ريب أن في رأي الراغب قصداً واعتدالاً . فذات الله ، وحقائق صفاته لا يعلمها إلا الله ، وفي هذا المعنى يقول ـ ص ـ في دعائه : « أنت كما أثنيت على نفسك ، لا أحصي ثناء عليك » . والعلم بالغيب مما استأثر الله به ، مصداقاً للآية الكريمة « إنَّ اللهَ عندَهُ عِلْمُ الساعَةِ ، ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ، ويعلَمُ ما في الأرحام ، وما تَدْرِي

---

(١) الاتقان ٣/٥ (٢) علوم القرآن ص ٣٢٣

(٣) علوم القرآن ص ٣٢٣ نقلاً عن الاتقان ٣/١١

نفسٌ ماذا تكسبُ غَداً ، وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموتُ ، إن اللهَ عليمٌ خبيرٌ[1] » .
إن في خفاء هذه الأمور وأمثالها ، وعجز الانسان عن الوصول إليها ما يقلل غروره ، ويخفض من كبريائه ، ويحمله على أن يقول : « سبحانَكَ لاعِلمَ لنا الا بما عَلَّمْتَنا ، إنكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ[2] » .

ومن المتشابه في القرآن آيات الصفات التي يوهم ظاهرها التجسيم ومشابهة المخلوقات كقوله تعالى : « الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوَى[3] » و« كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إلا وجْهُهُ[4] » و« يَبْقَى وَجْهُ ربِّكَ[5] » و« لِتُصْنَعَ على عَيْنِي[6] » و« يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم[7] » و« والسماوات مطْوِيَّاتٌ بيمينه[8] » و« جاءَ ربكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّاً[9] » و« وَهُوَ القاهِرُ فوقَ عِبادِهِ[10] » و« يا حَسْرَتَا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ[11] » و« يُحَذِرُكُمُ الله نَفْسَه[12] » الخ . مع أن الله تعالى تنزه عن مشابهة المخلوقات لقوله جل شأنه « ليس كمثله شيء[13] » .

وللعلماء في متشابه الصفات مذهبان :

الأول : مذهب السلف ، وهو الايمان بهذه المتشابهات ، وتفويض معرفتها إلى الله تعالى . فقد سئل الإمام مالك عن الاستواء فقال : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، وأظنك رجل سوء ، أخرجوه عني » .

الثاني : مذهب الخلف ، وهو حمل اللفظ الذي يستحيل ظاهره على معنى يليق بذات الله ولا تأباه اللغة العربية ، فيحملون الاستواء على العلو المعنوي بالتدبير من غير معاناة ، ويفسرون الوجه بالذات ، والعين بالرعاية ، واليد بالقدرة ، واليمين بالقدرة والفضل ، وجاء ربك بمعنى أمره ، وفوق عباده بالعلو من غير جهة ، وجنب الله بطاعته وحقه ، والنفس بالعقوبة وهكذا .

وقد فهم ابن اللبان الحكمة من ورود هذه الآيات فقال : من المعلوم أن أفعال

---

(١) لقمان ، ٣٤
(٢) المصدر السابق ص ٣٢٤ والآية من سورة البقرة ، ٣٢
(٣) طه ، ٥
(٤) القصص ، ٨٨
(٥) الرحمن ، ٢٧
(٦) طه ، ٣٩
(٧) الفتح ، ١٠
(٨) الزُمَر ، ٦٧
(٩) الفجر ، ٢٢
(١٠) الأنعام ، ٦١
(١١) الزمر ، ٥٦
(١٢) آل عمران ، ٢٨
(١٣) الشورى ، ١١

العباد لا بد فيها من توسط الجوارح مع أنها منسوبة اليه تعالى ، وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين : مظهراً عبادياً منسوباً لعباده وهو الصور والجوارح الجسمانية . ومظهراً حقيقياً منسوباً إليه ، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية للتقريب الى الأفهام ، والتأنيس للقلوب ، ولقد نبه في كتابه على القسمين ، وأنه منزه عن الجوارح في الحالين ، فنبه على الأول (التقريب الى الافهام) بقوله : « قاتِلوهُمْ يعذِبْهُم اللهُ بأيديكم[1] » فهذا يفهم أن كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب اليه تعالى . ونبَّه على الثاني (التأنيس للقلوب) بقوله فيما أخبر عنه نبيه ـ ص ـ في صحيح مسلم « ولا يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به .. » الخ ... الحديث ، وقد حقق الله ذلك لنبيه بقوله : « إنَّ الذينَ يُبَايعُونكَ انما يبايِعونَ اللهَ[2] » وبقوله « وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلَكن اللهَ رَمَى[3] » .

وكأني بابن اللبان هنا يستشعر ـ بذوقه الأدبي الرفيع ـ ما في الكناية عن الحقائق الدينية الكبرى من الحسن والجمال : فبهذا الأسلوب الرمزي ترتسم في الخيال الإنساني صورة حية عن الفكرة المجردة ، وتقرب إلى الناس في جميع الأجيال أسمى الحقائق بواسطة الخيال .

ولعل اشتمال القرآن على المتشابه ، وعدم اقتصاره على المحكم وحده ، أن يكون حافزاً للمؤمنين على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تعينهم على فهم الآيات المتشابهات ، فيتخلصون من ظلمة التقليد ، ويقرؤون القرآن متدبرين خاشعين[4] .

---

(١) التوبة ، ١٤ (٢) الفتح ، ١٠ (٣) الانفال ، ١٧

(٤) علوم القرآن ٣٢٨ نقلاً عن البرهان ٢/ ٧٥

الفصل الخامس

فواتح السور

« من خصائص السور المكية حروف التهجي ، يفتتح الله بها مواضع من كتابه الكريم . وأهمية هذه الفواتح تحملنا على دراستها في بحث خاص نحاول أن نصل فيه إلى الحكمة من وجودها .

إن في القرآن صيغاً مختلفة من هذه الفواتح . فمنها البسيط المؤلف من حرف واحد ، وذلك في سور ثلاث : صاد ، وقاف ، والقلم . إذ تفتتح الأولى بحرف « ص » ، والثانية بحرف « ق » والثالثة بحرف « ن » .

ومن هذه الفواتح عشر مؤلفة من حرفين :

سبع منها متماثلة تسمى « الحواميم » لأن أوائلها تبتدئ بـ « حٰمٓ » وهي : سورة غافر ، والمؤمن ، وفُصِّلَتْ ، والشورى ، والزُّخْرُف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف . وثلاث تبتدئ بحرفين مختلفين ، واحدة بـ « طه » وثانية بـ « طٰس » وثالثة بـ « يس » . ويلاحظ أن الشورى زيدت فيها الى « حم » : « عسٓق » .

أما الفواتح المؤلفة من ثلاثة أحرف فيجدها القارىء في ثلاث عشرة سورة :

ست منها تبتدىء بـ « الٓم » وهي البقرة ، وآل عمران ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة .

وخمس منها تبتدىء بـ « الٓر » وهي يونُس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحِجْر .

واثنتان منها تبتدئان بـ « طٰسٓم » في الشعراء ، والقَصَص .

أما المفتتحة بأربعة أحرف فسورتان : الأعراف وأولها « آلمص » والرعد وأولها « آلمر » .

وسورة مريم مفتتحة بخمسة أحرف مقطعة هي «كهيعص» .

يتضح من هذا العرض المفصل أن مجموعة الفواتح القرآنية تسع وعشرون[1] وأنها على ثلاثة عشر شكلاً[2] . وأن أكثر الحروف وروداً فيها الألف واللام ، ثم الميم ، ثم الحاء ، ثم الراء ، ثم السين ، ثم الطاء ، ثم الصاد ، ثم الهاء ، والياء ، والعين ، والقاف ، وأخيراً الكاف ، والنون . وجميع هذه الحروف من غير تكرار يساوى أربعة عشر حرفاً ، وهي نصف الحروف الهجائية .

ووقف المفسرون مواقف مختلفة من تفسير هذه الحروف في هذه الفواتح ، وذهب كثيرون منهم الى أن هذا الكتاب الكريم مؤلف من حروف التهجي المعروفة جاء بعضها مقطَّعاً منفرداً . وجاء تمامها مؤلفاً مجتمعاً ، ليتبين للعرب أن القرآن نزل بالحروف التي يعرفونها ، فيكون ذلك تقريعاً لهم ، ودَلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله ، ومن أصحاب هذا الرأي البيضاويّ ، والزَّمخشري ، وابنُ تَيْمِيَّة ، وتلميذه الحافظ المِزّي[3] ، وسيد قطب ، وآخرون .

قال سيد قطب ــ رحمه الله ــ في مطلع تفسيره لسورة البقرة المفتتحة بـ « آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه » :

« تبدأ السورة بهذه الأحرف الثلاثة : « ألف ، لام ، ميم » بوصفها : مبتدأ ، خبره : « ذَلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه » .. هذه الأحرف هي الكتاب ، فمن نوع هذه الأحرف ، ومن جنسها ، يتألف هذا الكتاب ، ومن هذه الأصوات المألوفة يتكوَّن . ولكنه مع هذا هو ذلك الكتاب المعجز الذي يتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فلا يستطيعون .. ذلك هو الإعجاز ، وذلك مثل صُنْع الله في كل شيء وصُنْع الناس .. إن هذه التربة الأرضيةَ مؤلفة من ذرات معلومة الصفات . فاذا أخذ الانسان هذه الذرات فقُصارى ما يصوغه منها لَبِنَة أو آجرة ، أو آنية ، أو أسطوانة ، أو هيكل ، أو جهاز كائناً في دقته ما يكون .. ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة . حياة نابضة خافقة ، تنطوي على ذلك السر الآلهي المعجز ، الذي لا يستطيعه بشر ، ولم يعرف سرَّه أحَدٌ .. وهكذا القرآن .. حروف وكلمات ..

---

(١) ٣ تبتدىء بحرف و ١٠ بحرفين و١٣ بثلاثة أحرف و ٢ بأربعة و١ بخمسة .

(٢) وهي (ص ، ق ، ن) و (حم ، طه ، طس ، يس) و (آلم وطسم وآلر) و (آلمص آلر) و (كهيعص). = ١٣

(٣) علوم القرآن ص ٢٣٥

وصُنْع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسم الخامد ، والروح النابض . هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة[1] » .

ولاحَظَ أصحاب هذا الرأي ـ وهم في أوج حماستهم لفكرتهم هذه ـ أن تحدِّي القرآن للعرب أن يأتوا بمثله يزداد وضوحاً ، ويكتسب قوة ، وأنها لَظَاهِرةٌ غريبة حقاً ، إذ أنه لم يكتف القرآن باشتماله على فواتح مختلفة يبلغ تعدادهاتمام حروف الهجاء ، ولا بتأليفه تلكَ الفواتحَ من نصف الحروف الهجائية ، بل حوى فوق ذلك من كل جنس من الحروف . فمن حروف الحلق[2] : الحاء والعين والهاء . ومن الحروف المهموسة[3] : السين والحاء والكاف والصاد والهاء . ومن الحروف المجهورة : الهمزة والميم واللام والعين والراء والطاء والقاف والياء والنون . ومن الحروف الشفهية [4] الميم . ومن حروف القلقلة[5] : القاف والطاء . ثم إن هذه الحروف ذكرت تارة مفردة ، وتارة حرفين حرفين ، وطوراً ثلاثة ثلاثة ، وأحياناً أربعة وخمسة ، لأن تراكيب الكلام على هذا النمط ، ولا زيادة على الخمسة [6] .

لا نستطيع أن نقطع برأي حازم جازم في صحة ما ذهب إليه أولئك المفسرون ، وإنْ كنا مع الذين يميلون إلى القول بأن القرآن معجز ، وهو مؤلف من الأحرف الهجائية العربية التي نستعملها . لأن هذه الفواتح من الأمور المتشابهة التي تحتمل أكثر من تأويل وتفسير .

وإن الاعتقاد بغموض دلالة هذه الأحرف قد أحاطها بجو من التورع عن تفسيرها ، والتخوف من إبداء رأي صريح فيها . فهي ـ كما قال الشعبي : « سر هذا القرآن »

---

(١) في ظلال القرآن ـ أول تفسير سورة البقرة .

(٢) أحرف الحلق ستة : الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء .

(٣) الأحرف المهموسة عشرة يجمعها قولك « فحثه شخص سكت » وما عداها مجهورة ، ويجمعها قولك : « عظُمَ وزنُ قارىء ذي غضٍ جدّ طلب »

(٤) الحروف الشفهية : الميم والواو والباء والفاء .

(٥) حروف القلقلة يجمعها قولك : « قطب جد » .

(٦) علوم القرآن ٢٣٦

ولا يعلم تأويله إلا الله ، وكما قال علي بن أبي طالب : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي » . وقال أبو بكر الصديق : « في كل كتاب سرّ ، وسِرّه في القرآن أوائل السوّر » ، وروي عن ابن مسعود والخلفاء الراشدين : « أن هذه الحروف علم مستور وسر محجوب استأثر الله به[1] » .

وكثيرون من العلماء الذين خاضوا في معنى هذه الفواتح لم يُدْلوا فيها برأي قاطع ، بل شرحوا وجهة نظرهم فيها مفوضين تأويلها الحقيقي الى الله . وأزلية هذه الأحرف ما انفكت ـ على سائر الأقوال ـ تحيطها بالسرّية ، وسريتها تحيطها بالتفسيرات الباطنية ، وتفسيراتها الباطنية تخلع عليها ثوباً من الغموض لا داعيَ إليه ، ولا مُعَوَّلَ عليه .

وأدخَلُ تلك الآراء في معنى الغموض قولُ من عدّ هذه الحروف على « حساب الجُمَّل[2] » ليستنبط منها مدة بقاء الأمة الاسلامية ، أو التنبيه على كرامة شخص ، أو شيعة معينة .

فها هو ذا السُّهَيْلي يقول : لعل عدد الحروف التي في أوائل السور ـ مع حذف المكرر ـ إشارة إلى بقاء هذه الأمة .

والخويبي يروى أن بعض الأئمة استخرج من قوله تعالى : « آلم . غُلِبَتِ الروم » أن بيت المقدس يفتحه المسلمون في سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة . وصدف أن وقع كما قال .

والعز بن عبد السلام رَوَى أن علياً ـ رض ـ استخرج واقعة معاوية من « حـم عسق » .

وبعض الشيعة رأى أن مجموعة هذه الفواتح ـ إذا حذف المكرر منها ـ يفيد أن « صراط عليّ حق نمسكه » .

وبعض أهل السنة رأى أن مجموعة الفواتح ـ اذا حذف المكرر منها ـ يفيد « صَحَّ طريقك مع السنة » .

---

(١) تفسير المنار ٣٠٢/٨ نقلاً عن علوم القرآن ص ٢٣٧

(٢) لفهم طريقة حساب الجمّل ، وقيمة الأحرف العددية انظر كتابنا « مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني » ـ فصل : التاريخ الشعري ـ . طبع دار الشروق ببيروت .

وابن عربي في الفتوحات المكية رأى في الفواتح رأياً غريباً حيث قال : « اعلمْ أن مبادىء السور المجهولة لا يعلم حقيقتها إلا أهل الصور المعقولة ، فجعلها ـ تبارك وتعالى ـ تسعاً وعشرين سورة ، وهو كمال الصورة ، (والقمرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) ، والتاسع والعشرون القطب الذي به قَوام الفلك ، وهو علة وجوده ، وهو سورة آل عمران (آلم الله) ولولا ذلك لما ثبتت الثمانية والعشرون ، وجملتها ـ على تكرار الحروف ـ ثمانية وسبعون ، فلا يكمل عبد أسرار الايمان حتى يعلم حقائق هذه الحروف في سورها » ... ويقول ابن عربي في موطن آخر : « ثم جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الحروف على مراتب ، منها موصول ، ومنها مقطوع ، ومنها مفرد ومثنى ومجموع ، ثم نبّه أن في كل وصل قطعاً ، وليس في كل قطع وصل ، فكل وصل يدل على فصل ، وليس كل فصل يدل على وصل ، والوصل والفصل في الجمع وغير الجمع ، والفصل وحدة في عين الفرق ، فما أفرده من هذا فإشارة إلى فناء رسم العبد أزلاً ، وما أثبته فإشارة إلى وجود رسم العبودية حالاً ، وما جمعه فإشارة إلى الأبد بالموارد التي لا تتناهى ، والإفراد للبحر الأزلي ، والجمع للبحر الأبدي ، والمثنى للبرزخ المحمدي الإنساني ، والألف فيما نحن فيه إشارة التوحيد ، والميم إشارة إلى المُلْك الذي لا يبيد ، واللام بينهما واسطة ليكون بينهما رابطة » . ونحن بدورنا نرفض هذا اللون من التفسير الذي هو قريب من الطلاسم ، لأن القرآن نزل بلسان مبين ، يفهمه الأعرابي في الصحراء والعامل في المعمل ، والتاجر في زحمة الأسواق ، والطالب في المدرسة ، ولم يكن ـ كما زعم ابن عربي ـ طلاسم وألغازاً وأسراراً ، كما توهم .

وقال قوم : إن هذه الفواتح حروف مقطعة ، كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى ، أو يُكتفَى به عن كلمة تؤلف مع سواها جملاً يتصل معناها بما بعدها ، أو يشير إلى الغرض من السورة المفتتحة بها . من ذلك قول ابن عباس في « كهيعص » : الكاف من كريم ، والهاء من الله ، والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق . وقوله رضي الله عنه في « آلر » : أنا الله أرى ، وفي « آلمص » : أنا الله أفصل .

وقال آخر : إن « طسم » تعني طور سيناء موسى ، لأن السورتين اللتين تفتتحان بهذه الحروف تقصان خبر صاحب التوراة عليه السلام في طور سيناء .

وروي عن ابن عباس في « كهيعص » كذلك : أن الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصوّر[1] .

وَرَوَى السيوطي عن محمد بن كعب القَرَظيّ أن « آلر » من الرحمن ، وأن « آلمص » : الألف من الله ، والميم من الرحمن ، والصاد من الصمد[2] .

وعن سعيد بن جبير أن « حم » الحاء اشتقت من الرحمن ، والميم اشتقت من الرحيم .

وعن سالم بن عبدالله قال « الٓم » و« حٓم » و« ن » ونحوها اسم الله مقطعة .

وعن ابن عباس قال « الٓم » اسم من أسماء الله تعالى الأعظم . وفي رواية ثانية عنه أنه قال : « الٓم » و« طسٓم » و« ص » وأشباهها قَسَم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وفي رواية عن فاطمة بنت الرسول ـ ص ـ أنها سمعت أباها يقول : يا «كهيعص» اغفر لي .

وفي رواية عن مالك بن أنس أنه سئل : أينبغي لأحد أن يتسمى بـ « يسٓ » قال : ما أراه ينبغي ، لقول الله : « يسٓ والقرآنِ الحَكيمِ » . يقول هذا اسم تَسَمَّيت به .

وقال جماعة : إن لفظ كل هجاء في القرآن هو اسم من أسماء القرآن . أو اسم من أسماء السور .

وقال عدد من العلماء : إن هذه الفواتح شبيهة بفواتح الشعر نحو « بل » و« لا » و« ألا » وعلل الخويبي ذلك بأنه من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبي ـ ص ـ في عالم البشر مشغولاً ، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله « آلم » « آلر » « حٓم » ليسمع النبي صوت جبريل . فيقبل عليه ، ويصغي اليه[3] . قال : وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة نحو « ألا » و« أما » لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم ، والقرآن لا يشبه الكلام ، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ في قرع سمعه[4] . ونرفض نحن هذا القول لتفاهة مدلوله ، ولكون القرآن من كلام العرب ومثيله ، وما تفوق

---

(١) انظر علوم القرآن ص ٢٤٠ (٢) الاتقان ٢/٩

(٣) شبيه ذلك قول المتحدث في الهاتف « آلو » التي أصلها « هالو الانكليزية »

(٤) الاتقان ٢/١١

عليه إلا بحسن نظمه .

وللعلماء أقوال أخرى شتى في هذا الموضوع أوردها السيوطي ، ومعظمها لا يختلف عما أوردناه بشكل عام .

والطريف في الأمر أن المستشرقين خاضوا في هذا الموضوع ، وراح بعضهم يخبط في ذلك خبط عشواء . قال شبرنجر : إن « طسم » لو قُلِبَتْ لكان معناها « لا يمسّه الا المطهرون » فالميم والسين تفيدان المسّ والطاء أبرز حرف في « المطهرون ».

أما نولدكه فقد وجد أنها دخيلة على القرآن ، أو هي أحرف تشير إلى أسماء بعض الصحابة الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة ، فالسين في رأيه تدل على سعد بن أبي وقاص ، والميم على المغيرة ، والنون على عثمان ، والهاء على أبي هريرة وهكذا . وصَدَّق هذا جماعة من المستشرقين مثل شفالي ، وبهل ، وهرشفيلد ، وظنوا أن نولدكه قد وقع على القول الحق ، وأتى بالعجب العجاب ؛ ولم يدروا أنه كان يهرف بما لا يعرف .

ووقف بلاشير من هذه الفئة موقف الساخر ، وتهكم عليها أشد تهكم ، ودافع عن القرآن بقوله : « ليس من المعقول بحال من الأحوال أن يحتفظ أصحاب المصاحف المختلفة في نسخهم ذاتها بالحروف الأولى من أسماء معاصريهم ، إنْ علموا أنه لا يقصد بها إلا ذلك . ويضاف إلى هذه الملاحظة القيّمة أننا لا نكاد نجد مسوّغاً لحرص أبيّ بن كعب أو عليّ ، أو ابن مسعود على أن يحتفظوا في مصاحفهم بالحروف الأولى من أسماء أشخاص كانوا ينافسونهم في استنساخ القرآن وجمعه[1] » .

وينتهي بلاشير إلى ضرورة الرجوع الى النظرية الاسلامية نفسها باستخراج مختلف الآراء وتمحيصها ومقابلتها بعضها ببعض ، وأعلن بوضوح أن المسلمين الأتقياء الذين كانوا يرون من العبث كل محاولة لاختراق أسرار الفواتح القرآنية ، أثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك أنهم وحدهم العقلاء الحكماء .

ونعود أخيراً إلى الرأي الأول الذي أوردناه وتبنّيْناه ، وهو أن هذا القرآن مكوّن من الحروف العربية ، وأنه من مثل كلام العرب ، ومع ذلك فهو المعجز ، المتحدّي .

---

(١) نقلاً عن علوم القرآن ص ٢٤٢ .

الفصل السادس

الأحرف السبعة

لم تثر مشكلة من مشكلات البحث في تاريخ القرآن ما أثارته الأحرف السبعة ، ولم يختلف العلماء في موضوع مثلما اختلفوا في تفسير هذه الأحرف السبعة . وليت الأمر كان مقصوراً على تباين وجهات الفهم والنظر ، كما هي الحال في تفسير كثير من القضايا التاريخية ، والظواهر الاجتماعية ، والاقتصادية ، اذن لهان الأمر ، وقُبل من الآراء ما يتفق والوقائع المختلفة ، والظروف الملائمة ، لكن الأمر جرّ الى اختلاف في تفسير العقيدة ، والتاريخ ، واللغة . وأدّى ببعض الباحثين الى جنوح في الرأي بعيد عن الحق والصواب ، وحقيقة القرآن العظيم .

ويخيل إلينا أن كل ما أثير من زوابع وعواصف في هذا البحث ، قد طواه الزمن ، ولفّته الأيام ، ولم يعد سوى مجرد ذكرى . فالمشكلة زالت من أساسها . وقصة الأحرف السبعة عاشت حقبة من الزمن ، ثم انطوت ، أو خمدت جذوتها ؛ وعلى هذا فإن الأمر هيّن ، والمشكلة غدت محلولة بفعل الزمن ؛ واذا بقي شيء منها فهو الذكرى ليس إلا ، والرغبة في فهم هذا الموضوع التاريخيّ ، والخلاف العتيق ، ووجهات النظر السالفة .

ونعتقد أن كل رأي يطرأ اليوم ، إنما هو صدى لما قيل في الماضي ، وترديد لما تضمّنته كتب تواريخ القرآن . وأن كل باحث اليوم يختار من الآراء ما يتفق وعقيدته ، ومنهجه ، وإيمانه ، أو كفره .

* * *

ولْنبدأْ بالقصة من أولها :

روى البخاري في صحيحه ، عن عمر بن الخطاب ـ رض ـ أنه قال : سمعت

هشام بن حكيم يقرأ في صلاته سورة الفرقان ، فاستمعت لقراءته ، فاذا هو يقرأ قراءة لم يُقرئنيها رسول الله ـ ص ـ ، فكدت أساوره[1] في الصلاة . فصبرت حتى سلّم ، فلبّبْتُه[2] بردائه ، وقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ـ ص ـ . فقلت : كذبتَ ، فإن رسول الله ـ ص ـ قد أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ـ ص ـ فقلت : يا رسول الله ! إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقرِئنيها . فقال رسول الله ـ ص ـ : أرْسِلْه[3] وقال له : اقرأ يا هشام . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ . فقال رسول الله ـ ص ـ : كذلك أُنزِلت . ثم قال لي : اقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي أقرأني . فقال رسول الله ـ ص ـ : كذلك أُنزِلَتْ . « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسَّر منه » .

ولقد رُوي مثلُ هذا الحديث في معظم كتب السنة ، وأغلب ما روي يدور حول فكرة واحدة هي : أن القرآن نزل على سبعة أحرف .

* * *

المشكلة في هذه الأحاديث أن رسول الله ـ ص ـ لم يفسِّر لنا المقصود من الأحرف السبعة ، وكذلك لم يفعل أحد من الصحابة . كأنَّ الأمر كان من الوضوح إلى حد لا يحتاج الى تفسير .

وجاء التابعون ، ومَنْ بعدهم ، ونظروا في هذه الأحاديث ، وأرادوا تفسيرها ، فذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، وكانت تفسيراتهم سبباً لنشوب المشكلة ، وثورة الخلاف .

* * *

ونريد الآن أن نسأل عدة أسئلة :

ما المراد بالأحرف ؟

وما المراد بكلمة سبعة ؟

هل المراد بالأحرف لغات غير العربية ؟ أو هي لهجات عربية ؟

---

(١) أساوره : آخذ برأسه

(٢) لببته بردائه : جمعت ثوبه عند نحره ـ كما يفعل الناس بأعدائهم عند الخصومة ـ .

(٣) أرسله : اتركه .

أو ألوان من التشريع ؟ أو أنواع من العلوم ؟ أو ألفاظ مترادفة ؟ أو قراءات متعددة ؟ أو معان متباينة ؟ أو اختلافات جزئية ؟ أو أمور غامضة لا يعلم حقيقتها وتفسيرها الا الله وحده ؟؟؟

وهل المراد من العدد « سبعة » الرقم الواقع بين العددين : ستة ، وثمانية ؟ أو هو مجرد رمز لعدد ؟ أيجوز أن يكون أقل من سبعة أو أكثر منها ؟ ثم ما معنى اختيار العدد « سبعة » دون غيره ؟

* * *

ونقلب صفحات كتب التراث ، فتطالعنا أجوبة لا حصر لها . منها الأجوبة غير المحكمة كقول بعضهم : إن المراد بها : وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج . وقول آخرين : إن المراد بها : حلال ، وحرام ، وأمر ، ونهي ، وخبر ما كان ، وخبر ما هو كائن بعد ، وأمثال ....

ونرد هذه الأجوبة لأنها تتعارض في مدلولها مع سياق الحديث الذي قصّ علينا ثورة عمر على هشام بن حكيم حين سمعه يقرأ آيات من سورة الفرقان ، وكل الذي أثار عمرَ سماعه شيئاً من الاختلاف في القراءة عما كان يحفظ ؛ إذن فما معنى تفسير أولئك الناس : إنها تعني حلالاً وحراماً ، ووعداً ووعيداً ، وما الى ذلك ؟ . وهل ينسجم هذا التفسير وسياق الحديث ؟ .

وقال جماعة آخرون : انها لغات سبع غير عربية جاءت في القرآن ، لكنها اتفقت في لفظها ومعناها في العربية وفي اللغة الأعجمية ، وراحوا يستشهدون بما ورد في القرآن من ألفاظ حبشية ، وفارسية ، ورومية ، وهندية ، وسريانية ، وعبرانية ، ونبطية وهكذا .

ونرد هذا التفسير كذلك للسبب الذي رددنا به الأجوبة السابقة ، مشيرين الى أن في القرآن ألفاظاً أعجمية ، لم تجيء من لغات سبع فقط ، وانما في القرآن ـ عدا ما ذكرنا من لغات ـ ألفاظ قبطية ، وتركية ، وزنجية ، وبربرية وغيرها . وان ورود هذه الألفاظ لا ينافي قوله تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً[1] » وقوله تعالى : « بلسان عربي مبين »[2] لأن وصف القرآن بالعربية ، هو بمعنى أنه نزل بما تنطق به العرب بألسنتها ، وتفهمه بعقولها ، ولم ينزل بما هو شاق عليهم ،

---

(١) الزخرف ، ٣ (٢) الشعراء ، ١٩٥

غريب عن أذهانهم . وما تلك الألفاظ الأعجمية الا مفردات انحدرت الى العرب بسبب اختلاطهم بالأعاجم ، فعرّبوها بألسنتهم ، واستعملوها في مخاطباتهم ، وصارت من مفردات اللغة العربية[1] .

وقال آخرون : إن الحرف في اللغة يعني « اللهجة » والحروف السبعة تعني لهجات سبعاً لقبائل كانت فصيحة كل الفصاحة ، ولغاتها سليمة كل السلامة من الدَّخَل والشوائب وهي : قريش ، وكنانة ، وأسَد ، وهُذَيْل ، وتميم ، وضَبَّة ، وقَيْس . وسمى علماء آخرون قبائل أخرى . وسواء علينا أكانت هذه الأحرف لغة لهذه القبيلة أو لتلك فإنا نرى في هذا التفسير قرباً من الحق ، وجانباً من المنطق ، وأن وراء من قال به عقلاً راجحاً ، وفكراً مُتَّزناً .

نرجح هذا لسبب بسيط ، هو اختلاف نطق بعض الحروف عند القبائل فالهذليّ يقرأ « عتّى حين » وهويريد : « حتّى حين » . والأسدي يقول : « تِعْلَمون » ـ بكسر التاء ، والتميميّ يهْمز ، والقرشيّ لا يهمز ... وهكذا . وكل قبيلة لا تستطيع أن تنطق على الصورة التي تنطق بها القبيلة الثانية ، ولو كانت صورة قراءة الكلمة القرآنية على شكل واحد ، لدى جميع القبائل ، لوقع الناس في الحَرَج ، واضطروا إلى ركوب ما لم يتعودوه صغاراً ، ويدرجوا عليه شباناً وكهولاً ، وحينئذ فهم أمام أمرين : إما الوقوع في خطأ اللسان ، وركوب الصعب ، وإما أن يتركوا القراءة نهائياً لأنهم لا يستطيعونها . وفي كلا الأمرين حرج .

أو لم يقل الحديث الشريف : فاقرؤوا ما تيسر منه . أو لم يَرِدْ في القرآن قوله تعالى : « ولقد يَسَّرْنَا القرآنَ لِلذِّكْر فهَلْ مِنْ مُدَّكرٍ[2] » وتكررت هذه الآية عدة مرات ؟ .

وهناك أربعون قولاً آخر في تفسير هذه الأحرف ، أوردها السيوطي في كتابه « الإتقان في علوم القرآن » وفيها من التناقض العجب العجاب .

* * *

أما موضوع « العدد سبعة » فالأحاديث لم تفسره ، ولسنا نستطيع الجزم بمدلوله ، وكل ما يمكننا قوله في هذا الصدد : إن المقصود به التوسعة والتيسير .

---

(١) انظر الخصائص لابن جني ١/٣٦٠ ؛ وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٧ ؛ وتفسير الطبرى ١/١٣ و١/٥٢

(٢) القمر ، ١٧ ، و٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠

ونريد أن ننتهي الى نتيجة هي : أن هذه الإباحة كانت في حدود القراءة ، لا التسجيل . وأن عملية كتابة الوحي كانت هي الفيصل الذي يحفظ على القرآن وحدة الصورة ، وينفي عنه تعدُّد الوجوه المفسِدَةِ أحياناً للنص ، وأن مراجعة النبي ـ ص ـ كلَّ عام لِما نَزَل من القرآن مع جبريل ـ عليه السلام ـ كانت ضماناً آخر لهذه الوحدة ، وعاصماً من الزيادة ، أو النقص ، أو التحريف .

الفصل السابع

رسم القرآن

كانت الصحف التي كتبت على عهد النبيّ ـ ص ـ والمصاحف العثمانية التي وُزّعت على الأمصار خاليةً عن الشّكل والنقط . وكان العرب إذ ذاك يهتدون إلى النطق السليم بوسيلتين :

الأولى : أن السليقة العربية الأصيلة التي كانوا يتمتعون بها ، والأصالة اللغوية التي فطروا عليها تمنعان تسرب اللحن إلى ألسنتهم .

الثانية : أن أسلوب التلقي والمشافهة الذي كان الناس يعتمدون عليه في ضبط القرآن وحفظه ساعدهم على قراءة القرآن من المصاحف بكل سهولة ويسر .

هذا التلقي كان يزيد من وضوح الكتابة ، ويُزيل ما قد يتصور من لبْس في نطق بعض الكلمات ، ولا سيما التي تحتمل عدداً من وجوه الأداء والقراءة بسبب عدم توافر النقط فيها .

على أن رخصة النطق بالأحرف السبعة في أول عهد العرب بالقرآن ساهمت باعتبارها وسيلة ثالثة ، في تسهيل ضبط القرآن دراسة وحفظاً ، وأورثت طمأنينة بعدم الوقوع في أيّ لَبْس أو وَهْم ، عند النطق بهذه الكلمات المحتملة .

ومما لا ريب فيه ، أن رسم المصاحف العثمانية التي نسخت على هدي المصحف الأول كان يقوم على إملاء خاص به في ذلك العصر ، بل فيما بعده أيضاً . ذلك الرسم كان في إملائه يوافق اللغة القرشية . وهذا ما يفسر لنا قولة عثمان لِلَجْنة النَّسْخ : « اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كلمة من القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فإنَّ القرآن أنزل بلسانهم » .

ولقد ظهر تطبيق هذه الوصية ، عندما اختلف الكتاب الأربعة في كيفية رسم « التابوت » في قوله تعالى : « وقالَ لهمْ نبيهُم إنَّ آيةَ مُلكِهِ أنْ يأتيَكمُ التابوتُ فيه سَكِينةٌ من ربكم[1] » . فقد قال زيد : التابوه . وقال القرشيون : « التابوت » وترافعوا الى عثمان فقال : اكتبوا « التابوت » فإنما أنزل القرآن على لسان قريش .

من هذه المقدمة يتضح لنا أن في الرسم القرآني في عهده الأول ظاهرتين :

الظاهرة الأولى : أن له إملاء خاصاً به من حيث كيفية كتابة الهمزة مثلاً ، أو الأحرف اليائية والواوية ، ومن حيث الزيادة والنقص ، وما شابه ذلك .

الظاهرة الثانية : أنه كان مجرداً عن الشكل الذي يوضح إعرابه ، وعن النَّقْط الذي يميز الحروفَ المعجمة من المهملة .

أما الظاهرة الأولى ، فقد استمرت فيما بعد ، ولم يطرأ عليها تغيير أو تحوير يُذْكر . فقد أخذ الناس يعتبرون الرسم القرآني رسماً معيناً خاصاً به ، ولم يجدوا ما يدعو الى مدِّ يد التغيير إليه ، بعد أن وصل إليهم بهذا الشكل صورة مطابقة للكتابة المعتمدة الأولى .

وتشدد بعض العلماء تشدداً كبيراً في وجوب المحافظة على رسمه ، فأفتوا بتحريم الخروج عنه ، أو تطويره تطبيقاً للقاعدة الشرعية الكبرى : سد الذرائع .

فلقد سئل الامام مالك : هل يُكْتَبُ المصحف على ما أخذته الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلاّ على الكَتْبَةِ الأولى . وسئل في مرة أخرى عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف : أترى أن تغير من المصحف إذا وجدوا فيه ذلك ؟ فقال : لا .

فسأله السائل عن نَقْط القرآن . فقال : أما الإمام[2] من المصاحف فلا أرى أن ينقط ، ولا يزاد في المصاحف ما لم يكن فيها ، وأمّا المصاحف التي يتعلم فيها الصبيان ؛ فلا أرى في ذلك بأساً .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل مذهباً مشابهاً لمذهب الإمام مالك فأفتى بتحريم تغيير خط مصحف عثمان في ياء وواو وألف أو غير ذلك .

أما الظاهرة الثانية ، فقد دخلها التطوير والتحسين ، وبرهان ذلك ما نلمسه في رسم المصاحف بين أيدينا .

---

(١) البقرة ، ٢٤٨ (٢) يقصد به : مصحف عثمان

ويذهب المؤرخون في البحث عن الرجل الأول الذي أدخل تطويراً وتحسيناً في نقط حروف القرآن وشكلها مذاهب شتى . ويبدو أن أصح الروايات هي التي تحدد بدء ظهور التطوير في عهد التابعين ، في منتصف القرن الأول للهجرة ، كما يبدو أن أول من باشر تلك العملية أبو الأسود الدُّؤلي الذي توفي عام تسع وستين للهجرة .

لقد أجمعت رواية الثقات على أن أبا الأسود أول من وضع النحو بإشارة من عليّ بن أبي طالب ـ رض ـ . وأن سبب وضعه النحو هو ما رآه ، أو قيل له من شيوع اللحن في قراءة القرآن . وتضيف الروايات قولها : إن وضعه للنحو كان مصحوباً بتنقيط المصحف[1] .

كان أبو الأسود الدؤلي لا يخرج شيئاً أخذه من علي بن أبي طالب ـ رض ـ الى أحد ، حتى بعث اليه زياد بن أبيه ـ والي العراق ـ أنِ اعملْ شيئاً يكون للناس إماماً ، ويُعرَف به كتاب الله عز وجل ، فاستعفاه من ذلك ، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ : « ان اللهَ بريءٌ من المشركينَ ورسولِهِ[2] » بالكسر ، فقال أبو الأسود : ما ظننت أن أمر الناس آل الى هذا . ورجع إلى زياد فقال : أفعَلُ ما أمر به الأمير ، فَلْيَبْغِنِي كاتباً لَقِناً يفعل ما أقول له ، فأُتِيَ بكاتب من عبد القيس ، فلم يرضه ، فأُتِيَ بآخر ، فقال له أبو الأسود : إذا رأيتَني قد فتحتُ فيَّ بالحرف ، فانقط نقطة فوقه ، وانْ ضممتُ فمي فانقط بين يدي الحرف ، وإنْ كَسَرْتُ فاجعل النقطة من تحت . ففعل ذلك[3] .

إن التحسين الذي أدخله أبو الأسود على القرآن هو وضع النقط على الحروف . وإنه لم يقصد بالتنقيط تمييزَ الحروف المهملة من المعجمة كما هي وظيفة النقط فيما نعلم ، وإنما كان يراد به الشكل الذي يقوم مقام الفتح والكسر والضم . كذلك يبدو أن أبا الأسود إنما وضع النحو من حيث نَقْطُ القرآن ، وكانت الغاية الأولى

---

(١) البوطي : من روائع القرآن ص ٥٢ ؛ وفيات الأعيان ١/٢٤٠ ؛ مازن المبارك ، النحو العربي ص (١٠ ـ ٢٩) .
(٢) التوبة ، ٣ (بفتح لام « ورسوله »)
(٣) وفيات الأعيان ١/٢٤٠

حفظَ القرآن من اللحن لا تقعيد القواعد النحوية المجردة .

هناك روايات أخرى تنسب إلى يحيى بن يَعْمُر[1] المتوفىّ سنة مائة وتسع وعشرين أول عملية في تنقيط القرآن ، وروايات أخرى تدَّعي أن لِنَصْر بن عاصم اللَّيْثي[2] المتوفَّى سنة تسع وثمانين أول عملية في تنقيط القرآن .

ويبدو لنا أن لا تناقض بين هذه الروايات فقد كان كل من يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم تلميذين لأبي الأسود . وقد كان يحيى قاضياً بِمْرو ، ولعله عمد فنقط المصحف على نحو ما فعل أستاذه قبل أن يفعل ذلك هناك إنسان آخر . أما نصر فيمكن أن يكون قد باشر نوعاً آخر من التحسين بعد عملية أبي الأسود ، وهذا التحسين نجد خبره في وفيات الأعيان إذ يقول : « ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ، ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه ، فسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ، فيقال : إن نصر بن عاصم قام بذلك[3] » .

ويظهر أن الحجاج بن يوسف إنما أمر كُتّابه أن يعملوا شيئاً تتميز به الحروف المشتبهة في القرآن ، وخاصة الحاء والجيم والعين والغين . واذا صح هذا الاجتهاد فيكون عمل نصر بن عاصم تنقيطاً لتمييز المتشابه من الحروف لا لضبط الشكل والإعراب كما فعل أبو الأسود[4] .

وتمر الأيام ، وتزداد العناية بتيسير الرسم القرآني ، حتى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجري بلغ الرسم ذروته من الجودة والحُسْن ، وأصبح الناس يتنافسون في اختيار الخطوط الجميلة ، وابتكار العلامات المميزة ، وكتبت عناوين في رأس كل سورة ، ووضعت رموز فاصلة عند رؤوس الآيات ، وقُسِّم القرآن إلى أجزاء ، والأجزاء إلى أحـزاب ، والأحزاب إلى أعشار ، وأشير إلى ذلك كله برسوم خاصة .

---

(١) يحيى بن يعمر : ولد بالأهواز ، وسكن البصرة ، وكان من التابعين ، تتلمذ لأبي الأسود ، وكان متشيعاً . توفي سنة ١٢٩ هـ/٧٤٦م (الأعلام ٩/٢٢٥).

(٢) نصر بن عاصم : ينسب اليه أول من وضع النحو ، ويقرن بأبي الأسود ، كان من علماء التابعين ، وكان يرى رأي الخوارج تتلمذ عليه أبو عمرو بن العلاء . توفي بالبصرة سنة ٨٩هـ/٧٠٨م (الأعلام ٨/٣٤٣) .

(٣) وفيات الأعيان ١/١٣٥

(٤) البوطي ، من روائع القرآن ص ٥٣

وظل العلماء والفقهاء يختلفون في حلٍّ هذه المستحدثات وحرمانيتها ، فنهم من يدعي أن الرسم العثماني توقيفيّ من الرسول بأمر الله ولا يجوز مخالفته والخروج عليه ، ومنهم من يرى أنه أمر اجتهاديّ . وأن المحافظة على القرآن تقضي إدخال التحسينات عليه لِيُصَان قراءةً ويَسْهُل فهماً .

وأسهم الخطاطون في تجويد المصاحف وتحسين كتابتها ويقال : إن الوليد ابن عبد الملك اختار لكتابة المصاحف خالد بن أبي الهَيَّاج الذي كان مشهوراً بجمال خطه . وقد ظل الخطاطون يكتبون المصاحف بالخط الكوفي حتى أواخر القرن الرابع الهجريّ ، ثم حل محله خطُّ النَّسْخ الجميل في أوائل القرن الخامس وفيه جميع النقط والحركات التي ما نزال نستخدمها في الكتابة الى يومنا هذا[١] .

ويشاء الله أن ينتشر كتابه في الآفاق بواسطة الطباعة ، فيطبع القرآن للمرة الأولى في البندقية في حدود سنة ١٥٣٠ م ولكن السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره ، ثم طبع في هامبورغ ، وفي بادو ، وفي سانت بترسبورغ بروسيا وفي ايران وفي ليبزيغ ، وفي الهند ، وفي الآستانة .

وظهرت طبعة أنيقة جميلة دقيقة لكتاب الله في مصر سنة ١٩٢٣م تحت اشراف مشيخة الأزهر ، وقد كتب المصحف وضبط على ما يوافق رواية حفص[٢] لقراءة عاصم[٣] . وتلقى العالم الاسلامي هذا المصحف بالقبول الحسن ، وأصبحت ملايين النسخ التي تطبع منه سنوياً هي وحدها المتداولة ، أو تكاد تكون وحدها متداولة لإجماع العلماء في مشارق الأرض ومغاربها على الدقة الكاملة في رسمه وكتابته[٤] .

بقي أن نقول : إنه لا بأس اليوم أن نكتب ما نريد من سور وآيات قرآنية على الصورة العادية التينكتب بها كلامنا ، ومحاضراتنا ، متبعين القواعد الاملائية المتعارف عليها ، وذلك بغية تسهيل قراءتها وفهمها ، وعدم الخطأ في تلاوتها ؛ ولا سيما أن بين القارئين لهذه الآيات التي نتمثّل بها ، أو نستشهد أناساً لم يقرؤوا القرآن في أصله ، أو ليسوا من الثقافة على جانب ، أو ليسوا من الإسلام على شيء ،

---

(١) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ص ١٠٢

(٢+٣) سيرد تفصيل ترجمتهما في بحث القراءات والقراء .

(٤) الصالح ، مباحث في علوم القرآن ص ١٠٤

إنْ لم يكونوا ليسوا بمسلمين أصلاً . وهذه الصورة من الرسم تتيح لهم حسن القراءة ، وعدم الوقوع في خطأ في التلاوة ، أو في الفهم .

وهناك اقتراح نحبُّ أن ندلي به في هذا الصدد : يبدو لنا من سياق فتوى الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه لا بأس أن تعدَّل بعض صور كتابة المصحف الإمام للطلاب المتعلمين ولا سيما المبتدئين منهم . ذلك بأن نقسم مرحلة التعليم الابتدائي الى قسمين : أولى ، وهي ثلاث السنوات الأولى ، أو أربع السنوات الأولى . وثانية : وهي السنتان الأخيرتان .

في الأولى يبدأ الطالب بتعلُّم الحروف ، ولفظها ، وكتابتها ، وتركيبها ، ويبدأ في معرفة الحركات ، وقراءة الكلمة موصولة مع الكلمة الثانية . وفي هذه المرحلة نكتب له آية أو سورة صغيرة على الشكل الذي نعلِّمه فيها الكتابة العادية .

أما في المرحلة الثانية من تعليمه الابتدائي ، حيث يكون قد دَرَجَ في القراءة ، وابتدأ في مطالعة كتب التاريخ والجغرافية ، والعلوم وغيرها ، فلا بأس أن تُقَدَّم له آيات ، أو عدة سور على الصورة الأولى التي هي عليها في المصاحف ، على أن نرفق ذلك بإرشاداتنا الشفهية من جهة ، والإشارة في الهامش إلى صورة كتابتها على طريقتنا الحديثة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن نستمر على كتابة الآيات ، أو السُّور التي نستشهد بها في دراساتنا وتعبيرنا على الصورة العادية الطبيعية التي نكتب بها اليوم وفق قواعدنا التي تواضَعنا عليها .

إن هذا الشكل من الرسم لا ينافي فتوى الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل والسلف الصالح .. ـ رحمهم الله ـ وهو من الأمور الأساسية الضرورية التي يجب أن نسير عليها . ولا أدل على لزومها ما نشهده عند كثير من متعلمينا مِنْ أخطاء في التلاوة يَنْدَى لها الجبين .

الفصل الثامن

القراءات والقُرّاء

القراءات : جمع قراءة . وهي في اللغة مصدر سماعي لفعل « قرأ » .

والقراءة : في الاصطلاح العلمي : مذهب من مذاهب النطق في القرآن ، يذهب به إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره .

وقبل الحديث عن القراءات نريد أن ننبه الى أن الشائع بين الناس أن القراءات سبع ، وهذا ما دفع كثيرين إلى الخلط بين الأحرف السبعة والقراءات السبع ، متوهمين أن هذه هي تلك . وهما في الواقع شيئان مختلفان ، وحقيقتان متغايرتان . فالقرآن : هو اللفظ الموحَى به إلى محمد ـ ص ـ للبيان والإعجاز . وأما القراءات فهي ما يَعْتَوِرُ اللفظ المذكور من أوجه النطق والأداء كالمدِّ والقَصْر ، والتخفيف والتثقيل ، والتفخيم والترقيق ، والإدغام والإظهار ، وما إلى ذلك .

إن جميع القراءات محصورة في حرف واحد ، هو حرف قريش ، أما الأحرف السبعة فقد انتهى الأمر بها الى ما كانت العرضَةُ الأخيرة حيث اتسعت الفتوحات ، ولم يَعُدْ للاختلاف في الأحرف وجه ، خشية الفتنة والفساد ، فحمل الصحابة الناس في عهد عثمان بن عفان ـ رض ـ على قراءة زيد بن ثابت ، وكتبوا بها المصاحف .

واذا أردنا تحديد العهد الذي ظهرت فيه هذه القراءات وجدناها ترتد إلى عهد رسول الله ـ ص ـ ، ذلك أن وجوه القراءات التي كان يقرأ بها عليه السلام ، ويتلقاها عنه أصحابه ، لم تكن محصورة في سبع ، أو عشر قراءات ، بل ربما بلغت أوجه القراءات في مجموعها أكثر من ذلك .

ويبدو أنه لم يكن يخطر في بال أحد من الصحابة أن يحصر هذه الوجوه ، ويجمعها ، ليحصيها ، ويقرأ بها كلها ، ولتكون بذلك فناً من فنون القرآن ، وعِلْماً مستقلاً من علومه . ولكن الصحابة ــ وخاصة من اشتهروا بالقراءة والإقراء منهم ــ كانوا يتلقون القرآن من فم النبي ــ ص ــ بالأوجه والطرق التي يؤدَّى بها ، فيأخذون عنه ذلك ، ثم يقرأ كل منهم بما تيسر له ، أو اختاره من هذه الوجوه ، كما دلت على ذلك الأحاديث الثابتة الصحيحة[1] .

هذا التسهيل في قراءة القرآن دفعت اليه حكمة باهرة أطال العلماء البحث في بيانها . واستقروا في ذلك على أمرين اثنين :

الأول ــ : التسهيل على القبائل العربية المختلفة أن تجد الوسيلة الى قراءة القرآن قراءة صحيحة ، كما أنزل ، دون أي تحريف أو تأثم .

الثاني : أن تقف عامة قبائل العرب ، وفئاتهم على المعجزة القرآنية من الوجوه المختلفة التي يعرفونها ، ويمارسون لغتهم بها ، وأن ينتصب معنى التحدي أمامهم من هذه الوجوه كلها ، فعلى أي شكل ، وفي أي وجه من وجوه النطق والأداء أمكنهم أن ينهضوا لمعارضته ، والإتيان بمثله ، فَلْيَنهضوا ولْيَقْدُموا . وبذلك يكون القرآن حجة على أخلاط العرب وفئاتهم كلهم ، ويكون معنى التحدِّي قد لزمهم جميعهم .

* * *

من الصحابة الذين اشتهروا بالقراءة ، والإقراء : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن مسعود ، وأبو الدّرداء ، وأبو موسى الأشعريّ . وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار ، وقد اشتهر كل واحد منهم بوجه من أوجه القراءة اختاره ، ولازمه ، وأقرأه الناس . فكان يقال : هذه قراءة عبدالله ، وهذه قراءة أبيّ ، وهذه قراءة زيد ... وهكذا ، والكل موقن أن جميع الوجوه الأخرى مما لم يأخذ نفسه بها ثابتة ومنقولة عن رسول الله ــ ص ــ .

وقد ظل الأمر هكذا إلى أواسط عهد التابعين : يتلقى الناس القرآن بطريقي الكتابة والمشافهة معاً ، ويتلقون من الصحابة الأوجه المختلفة من القراءات الثابتة

(١) من روائع القرآن ص ١٠٢

عن رسول الله ـ ص ـ فيقرأ كلٌّ بالقراءة التي يريدها مما تلقّاه بالطريق الثابت الصحيح .

وفي أواخر عهد التابعين ، انتبه كثير من علماء القرآن إلى ما أخذ يتسلل إلى الناس من اضطراب السلائق ، ومظاهر العجمة ، وبوادر اللحن ، فتجرد قوم منهم ، ونهضوا بأمر القراءات ، يضبطونها ، ويحصرونها ، ويعنون بأسانيدها ، كما فعلوا مثل ذلك بالحديث وعلم التفسير .

وقد اشتهر ممن نهض بذلك أئمة سبعة ، حازوا ثقة العلماء والقراء في مختلف الأمصار ، وإليهم تنسب القراءات السبع الى اليوم . وهم : أبو عمرو[1] ، وابن كثير[2] ، ونافع[3] ، وابن عامر[4] ، وعاصم[5] ، وحمزة[6] ، والكسائي[7] .

---

(١) أبو عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) وهو : زبّان بن العلاء بن عمار ، المازني البصري ، توفي بالكوفة وهو شيخ الرواية والأمانة والثقة بدينه ؛ روى القرآن عن مجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير ، عن عبد الله بن عباس ، عن أبي كعب عن رسول الله ـ ص ـ وله راويان الدّوري والسُّوسيّ .

(٢) عبد الله بن كثير (١٢٠هـ) : كان تابعياً ، وإماماً للناس في القراءة بمكة ؛ لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير ، وأبا أيوب الأنصاري ، وأنس بن مالك ، روى القرآن عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أبيّ ابن كعب . عن رسول الله ـ ص ـ وله راويان : البزّي وقُنْبُل .

(٣) نافع المدني (١٦٩هـ) : أصله من أصفهان ، وتوفي بالمدينة ، أخذ القراءة عن أبي جعفر القارئ ، وعن سبعين من التابعين ، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس ، وأبي هريرة ، عن أبيّ بن كعب ، عن رسول الله ـ ص ـ ، له راويان : قَالُون ووَرْش .

(٤) ابن عامر الشامي (١١٨هـ) هو : عبد الله اليحْصبي ، من التابعين ، أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي ، عن عثمان بن عفان ، عن رسول الله ـ ص ـ له راويان : هشام وابن ذَكوان .

(٥) عاصم الكوفي (١٢٨هـ) هو : أبو بكر ، عاصم بن أبي النَّجود الأسدي (والنَّجود بفتح النون وضم الجيم) وهو من التابعين ، كان قارئاً متقناً ، آية في التحرير والإتقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن ، أخذ القراءة عن زِرّ بن حُبَيْش ، عن عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله ـ ص ـ ، وأخذ كذلك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن حبيب السّلمي ـ معلم الحسن والحسين ـ عن الإمام علي ـ رض ـ عن رسول الله ـ ص ـ ، له راويان : شُعْبَة وحَفْص .

(٦) حمزة الكوفي (١٥٦هـ) وهو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي ، أخذ القراءة عن أبي محمد سليمان بن مِهْران الأعمش ، عن يحيى بن وثّاب ، عن زِرّ بن حُبَيْش عن عثمان وعلي وابن مسعود عن النبي ـ ص ـ ، كان حمزة ورعاً عالماً بكتاب الله ، مجوّداً له ، عارفاً بالفرائض والعربية ، حافظاً للحديث ، له راويان : خلف وخلاّد .

(٧) الكسائي الكوفي (١٨٩هـ) هو : أبوالحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي ، أخذ القراءة عن حمزة الكوفي عرضاً أربع مرات ، له راويان : أبوالحارث والدّوري (والدّوري هو نفسه رواية أبي عمرو بن العلاء).

إن السبب في حصر القراء بسبعة رجال هو الإمام أبو بكر بن مجاهد أحمد بن موسى بن العباس التميمي الذي قام على رأس الثلاث مائة للهجرة في بغداد بجمع سبع قراءات لسبعة من أئمة الحرمين والعراقَيْن والشام اشتهروا بالثقة والأمانة والضبط وملازمة القراءة ، وجاء جمعه لها محض مصادفة واتفاق ، إذْ كان في أئمة القراء من هم أجلّ منهم قدراً ، وكان عددهم لا يستهان به . ولقد وقف بعض القراء من ابن مجاهد موقفاً قاسياً وحمل عليه حملة شعواء ، ومما قاله فيه أبو العباس بن عمار (ـ ٤٣٠هـ أو ما بعدها) « لقد فعل مُسبِّع هذه السبعة ما لا ينبغي له ، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل مَنْ قَلَّ نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر ـ ويعني الأحرف السبعة ـ وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة » .

لكن مؤلفين آخرين في علوم القراءات عَدّوا القراء عشراً فزادوا الى السبعة الذين سَلَفَ ذِكرهم : أبا جعفر[1] ، ويعقوب[2] ، وخلفاً[3] .

ومؤلفون آخرون أوصلوا العدد إلى أربع عشرة قراءة وأضافوا إلى العشرة السابقين أربعة قراء ، ثبتت قراءاتهم عن طريق الآحاد لا التواتر . وهم :

الحسن البصري (ـ ١١٠ هـ) وهوالحسن بن أبي الحسن يسارالبصري .
وابن مُحَيْصِن (ـ ١٢٣ هـ) وهومحمد بن عبد الرحمن السهمي المكي .
ويحيىٰ اليزيدي (ـ ٢٠٢ هـ) وهو يحيى بن المبارك البصري .
والشَّنَبُوذِي (ـ ٣٨٨ هـ) وهو محمد بن أحمد بن ابراهيم البغدادي .

---

(١) أبو جعفر : وهو يزيد بن القعقاع القاري ـ نسبة الى قارا في المدينة المنورة ـ وقد أخذ أبو جعفر قراءته عن عبدالله بن عباس وأبي هريرة ، عن أبيّ بن كعب ، عن رسول الله ـ ص ـ . وتوفي بالمدينة سنة مائة وثلاثين للهجرة (١٣٠هـ) . وكان له راويان : ابن وَرْدَان وابن جَمّار .

(٢) ويعقوب : وهو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي . قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل عن عاصم وأبي عمرو بن العلاء . (٢٠٥هـ) . وله راويان : رَوْح ورُوَيْس .

(٣) وخَلَف : وهو أبو محمد خَلَف بن هشام . قرأ على سليم عن حمزة الكوفي ، وعلى يعقوب بن خليفه الأعشى ، وعلى سعيد بن أوس الانصارى وعلى أبان العطار وهم على عاصم (٢٢٩هـ) وله راويان : اسحاق ، وإدريس .

وهذا ما يفسر لنا قول العلماء : القراءات السبع ، القراءات العشر ، والقراءات الأربع عشرة .

ويدور في الخاطر سؤال عن الضابط العلمي لاعتماد القراءات . ويبدو أن الأساس في ذلك هو : أن كل قراءة صح سندها الى رسول الله ـ ص ـ ، ووافقت خط المصحف العثماني ـ ولو احتمالاً ـ ، ووافقت العربية بوجه من الوجوه المعتبرة : فتلك هي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها سواء نقلت عن الأئمة السبعة أو غيرهم ، وما لم تجتمع بها هذه الشروط الثلاثة فهي شاذة مردودة لا يقرأ بها ، أيًّا كان الإمام الذي نقلت عنه .

والمقصود بموافقة القراءة لخط المصحف العثماني ـ ولو احتمالاً ـ أن تكون أصول الكتابة أو الرسم التي كتب بها المصحف العثماني بما يحتمل القراءة ، ويقبلها بوجه من الوجوه ، ولو تقديراً . كقوله تعالى : « مَالِكِ يوم الدين » ففي « مالك » قراءتان : القصر « مَلِكِ » والمد « مالك » . ورسم المصحف العثماني «ملك» فهو موافق لقراءة القصر تحقيقاً ، وموافق لقراءة المدّ تقديراً . ومثل ذلك « يُخَادِعُونَ اللهَ وما يَخْدَعُونَ إلا أنفسَهُم وما يَشْعُرُون » فقد قرىء « يخادعون » بالمد والقصر .

ومثل ذلك « الصراط » فقد قرئ بالسين والصاد ، وكتابة المصحف بالصاد ، الا أن الرسم يحتمله : اذ السين والصاد وما بينهما من الاشمام خاضع لرسم واحد تحقيقاً أو تقديراً[1] .

إن ما تمتاز به القراءات العشر الأولى عن القراءات الشاذة التي تأتي من ورائها هو التواتر والشهرة . فهذه القراءات السبع توافر فيها التواتر ، ثم الثلاث الأخرى توافرت فيها الشهرة الى جانب الضابط الذي ذكرناه وهو أقل ما تفقده القراءات الأخرى .

هذا ولا بدَّ أن يكون أصل القراءة الثابتة متواتر السند عن رسول الله ـ ص ـ. فأما كيفيتها ومقاييسها التطبيقية ، فقد تقصر عن درجة التواتر وإن توافرت لها الصحة وأسبابها . وذلك كاختلاف القراءات في تقديرات بعض المدود ، فمنهم من أطالها ، ومنهم من قَصَرها ، ومنهم من بالغ في القَصْر[2] .

---

(١) من روائع القرآن ص ١٠٤ نقلاً عن الاتقان ١/٧٥

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥

وقد حاول بعض العلماء أن يفصل أنواع القراءات فكانت ستة أنواع

الأول المتواتر : وهوما نَقَلَه جَمْع لا يمكِن تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم . وهذا هو الغالب في القراءات .

الثاني المشهور : وهو ما صح سنده ، ولم يبلغ درجة المتواتر ، ووافق العربية والرسم العثماني ، واشتهر عند القراء ، فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ . وذكر العلماء فيه أنه يقرأ به .

الثالث الآحاد : وهوما صح سنده ، وخالف الرسم العثماني أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور ، وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده قرآناً ، لأن العقيدة لا تثبت بخبر الولحد .

الرابع الشاذ : وهو ما لم يَصحَّ سنده ، وهذا لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده .

الخامس الموضوع : وهوما لا أصل له . وهذا لا يقرأ به ، ولا يجب اعتقاده .

السادس المُدْرَج : وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير . وهذا لا يقرأ به ، ولا يجب اعتقاده .

وفي ختام البحث ، نورد كلمة للرافعي في إعجاز القرآن قال فيها :

« ومما ابتُدع في القراءة والأداء هذا التلحين الذي بقي إلى اليوم يتناقله المفتونة قلوبهم ، وقلوب من يعجبهم شأنهم ، ويقرأون بهعلى ما يشبه الايقاع ، وهو الغناء التقيّ .. ومن أنواعه عندهم في أقسام النغم « الترعيد » وهو أن يرعد القارىء صوته ، كأنه يرعد من البرد أو الألم . و « الترقيص » وهو أن يروم السكوت على الساكن ، ثم ينقر مع الحركة كأنه في عَدْو أو هرولة و « التطريب » وهو أن يترنم بالقرآن ، ويتنغم به ، فيمدّ في غير موضع المد ، ويزيد فيالمدّ إن أصاب موضعه . و « التحزين » وهو أن يأتي بالقراءة على وجه حزين يكاد يبكي مع خشوع وخضوع . و« الترديد » وهو ردّ الجماعة على القارىء في ختام قراءته بلحن واحد على وجه من تلك الوجوه .

وإنما كانت القراءة : تحقيقاً ـ وهو إعطاء كل حرف حقه على مقتضى ما قرره العلماء مع ترتيل وتؤده ـ أو حَدْراً ـ وهو إدراج القراءة وسرعتها مع مراعاة شروط الأداء الصحيحة . أوتدويراً ـ وهوالتوسط بين التحقيق والحدر[1] » .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٧

الباب الثالث

تَفسيرُ القُرْآن

الفصل الأول

التفسير والمفسّرون

نزل القرآن بلسان عربي مبين ، في أمة كان فخرها الأول لسانها وبيانها وحديثها العذب ، فكان المعجزة الكبرى التي أذهلتهم وأخذت بألبابهم ، فألفاظه هي ألفاظهم ، وأسلوبه هو أسلوبهم ، وحقيقته ومجازه وكنايته هي حقيقتهم ومجازهم وكنايتهم ، ومع هذا فقد كان السحر الحلال ، والمعجزة التي ملكت عليهم قلوبهم ، ومشاعرهم ، فاضطروا طائعين أو مرغمين أن يؤمنوا به ، ثم يتّبعوا هداه ، ويكونوا من ثَمَّ حملته وحفظته ، ومبلغيه إلى الإنسانية جمعاء .

ومع هذا فلسنا ندَّعي أن جميع الصحابة الذين سمعوا القرآن فهموه جملة وتفصيلاً ، وعلى حد سواء فيما بينهم . ونخالف في هذا ابن خلدون الذي قال : إن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه[1] .

ليس كل كتاب مؤلَّف بلغة يستطيع أهل تلك اللغة أن يفهموه ، ويقرؤوه ، فكم من كتب إنجليزية ، أو فرنسية لا يستطيع الإنجليز أو الفرنسيون قراءتها أو فهمها ! !

إن فَهْمَ كتاب لا يتطلب معرفة اللغة وحدها ، وإنما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة رقيّ الكتاب ، وهكذا كان شأن العرب أمام القرآن . والأمثلة أكثر من أن تحصى على غموض بعض ألفاظ أو تراكيب منه على الصحابة ، واضطرارهم أن يعودوا الى الرسول بالسؤال ، أو يقتصروا على التلاوة دون التعمد إلى التكلف أو التعمق .

إضافة الى هذا ، ففي القرآن آيات كثيرة لا يكفي في فهمها معرفة معاني مفرداتها ، وصورة أساليبها ، وانما تقتضي معرفةَ أشياء كثيرة أولها الثقافة الواسعة ، والتلقي

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٣٦٦

والفهم من فم الرسول ، مَثَلُ ذلك قولهُ تعالى : « والعاديات ضَبْحاً[1] » « والذّارياتِ ذَرْواً[2] » و « والفجرِ وليالٍ عَشْرٍ[3] » و« إنا أنزلْنَاهُ في ليلة القَدْرِ[4] » و« منه آيات محكَمَات هنَّ أمُّ الكتاب ، وأُخَرُ مُتَشابهات[5] » . وما إلى ذلك .

ولم يكن شائعاً في عهد النبي ـ ص ـ حفظ القرآن جميعه كما شاع بعده إنما كانوا يحفظون السورة ، أو جملة آيات ، ويتفهمون معانيها ، فاذا حذقوا ذلك انتقلوا إلى غيرها ، فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة . قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي : حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثمان بن عفان ، وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها ، حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل .

وفي القرآن آيات كثيرة مُحْكَمة واضحة المعنى يفهمها جمهور الناس ، ولا سيما من كانوا عرباً بسليقتهم ، وفيه ـ كذلك ـ آيات غامضة هي التي سميت متشابهة ، وقد صعب فهمها ، ولم يصل إلى معرفتها الا الخاصة .

وكان الصحابة ـ على العموم ـ أقدَرَ الناس على فهم القرآن ، لأنه نزل بلغتهم ، ولأنهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها القرآن .

ومع هذا فقد اختلفوا في الفهم ، على حسب اختلافهم في أدوات الفهم وذلك

١ ـ أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت بينهم ، وإنْ كانت العربية لغتهم ، فمنهم من كان يعرف كثيراً من الأدب الجاهلي ، ويعرف غريبه ، ويستعين بذلك في فهم مفردات القرآن ، ومنهم من كان دون ذلك .

٢ ـ كذلك منهم من كان يلازم النبي ـ ص ـ ويقيم بجانبه ، ويشاهد الأسباب التي دعت إلى نزول الآية . ومنهم من ليس كذلك . ومعرفة أسباب النزول من أكبر ما يعين على فهم المقصود من الآية ، والجهل بها يوقع في الخطأ .

٣ ـ كذلك اختلافهم في معرفة عادات العرب في أقوالهم وأفعالهم،فمن عرف عادات العرب في الجاهلية استطاع أن يفهم آيات الحج أكثر ممن لم يعرف،وهكذا . وكذلك التنديد بمعبودات العرب وطريقة عبادتهم لا يكمل فهمها الا لمن عرف ماذا كانوا يفعلون .

---

(١) العاديات ، ١ (٢) الذاريات ، ١ (٣) الفجر ، ١
(٤) القدر ، ١ (٥) آل عمران ، ٧

٤ ـ ومثل هذا معرفة ما كان يفعله اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول الآيات ، ففيها إشارة الى أعمالهم ، وردٌّ عليهم ، وهذا لا يتمُّ فهمهُ إلا بمعرفة ما كانوا يفعلون . من ذلك ونحوه كان الاختلاف بين الصحابة في الفهم ، وكان التابعون ومن بعدهم أشد اختلافاً[1] .

ولما كان كتاب الله أقدس كتاب في حياة العرب أوالمسلمين والإنسانية ، وفيه صلاح أمرهم في دينهم ودنياهم ، وآخرتهم وجب ألا يُقْدِمَ على تفسيره إلا من هيّأ نفسه لهذا العمل الجليل ، والمهمة الشاقة ، والخطر الكبير .

لقد أدرك الزمخشري هذا الخطر ، فعبر عنه في مقدمة تفسيره فقال : « ... ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح[2] ، من غرائب نكت يلطُفُ مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم ... »[3]

ولقد تحدث السابقون من العلماء عن **الشروط التي يجب توافرها في الإنسان ليكون قادراً على التفسير** ، وهي :

١ ـ **اللغة** : ليعرف بها شرح المفردات ، ومدلولاتها بحسب الوضع، ولا يكفي معرفة اليسير منها .

٢ ـ **النحو** : لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب ، فلا بدّ من معرفة وجوه الإعراب لتحديد المعنى المراد من التركيب بناء على معرفة إعرابه .

٣ ـ **التصريف** : وبه يعرف المفسّر أبنية الكلم وموازينها وصيغتها ، فإذا وجد كلمة مبهمة استطاع تصريفها ، فاستطاع معرفة مادتها ومعناها .

٤ ـ **الاشتقاق** : وهو معرفة المصدر الذي صدرت عنه الكلمة ، فالاسم اذا كان من مادتين مختلفتين اختلف معناه باختلافهما ، كالمسيح مثلاً : أهو من السياحة أم من المسح ؟ .

٥ ـ **علوم البلاغة** : وبها يعرف المفسِّر طريق المعاني ، وخواص التراكيب

٦ ـ **علم القراءات** : وبه يعرف كيف ينطق بالقرآن ، وبه كذلك يرجح بعض وجوه التفسير المحتملة على بعض آخر ، لتواتر قراءة ، أو شهرتها ، أو شذوذها .

---

(١) فجر الاسلام ٢٢٩/١ (٢) القوارح : المكتملة (٣) مقدمة الكشاف للزمخشري

٧ ـ **أصول الدين** : وهي قواعده المتعلقة بذات الله ، وصفاته ، وأفعاله ، والإيمان به ، وما إلى ذلك . وبهذا العلم يستدل المفسِّر على ما يستحيل بحقه تعالى ، وما يجب ، وما يجوز .

٨ ـ **أصول الفقه** : وبه يستطيع أن يدرك وجه الاستدلال على الأحكام فيه .

٩ ـ **أسباب النزول** : ومعرفة أسباب نزول آية يوضح الى حد بعيد مرامي تلك الآية ومدلولها .

١٠ ـ **الناسخ والمنسوخ** : ليعلم به الآيات المحكمة ، والآيات المنسوخة وما بطل العمل به ، وما بقي وهكذا ..

١١ ـ **الحديث النبوي** : وما حديث الرسول إلا تفسير للقرآن والشريعة ، فكم من حديث فَسَّر القرآن ، وكم من مغلق فَتَحَه .

إضافة إلى كل هذا يجب **أن يكون أديباً** ، **ذكياً** ، **ذواقة** ، **واسع العقل** ، **كبير القلب** ، **تقياً** ، **صالحاً** ، **يخشى الله في السرّ كما يخشاه في العلانية** .

إنَّ دونَ ذلك خَرْطَ القَتَادِ ، ولكن ما لا يُدْرَكُ كلُّه لا يُتْرَكُ جُلُّه .

الفصل الثاني

أنواع التفسير

التفسير : في **اللغة** ، هو الايضاح والتبيين . ومنه قوله تعالى : « ولا يأتونك بمَثَل إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيراً[1] » .

والتفسير في **الاصطلاح** : علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[2] .

وينقسم التفسير الى نوعين :

الأول : تفسير جافّ لا يتجاوز حَلّ الألفاظ ، وإعراب الجمل ، وبيان ما يحتويه نظم القرآن من نكات بلاغية ، وإشارات فنية . وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير وبيان مراد الله من هداياته .

الثاني : تفسير يجاوز هذه الحدود ، ويجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن ، وتعاليمه ، وحكمة الله فيما شرع للناس في القرآن ، على وجه يجتذب الأرواح ، ويفتح القلوب ، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بِهَدْي الله . وهذا هو الخليق باسم التفسير ، وفيه يساق حديث هذا الموضوع .

وتسهيلاً للبحث نقسم التفسير الى عدة أنواع حسب الموضوعات الأساسية التي اهتم بها .

١ ــ التفسير بالمأثور

٢ ــ التفسير بالرأي

أ ــ بالرأي الجائز

ب ــ بالرأي المذموم

---

(١) الفرقان ، ٣٣ (٢) مناهل العرفان ١/٤٧١

٣ ــ التفسير الصوفي
٤ ــ التفسير الفلسفي
٥ ــ التفسير الفقهي
٦ ــ التفسير العلمي
٧ ــ التفسير الاجتماعي
٨ ــ التفسير الأدبي

١ ــ التفسير بالمأثور

ويسميه بعضهم : التفسير بالرواية . ونعني به : ما جاء في القرآن ، أو السنة ، أو كلام الصحابة الثابت الصحيح بياناً لمراد الله تعالى من كتابه .

إن شرط المفسّر ــ قبل كل شيء ــ أن ينظر في كتاب الله نفسه ، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد ، ويقابل الآيات بعضها ببعض ، ليستعين بما جاء مُسْهَباً على معرفة ما جاء موجَزاً ، وبما جاء مبيَّناً على ما جاء مُجْمَلاً . وبهذا يكون قد فسّر القرآن بالقرآن ، وفَهِمَ مرادَ الله بما جاء عن الله .

فمن **تفسير القرآن بالقرآن** قصة إبليس ، جاءت موجزة في موضع ، ومسهبة مفصلة في موضع آخر ، وكذلك قصة فرعون وموسى .

قد يرد لفظ مبهم في القرآن في موطن ، ثم يأتي بيانه وتفسيره في موطن آخر . مَثَلُ ذلك قَولُه تعالى: « الذين آمنوا ولم يُلْبِسُوا إيمانَهُمْ بظلم[1] » فقد فسرت كلمة « الظلم » في آية أخرى . وهي قوله تعالى : « إن الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيم[2] » .

وقد يكون الظاهر المتبادر من آية بحسب الوضع اللغوي غير مراد ، وأن المراد غيره ، بدليل آية قرآنية أخرى ، كما في قوله تعالى : « الطلاق مرتان »[3] . فإن الظاهر المتبادر الى الذهن من ظاهر اللفظ أن الطلاق كله محصور في مرتين . ولكن الله تعالى يبين أن المراد بالمحصور في المرتين خصوص الطلاق الذي يملكه الرجل بعد الرجعة ، لقوله تعالى : « فإنْ طَلَّقها فلا تَحِلُّ له حتى تَنْكِحَ زوجاً غيرَه[4] » .

وقد يذكر الله لفظاً عاماً في آية ثم يذكره في أخرى موضحاً المراد منه والمخصوص

---

(١) الأنعام ، ٨٢ (٢) لقمان ، ١٣ (٣) البقرة ، ٢٢٩
(٤) البقرة ، ٢٣٠

كقوله تعالى : « ومَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ[1] » فالشعائر عامة ، أو غامضة الدلالة ، ثم فسرت بآية أخرى « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِن شَعَائِرِ الله[2] » . وهكذا .

أما **تفسير القرآن بالسنة** ، فمصدر آخر من مصادر التفسير بالمأثور ذلك أن الصحابة كانوا يُعَوِّلُونَ في تفسير كتاب الله على رسوله ، فيبين لهم ما خفي عليهم أو أشكل ، مصداقاً لقوله تعالى : « وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبيّنَ للناسِ ما نُزّل إليهم ، ولعلهم يتفكرون[3] » وتفسير الرسول الكريم للقرآن قد يكون

أ ـ تفسيراً للَفْظ قرآني كما في قوله تعالى : « وَأعدّوا لهم ما استطعْتُم من قُوَّة[4] » فقد فسّر الرسول هذه القوة بالرمي حين قال : « ألاَ إنَّ القوةَ الرَّمْيُ ، ألا إنَّ القوةَ الرميُ ، ألا إنَّ القوةَ الرميُ » .

ب ـ وقد يقرر القرآن أصلاً فتورد السنة التطبيقات العملية بياناً له ، كما في قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطِلِ[5] » فبيّنت السنة أنواع هذا الباطل كالربا ، والغش ، ونحو ذلك[6] .

جـ ـ وقد تشرح السنة كليات القرآن ومجملاته ، كبيان السنة لأنواع الأموال التي تجب فيها الزكاة ، ومقدار النصاب فيها ، والمقدار الواجب فيها .

د ـ وقد تقيم السنة قواعد عامة مستمدة من وقائع جزئية من القرآن الكريم كقوله ـ ص ـ :«لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ[6] » .

وفي تفسير الرسول العظيم للقرآن لا بدَّ أن ندلي بهذه الملاحظة ، وهي أن القُصَّاص والوُضّاع زادوا في هذا النوع من التفسير كثيراً ، ونسبوا الى رسول الله ما لم يقُلْه .

وليس أدل على ذلك مما أخرجه الحاكم عن أنس أنه قال : سئل رسول الله ـ ص ـ عن قوله تعالى : « والقناطيرِ المقَنْطَرَةِ » فقال : « القنطار ألف أوقية » ، وما أخرجه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ص ـ : « القنطار اثنا عشرَ ألف أوقية[7] » .

---

(١) الحج ، ٣٦ (٢) الحج ، ٣٦

(٣) النحل ، ٤٤ (٤) الأنفال ، ٦٠ (٥) البقرة ، ١٨٨

(٦) انظر بحث محمد رواس قلعه جي المقدم الى وزارة الأوقاف ص ٥٤ .

(٧) انظر فجر الاسلام ص ٤٢٥ ؛ ومحمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون ٤٧/١ . وقد حقق الحافظ ابن كثير عند تفسيره هذه الآية « زين للناس حب الشهوات ... » أنه لم يصح عن رسول الله ـ ص ـ حديث في تحديد القنطار ، وما ورد فوقوف على بعض الصحابة .

مثل هذا التناقض في مقدار وزن القنطار لا يمكن أن يصدر عن رسول الله .
ولهذا ردّ العلماء كثيراً مما ورد من التفسير منسوباً إلى رسول الله . وقد نقل عن الإمام أحمد أنه قال : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازي .

ويبدو أن مراده من انكارها أنه ليس لها أسانيد صحيحة متصلة[1] .

المصدر الثالث من مصادر التفسير بالمأثور **اجتهاد الصحابة** . وتفسير الصحابة يقف في قوته في المرتبة الثالثة بعد المصدرين السابقين ، ذلك لأنهم شهدوا الوحي ، وعاشوا مع محمد ، ونشأوا في الجزيرة العربية ، والعربية لسانهم ، وهم أدرى الناس بأحوال اليهود والنصارى في بلادهم ، وهم قبل كل شيء تلامذة محمد .

مع هذا ، فلسنا ندعي أن الصحابة جميعاً كانوا على حد سواء في الفهم . إنهم لم يكونوا بمرتبة واحدة ، لذلك فقد اختلفوا في فهم بعض معاني القرآن ، وإنْ كان اختلافُهم يسيراً بالنسبة الى طبقة التابعين بعدهم ، ثم طبقة تابعيهم وهكذا .

ومن أمثلة اختلاف فهم الصحابة ما روي من أن عمر بن الخطاب استعمل قُدامة ابنَ مظعون على البحريْن ، فقدم الجارودُ على عمر فقال : إن قدامةَ شَرِبَ فَسَكِرَ . فقال عمر : مَنْ يَشْهَدُ على ما تقول ؟ قال الجارود : أبو هريرة يشهد على ما أقول . فقال عمر : يا قدامة إني جَالِدُكَ . قال : والله لو شربتُ كما يقول ما كان لك أن تَجْلدَني . قال عمر : ولم ؟ قال : لأن الله يقول : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طَعِمُوا اذا ما اتَّقَوْا وآمنوا وعَمِلوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا[2] » . فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدتُ مع رسول الله ـ ص ـ بَدْراً ، وأُحُداً ، والخندق ، والمشَاهِدَ . فقال عمر : ألا تردّون عليه قولَه ؟ فقال ابن عباس : إن هذه الآيات أنزلت عذراً للماضين ، وحجةً على الباقين ، لأن الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميْسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجس مِنْ عَمَلِ الشيطان[3] » . قال عمر : صدقت .

وهذا المثال يدل على اختلاف فَهْم قدامة عن فهْم ابن عباس ، كما يدل في الوقت ذاته على العقل الكبير الذي كان يتحلّ به عمر ، وعلى موقفه العظيم في قضائه حين كانت تعرض عليه دعوى ، فيستشير فيها ، ثم يحكم .

---

(١) الاتقان ٢/١٤١ (٢) المائدة ، ٩٣ (٣) المائدة ، ٩٠

المصدر الرابع في التفسير بالمأثور : **أهل الكتاب من اليهود والنصارى** . وذلك أن القرآن الكريم يتفق والتوراة في بعض المسائل ، ولا سيما في قصص الأنبياء ، وأخبار الأمم الماضية ، وكذلك يتفق والإنجيل في مواضعَ وردت في كليهما كميلاد السيد المسيح ومعجزاته ـ عليه السلام ـ .

غير أن القرآن اتَّخذ له منهجاً يخالف منهج التوراة والإنجيل ، إذ لم يتعرض لجزئيات المسائل ، ولم يستوف القصة من جميع جوانبها ، وإنما اقتصر من ذلك على موضع العبرة فقط .

ولما كان العقل الإنساني ميالاً الى الاستيفاء والاستقصاء ، جعل بعض الصحابة يرجعون في استيفاء هذه القصص الى من دخل في الاسلام من أهل الكتاب كعبدالله ابن سلام ، وكعب الأحبار وغيرهما .

نريد أن نقول : إن هذا المصدر كان ضيِّقاً ومحدوداً ، لأمور مختلفة ، منها ما يتصل بنظرة المسلمين إلى التوراة والانجيل ، ومنها ما يتصل بالعقيدة الإسلامية ذاتها . وكان أخذ المسلمين من أهل الكتاب محصوراً فيما لا يتعارض والعقيدة ، أما ما تعارض فقد كانوا يرفضونه ولا يصدقونه . أما ما كان مسكوتاً عنه ، لا يتفق ولا يختلف ، فيتوقفون فيه ، ولا يحكمون عليه بصدق أو كذب . امتثالاً لقول الرسول : لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمَنَّا بالله وما أنزِل إلينا ...

... ...

لقد اشتهر من مفسري الصحابة الخلفاء الراشدون ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبدالله بن الزبير .

ويختلف هؤلاء في كثرة تفسيرهم وقلته اختلافاً واضحاً ، ويبقى ابن عباس ، ثم ابن مسعود في طليعتهم .

أما ابن عباس فابن عم النبي ـ ص ـ وتلميذه . كان يُلَقَّب بالحَبْر والبحر لكثرة علمه ، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعاني كتاب الله . وكان عمر يعتمد عليه اعتماداً كبيراً في هذا الموضوع .

وتتفق الروايات على أن ابن عباس كان يفهم القرآن على ضوء القرآن أولاً ، والسنة ثانياً ، واجتهاده ثالثاً ، والرجوع الى أهل الكتاب ـ بالشروط التي ذكرناها ـ ولقد استَغَلَّ المستشرق اليهودي جولدزيهر في كتابه « المذاهب الإسلامية

في تفسير القرآن » سؤال ابن عباس أهلَ الكتاب،فاتّهَمَهُ بمخالفة أمر الرسول بالنهي عن ذلك « لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم» وهذا الاتهام طعنٌ في دين ابن عباس أولاً . والعجيب أن المرحوم أحمد أمين قد أخذَ بالمظهر العلمي للمستشرق ، وغَرَّتْهُ عباراته المنمَّقة ، وهالَتْهُ فِكَرُهُ المزوَّقة ، فأعاد ما قال المستشرق عن ابن عباس ، وغفل عن أن وراء ذلك سُمّاً ناقعاً[1] .

نريد أن نقول رداً على المستشرق ومن سار في ركابه : إن ابن عباس وغيرَه من الصحابة كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ، وكانت أسئلتهم فيما لا يَمَسّ العقيدة ، أو يتصل بأصول الدين وفروعه . إن أسئلتهم كانت عن بعض القصص والأخبار الماضية ، ولم يكن ابن عباس وغيره يقبلون كل ما يُرْوى على أنه حَقٌّ لا يأتيه الباطل ، بل كانوا يُحكِّمون عقولهم ودينَهم ، فما اتفق والدينَ والعقلَ صدقوه ، وما خالفهما نبذوه ، وما سكت عنه القرآن توقفوا فيه .

إن ابن عباس تلميذ محمد ، أطاع الله حين أطاعه ، وهو مطيع لله في حياة محمد وفي مماته . ليس له أن يخالفه في أمره ونهيه لأنه لا يستطيع أن يخالف الله . وجُلُّ ما رُوي عنه ـ وهو كثير لا يُحْصَى ـ مكذوب .

لقد ملأ المفسرون كتبَهم بأقوال ابن عباس ، وكأنه لم يترك صغيرة أو كبيرة إلا فَسَّرها ، أو كان له رأي فيها . ووضعوا لأقواله أسانيد ، معظمها عند التحقيق ضعيف لا يُعْتَمَد عليه . حتى لقد قال الإمام الشافعي : لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث[2] .

كتب التفسير بالمأثور

منذ القرن الثاني للهجرة ، قام العلماء بمحاولات لتفسير القرآن بالمأثور ، بَيْدَ أنَّ محاولاتهم بقيت مخطوطة ، أو ضائعة ، أو ناقصة . ولم يصل الينا إلا عدد ضئيل جداً منها . وأشهر ما بقي :

١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن : لابن جَرير الطبري
٢ ـ بحر العلوم : لأبي الليث السَّمَرْقَنْدي

---

(١) انظر فجر الاسلام ص ٢٤٨ ، ومذاهب التفسير الاسلامي ص ٧٣ ـ ١٢٠
(٢) الاتقان ٢/١٨٩

٣ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن : لأبي اسحق الثعلبي
٤ ـ معالم التنزيل : لأبي محمد الحسين البَغَويّ
٥ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عَطيّة الأندلسي .
٦ ـ تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء الحافظ ابن كثير
٧ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن الثعالبي
٨ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور : لجلال الدين السيوطي .

تلك أهم كتب التفسير بالمأثور ، وسنحاول أن نكتب كلمة موجزة عن كتابين يُعَدّان من أشهر كتب هذا اللون ، وهما تفسير الطبري ، وتفسير ابن كثير .

أما جامع البيان في تفسير القرآن فمؤلفه محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ / ٩٢٣م .

الطبري إمام جليل ، ومجتهد مطلق ، ومؤلف مُتَبَحِّر ، له من المؤلفات العشرات ، لكنه لم يصل الينا إلا تفسيره وتاريخه المسمّى : تاريخ الأمم والملوك . يقول عنه العلماء : إنه أبو التفسير ، وأبو التاريخ . ويذهبون الى مدى بعيد في الإشادة به ، شرقيين كان العلماء أو غربيين .

ويعتبر تفسيره من أقْوَم التفاسير وأشهرها ، وهو المرجع الأول للتفسير النقلي ، وفيه قدْر طيب من التفسير العقلي .

يقع في ثلاثين جزءاً ، وقد طبع حديثاً في مصر طبعة أنيقة .

أما طريقة ابن جرير في تفسيره فتقوم على الشكل التالي : يأتي بالآية الكريمة ، ويقول : « القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا » ثم يفسرها ، ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده الى الصحابة أو التابعين من التفسير المأثور عنهم في هذه الآية ، فإذا كان فيها قولان أوردهما . أو أورد كلما ورد في هذا الصدد .

إن الطبري لا يقتصر على مجرد الرواية ، وانما يتعرض لترجيح الأقوال ، كما يتعرض أحياناً لناحية الإعراب ، واستنباط الأحكام الشرعية من الآية .

ويُلِحُّ الطبري على ضرورة الرجوع الى أقوال الصحابة والتابعين ، ويحمل بشدة على أصحاب الرأي الذين يستقلون برأيهم في تفسير كلام الله .،وكان ـ رحمه الله ـ يعود إلى اللغة العربية ، وكلام العرب ، وشعرهم فيستشهد بها على صحة ما يذهب إليه إنْ أعْوَزَه النقل ، أو اضطر الى أن ينفرد برأيه . ولذلك نجد شعراً كثيراً ، وشواهد مختلفة جاهلية وإسلامية في تفسيره .

ويحمل بعض الدارسين على الطبري لأنه أورد نُقولَه بأسانيد مختلفة ، دون أن يضعّف سنداً أو يقويه أو يصححه . ويبدو لنا أن له عذراً في ذلك ، فقد اتبع قرار علماء الحديث : « من أَسنَدَ لك فقد حمّلك البحثَ عن رجال السند ، ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح » . إنه بهذا القرار خرج من حدّ المسؤولية ، وحمّل دارس كتابه مهمة البحث .

ومع هذا ، فإن الطبري كان ـ أحياناً ـ يُعَدّل بعض الرجال ، ويُجَرِّح بعضهم الآخر ، ويرد رواية من لا يثق به .

كذلك يتهمون الطبري بأنه توسع في رواية الإسرائيليات ، وأورد شيئاً من الأساطير النصرانية بأسانيد ضعيفة ، أو غير موثوقة الا أنه كان ـ أحياناً ـ يعلق على ضعفها ، أو يكتفي بإلقاء التبعة على قارئه اذ يقدمها مسندة ، ويترك له الحكم عليها . وطبيعي أن هذا الإيراد راجع الى ما تأثر به من الروايات التاريخية التي عالجها في بحوثه التاريخية المسهبة .

وأما « **تفسير القرآن العظيم** » فللإمام الحافظ ، عماد الدين ، أبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير البصري ثم الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م

سمع ابن كثير من علماء فطاحل كابن الشِّحنة ، والآمدي ، وابن عساكر ، وابن تيمية . وكان كما شهد الدارسون ومن يوثق بقولهم : قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ .

يعد تفسيره من أشهر كتب التفسير المأثور بعد الطبري . اعتنى فيه بالرواية عن مفسري السلف ، ففسر كلام الله بكلامه العظيم ، وبالأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها ، مع الأحكام على الأسانيد من جرح أو تعديل .

ومما يمتاز به تفسير ابن كثير أنه ينبه الى ما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات ، ويحذر منها على وجه الاجمال تارة ، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى[1] .

ويدخل ابن كثير في المناقشات الفقهية ، وفي خلافات الفقهاء ، ويخوض في أدلتهم ومذاهبهم كلما تكلم عن آية فيها حكم فقهي . ولكنه رغم هذا يبقى

(١) انظر « التفسير والمفسرون » ٢٤٤/١

مُقِلاً اذا قيس بغيره من المفسرين الفقهاء .

ان تفسير ابن كثير من خير كتب التفسير المأثور . ولقد قال السيوطي : إنه لم يؤلَّفْ على نمطه مثله .

٢ ـ التفسير بالرأي

ويسميه بعضهم : التفسير بالدراية .

إن المراد بالرأي هنا : الاجتهاد . والتفسير بالرأي هو تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر كلام العرب ، وأساليبهم في القول ، وبعد وقوفه على أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، والعلوم الأخرى التي أسلفنا القول فيها في مقدمة هذا الباب .

ولئن غلب على التفسير في القرنين الأول والثاني للهجرة التفسير بالمأثور ، إن التفسير بالرأي قد وجد طريقه رويداً رويداً على ألسنة بعض الصحابة والتابعين ومن تلاهم .

وما إن امتدت الرقعة الاسلامية بعيداً عن حدود الجزيرة العربية ، وشمل الاسلام شعوباً وأمماً وثقافات وفِكَراً وديانات متعددة ، واختلط العرب بالأمم الأخرى ، وامتزجت عقليتهم بعقلية تلك الأمم وترجمت الثقافات المختلفة الى العربية حتى ظهرت التأثيرات المتبادلة ، ونشأت العلوم الجديدة ، وظهرت الفرق الفكرية والدينية ، فتأثر من جملة ما تأثر بفعل هذه التيارات اتجاه التفسير .

من ذلك مثلاً أنه وُجد في العصر الأموي متكلمون في القَدَر ، فكانوا إذا أرادوا أن يحتجّوا على صحة ما يذهبون إليه فأوّلوا آيات القرآن حسب عقيدتهم ، فمن قال بالجَبْر أوّل كل آيات الاختيار ، ومن قال بالاختيار أوّل كل آيات الجَبْر وسال بعد ذلك السَّيْلُ في العصر العباسي ، فصارت كل طائفة وأصحاب كل مذهب ينظرون إليه من خلال مذاهبهم ، والفلسفات التي درسوها ،ولا سيما الفلسفة اليونانية .

واذا استعرضتَ أسماء الفرق والمذاهب في كتاب « المِلَل والنِّحَل للشَّهرستاني » فلسوف تَدْهش لكثرتها وتشعبها واختلافاتها ، وهذه كلها تنظر الى القرآن بعين مذهبها ، وتفسره بما يلائمها . فالمعتزليّ يطبِّق القرآن على مذهبه في الاختيار

والصفات والتحسين والتقبيح العَقْلِيَّيْن ، ويُؤول ما لا يتفق ومذهبَه ، وكذلك يفعل الخارجيّ ، وذلك يختلف كل الاختلاف عن نظر المسلمين الأولين إلى القرآن .

كان القرآن يدعو الى الايمان من طريقين : طريق النظر الى العالمَ نفسه وطريقِ التاريخ . فهو يرى أن نظر الإنسان الى العالم يدعم إيمانه ويقوي يقينه ، ففي الرياح والسحب المسخرة بين السماء والأرض ، والإبل التي خُلِقت ، والسماء التي رُفعت والأرض التي بُسِطت آيات على الله ، كما أن في الأحداث التاريخية من الأنبياء وأممهم ما يدعو الى الايمان ، وهذا النظر يناسب الناس على اختلافهم . ففي استطاعة العالم والجاهل أن ينال الإيمان من هذا الطريق ، والدعوة الى الحياة الروحية وحدها هي الدعوة التي يمكن أن تُوجّه الى الناس كافة . فلما أولع العلماء بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي حولوا اتجاه القرآن نفسه الى نوع من الثقافة العقلية والبراهين المنطقية ، ودرسوا القرآن على النحو الذي يدرسون به الحساب والهندسة والهيئة .

وكان كلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة نظروا الى القرآن من خلالها ، فإذا أتت آية في الرعد والبرق شرحوها بكل ما وصل إليه عِلمهم في الظواهر الجوية ، وإذا أتت آية في النجوم والسماء طبّقوا ما عَلِموا من علم الهيئة ، واذا أتت إشارة في آية إلى جَبْر أو اختيار عدّدوا مذاهب المتكلمين فيها ، وإذا أتت مسألة نحوية أفاضوا في الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين[1] .

ووقف العلماء من جواز تفسير القرآن بالرأي موقفين متعارضين .

تشدَّد قوم في ذلك ، فلم يجرؤوا على تفسير شيء من القرآن ، كما لم يبيحوه لغيرهم . وقالوا : لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن وان كان عالماً اديباً متَّسِعاً في معرفة الأدلة ، والفقه ، والنحو ، والأخبار ، والآثار ، وإنما له أن ينتهي الى ما رُوِي عن النبي – ص – وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة ، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين[2] .

وكان لهذا الفريق المتشدد حجج وأدلة . منها خشيتهم أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، ومنها حديث : « من قال في القرآن برأيه فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَه من النار[3] » ،

(١) ضحى الاسلام ٣٦٩/١

(٢) انظر مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني ، الملحقة بآخر تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ص ٤٢٢ .

(٣) انظر سنن الترمذي (في أبواب التفسير) ١٥٧/٢

ومنها الحديث : « من قال في القرآن برأيه فأصاب ، فقد أخطأ[1] . » ومنها موقف السلف الصالح من التشدد في البعد عن هذا الاتجاه ، وأقوالهم الكثيرة في البعد عن هذا الموضوع .

ووقف فريق آخر موقفاً مضاداً لموقف الفريق الأول ، فأجازوا لأنفسهم ولغيرهم ممن ملك قياد اللغة والأدب ، واطلع على علوم القرآن والشريعة أن يفسروا القرآن .

وكان لهذا الفريق أدلة وبراهين على حِلّ ذلك وجوازه . منها أن المفسر المجتهد مأجور مرتين إن أصاب ، ومأجور مرة إن أخطأ ، ومنها أن الرسول الكريم قال لمعاذ بن جبل حين بعثه الى اليَمَن : بِمَ تحكُم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد برأيي . فضرب رسول الله ـ ص ـ في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسولَ الله[2] . ومن الأدلة كذلك أن القول بالقرآن محرَّم اذا صدر عن هوى متبع ، وجهل بالحق ، وحياد عن الصواب ، ومخالفة للشرع ، وبُعْد عن العلم ، وفَقْد لأدوات التفسير ... ، وبعد : فالحديث الوارد في تحريم التفسير لم تثبت صحته ، وقد أنكره المحدثون أو ضعَّفوه .

أضف إلى ذلك أنه لو كان التفسير بالرأي محرماً لوجب أن يُحرَّم الاجتهاد ، ويستغنى عن العقل .. ؟ وهذا محال . فباب الاجتهاد مفتوح إلى يوم القيامة ، والمجتهد مثاب وإن أخطأ ، والنبي ذاته لم يفسر جميع آيات القرآن ، ولم يستخرج جميع أنواع الأحكام .

* * *

إن منطق الحياة كان مع الفريق الثاني . ولقد فُسّر القرآن بالرأي ، وكثرت التفاسير في ذلك حتى لا تكاد تحصى .

ولكن المفسرين كانوا ـ في رأي أهل السنة ـ على قسمين : قسم سار على المنهج الحق ، واتبع سبيل الرشاد ، وكان تفسيره جائزاً . وقسم حاد عن الجادَّة ، وركب هواه ، وجعل القرآن تابعاً لميوله وهواه ، وكان الواجب عليه أن يجعل ميوله وأهواءه تابعة للقرآن . وكان تفسيره غير جائز .

---

(١) المرجع السابق ٢/١٥٧

(٢) التفسير والمفسرون ١/٢٥٧

وها نحن أولاء نعرض لأهم كتب الفريقين .

أ ـ فكتب التفسير بالرأي الجائز متعددة ، وكثيرة جداً . وأهمّها :

١ ـ مفاتيح الغيب (أو التفسير الكبير)	: للفخر الرازي
٢ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل	: للبَيْضاوي
٣ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل	: للنَّسَفِي
٤ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل	: للخازن
٥ ـ البحر المحيط	: لأبي حيّان
٦ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان	: للنَّيسابوري
٧ ـ تفسير الجلالين	: للجلال المحَلّي والجلال السيوطي
٨ ـ السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير	: للخطيب الشربيني
٩ ـ ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب القديم	: لأبي السعود
١٠ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني	: للآلوسي .

وسنقدم كلمة موجزة في كتابين : مفاتيح الغيب ، وروح المعاني .

أما مفاتيح الغيب :

فمؤلفه أبو عبدالله ، محمد بن عمر الرازي ، الملقب بفخر الدين المتوفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٧م .

كان الرازي فريد عصره ، ومتكلم زمانه ، والإمام في التفسير ، وعلم الكلام ، وعلوم العقل ، واللغة . وكانت شهرته تجاوز حدّ الوصف .

لقد ألّف الرازي مجموعة كبيرة من الكتب : في التفسير ، وعلم الكلام ، وأصول الفقه ، والحكمة ،والطِّلَّسْمَات ، والنحو ، والفقه وغيرها .

يقع تفسيره في ثماني مجلدات كبيرة ، وهو مطبوع ومتداول . والغريب أن المؤرخين والعلماء[1] أجمعوا على أن الرازي بدأ في تأليف تفسيره ولم يتمّه لأنه مات مسموماً على يد الفرقة الكرامية ، ومع هذا فقد وصلنا تاماً كاملاً . وينسبون

(١) انظر وفيات الأعيان ٢/٢٦٥ ؛ وشذرات الذهب ٥/٢١ ؛ والدرر الكامنة ٢/٢٩٩

إتمامه الى عدد من الرجال يسمونهم واحداً واحداً ، ويختلفون فيهم ، ولكن المهم أنه سواء أتمه فلان أو فلان ممن يذكرون ، فإن منهج الرازي ، وأسلوبه ، وروحه ظلت في الجزء المتمَّم حتى لتخفى عن المدقق العام .

ميزة هذا التفسير أنه يربط الآيات بعضها ببعض ، ويبين المناسبة بينها ، وهذا أمر غفل عنه كثير من المفسرين . وهو بهذا الصَّنيع جعل القرآن ، أو السورة الواحدة كلاًّ متصلاً مترابطاً منسجماً ، لا تمزيق بينه ولا انفصال .

كذلك اهتم الرازي بالاستطراد الى علوم الرياضيات والطبيعيات والفَلَك وما إليها في خلال تفسيره ، وأورد كلام الفلاسفة وناقشه ، ورد عليه مستخدماً منطق أهل السنة وحججهم .

وحمل الرازي على المعتزلة ، وشنّع عليهم ، الا أن أهل السنة ـ وهو منهم ـ يرون ردوده في هذا المجال ضعيفة ، خائرة القوى ، لا تنهض أمام حجة الخصوم ، ولا تصفعها الصفع الذي يحبون . ويرون سبب ذلك أن الرازي كان يعرض للخلاف فيورد حُجَج الخصوم ، ويوضحها أجلى توضيح حتى لو أراد صاحبها أن يزيد عليها شيئاً عجز وخارت قواه ، فاذا ما وصل الى الرد بدا عليه الوهن ، لأن قواه التعبيرية كان قد استنفدها في خدمة توضيح آراء خصومه .

كذلك فإن الرازي كان يتعرض في تفسيره للمذاهب الفقهية ، ولا سيما عند تفسير آيات الأحكام ، ويفصل القول خاصة في المذهب الشافعي الذي يعتنقه . وكانت عنايته في المسائل الأصولية ، والنحوية ، والبلاغية لا تقل عن عنايته بالفقه ، والعلوم الأخرى .

من أجل هذا قال حاجي خليفة عنه في كشف الظنون حين وصف تفسيره[1] : إن الإمام فخر الدين الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب ، ونقل قول بعض العلماء : فيه كل شيء الا التفسير .

ولا نشك أن الرازي مظلوم بالتهمة الأخيرة . فنحن نقول : فيه كل شيء مع التفسير .

---

(١) كشف الظنون ١/ ٢٣٠

وأما روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

فمؤلفه : أبو الثناء ، شهاب الدين ، محمد الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٧٨ م .

هو شيخ العراق ، وآية من آيات الله العظام ، ونادرة من نوادر الأيام ، جمع علوم المنقول والمعقول . شافعي المذهب ، سلفيّ الاعتقاد . خلّف كتباً كثيرة في شتى العلوم والفنون .

في تفسيره مجهود كبير ، وحصيلة جامعة لآراء السلف رواية ودراية ، وأمانة علمية في النقل ندر مثيلها . كان ينقل من كتب الآخرين فيشير الى ما يفعل ، ويذكر المصدر والمؤلِّف ، وإذا عَنَّ له رأي مخالف أظهره وبيّن حدوده . وكان في كثير من الأحيان يقرن آراء الآخرين بعضها ببعض ، ويُنصِّب نفسه حَكَماً بينها ، فيرجِّح قولاً على قول ، ورأياً على رأي ، ويبين سبب ترجيحه ، ودواعي حكمه .

ولما كان الآلوسي سلفيَّ المذهب ، سنّي العقيدة فقد تصدى لآراء المعتزلة والشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه .

ليس هذا ما يميزُ تفسير الآلوسي وحده ، وإنما هناك أمور أخرى . منها أنه كان يستطرد إلى الأمور الكونية فيعرض لكلام أهل الهيئة ، والحكمة ، فيقر من كلامهم ما يرتضيه ، ويفنِّد ما لا يرتضيه ، كما يستطرد إلى المسائل النحوية والفقهية فيفصل فيها القول كما كان يفعل الرازي في مفاتيح الغَيْب .

ومما نلاحظه على الآلوسي أنه شديد النقد للإسرائيليات والأخبار المكذوبة التي حشابها بعض المفسرين تفاسيرهم ، وظنوها صحيحة مع سخرية خفيفة منهم .

وهناك من عدَّ تفسيره في جملة التفسير الإشاري ، ذلك أنه حين كان ينتهي من الكلام عن كل ما يتصل بالتفسير الظاهر للآيات ، يغوص في معانيها الباطنة الخفية ، ويسهب في هذا المجال .

وجملة القول ، إن « روح المعاني » موسوعة تفسيرية قيِّمة ، جمعت ما قاله علماء التفسير الذين تقدموا عليه ، مع النقد الحر ، والترجيح الذي يعتمد على قوة الذهن وصفاء القريحة ، وهووان كان يستطرد إلى نواح علمية مختلفة إلا أنه متزن

في كل ما يتكلم فيه[1] .

* * *

ب ـ التفسير بالرأي المذموم

يَصِفُه أهل السنة بالمذموم لحياده عن الحق ، واتباعه الهوى . ويَعْنُونَ به هنا في مجال التفسير : تفسير الفرق التي خالفت مذهبهم .

ولسنا في صدد البحث في أصل نشوءهذه الفرق ، ولا في الأسباب التي أدت بها الى الجنوح عن جادة السنة والجماعة ، فكتب التاريخ ، والعقيدة والملل والنِحَل تكفلت ببيان هذا الجانب ، وأشبعته بحثا وتفصيلاً ، وبينت الفروق الدقيقة لكل فرقة ، حتى لم تبق زيادة لمستزيد .

يقول أهل السنة : ان تفسير هذه الفرق تفسير مذموم ، لأن التفسير كان مطية للجماعة ، من خلاله عرضت لآرائها ومذاهبها ومناحي تفكيرها ، وحوّلت كل آية لا تنسجم وما تذهب اليه تحويلاً شديداً حتى تصل الى أهدافها .

إن هذه الفرق تستخدم في سبيل مآربها توجيه المفردات والتراكيب ، والوان المجاز نحو وجهتها . فاذا كان اللفظ في ظاهره يوحي بمعنى من المعاني يختلف ومذهبَها ، بدّلت معناه الى معنى آخر وحمّلته من المعاني المجازية ما لا طاقة له بحمله لتصل الى انسجام في اتجاهها وتفسيرها .

وقد لا يكونُ سياق آية متفقاً اتفاقاً جزئياً أوكلياً وذلك المذهب ، فيعمد المفسّر الى التلاعب بحروف الآية ، فيغيّر بعضها ، اويغيّر إشارات ضبطها فيقلب الفتحة ضمة ، والضمة فتحة ، والكسرة سكوناً وما الى ذلك ليصل الى هدفه ، ويحقق هواه .

ومن أساليب الهوى وصف آية بأنها منسوخة مع أنها ليست كذلك ، وأن تلك ناسخة والواقع لا يثبت هذا الادعاء ، والزعم بأن سبب نزول هذه الآية كذا وكذا ، والتاريخ والوقائع والروايات الثابتة تخالف هذا الزعم وترفضه .

إنّ المبدأ المثالي في التفسير : أن تجعل عقيدة المفسر وآراؤه في خدمة القرآن ، وتابعة له . والمبدأ المذموم هوالذي يكون فيه القرآن في خدمة عقيدة المفسِّروآرائه . لهذا وصفوه « بالتفسير المذموم » .

---

(١) التفسير والمفسرون ١/٣٦٢

وها نحن أولاء نضرب الأمثلة على هذا النوع :

إن للمعتزلة كتباً كثيرة في التفسير ، تجاوزت المائة ، لكنها ضاعت جميعاً ، ولم يبق لدينا سوى ثلاثة تفاسير وهي :

الكشاف للزمخشري ، وتنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ، وأمالي الشريف المرتضى المسماة « غرر الفوائد ودرر القلائد » .

ونكتفي بإلقاء نظرة على الكشاف ، حيث تغني عن تحليل الكتابين الآخرين .

عنوان التفسير « **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** » .

ومؤلفه : **أبو القاسم** ، **محمود بن عمر الخوارزمي** ، **الزمخشري** ، الملقب بجار الله لأنه سافر الى مكة ، وجاور بها زماناً . توفي سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣م

للزمخشري كتب عدة منها هذا التفسير ، وكتاب « المحاجاة » في المسائل النحوية ، « والمفرد والمركب » في العربية ، « والفائق » في غريب الحديث ، و« أساس البلاغة » في اللغة ، و« المفصَّل » في النحو ، و « رؤوس المسائل » في الفقه ، وكثير غيرها .

لقد امتلك الزمخشري آلات التفسير خير امتلاك ، وفسّر القرآن خير ما يكون التفسير ، لولا أنه حشاه بآرائه المعتزلية .

ونكاد نقول : إن خير تفسير في العربية تحدث في بلاغة القرآن ، وإعجازه ، وسر نظمه ، وروعة أدائه هو تفسير الزمخشري . وكم كنا نودّ لو برئ من الهوى ، إذن لكان تفسيره الأول والأخير في عالم التفاسير بالرأي .

ولقد حمل عليه أهل السنة لأمور ارتكبها وخالف فيها وجه الحق . من هذه الأمور :

أنه كان كثيراً ما يَلْوِي معاني المفردات من الحقيقة إلى المجاز إذا كان المعنى الحقيقي يختلف عما يَدِينُ به . ذلك أن المعتزلة ـ مثلاً ـ ينكرون رؤية الله يوم القيامة بالعين الحقيقية المجردة . فإذا وجدوا في القرآن ما يدلُّ على خلاف رأيهم كقوله تعالى : « وُجُوهٌ يومَئِذٍ ناضِرَةٌ ، إلى ربِّها ناظِرَةٌ[1] » أوَّلَها الزمخشري ففسّر النظر الى الله بالرجاء وتوقع النعمة والكرامة ، واستدل على ذلك بأن النظر الى الشيئ في العربية ليس مختصاً بالرؤية المادية ، واستشهد بقول الشاعر جميل بن مَعْمَر العذري :

(١) المطففين ، ٢٢ و ٢٣

وإذا نظـرت إليكَ مـن مَلِـك والبحرُ دونَكَ زِدْتَني نِعَمَـا

وإذا كان المعتزلي يقول بوجوب الصلاح والأصلح على الله ، ورأى الآية : « وكذلكَ جَعَلْنَا لكلِّ نَبيٍّ عَدوّاً منَ المجرمين[1] » تناقض مذهبه أوّل معنى « الجَعْل » الى معنى « التبيين » ففسر « جَعَل » بمعنى « بَيّن » لا بمعنى « خَلَق » ، ثم أورد ما يناسب ذلك من شعر قديم .

وقد يضطر الزمخشري الى تحويل النص القرآني الى ما لا يتفق وما تواتر من القراءات المشهورة من أجل خاطر مذهبه . ونجد ذلك في قوله تعالى « وكلّمَ اللهُ موسى تكليماً[2] » وعلى الرغم من مجيء المصدر مؤكداً للفعل ، رافعاً لاحتمال المجاز ، فإن الزمخشري غيّر حركات الآية فنصب لفظ الجلالة على أنه مفعول ، ورفع موسى على أنه فاعل .

لقد كان سبيل الزمخشري عندما تصدمه آية تخالف مذهبه حمْلَ الآيات المتشابهة على الآيات المحكمة . وهذا مبدأ سليم في أصله اذا استعمل بحق ونزاهة وتجرد ، ولقد اتبعه مفسرو السنة ، وساروا على هديه . ولكن الزمخشري استخدمه ليصل الى تحقيق عقيدته . مثل ذلك ما ذكرنا في آية رؤية الله .فالمحكمة عنده قوله تعالى : « لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ[3] » والمتشابهة قوله تعالى « وُجُوهٌ يومَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إلى رَبِّهَا ناظِرة » ولهذا وجب ـ في زعمه ـ حملُ المتشابهة على المحكمة ، وتفسيرها كتفسير الأولى . والأمثلة في هذا الصدد لا تحصى .

والخلاصة ، إن الزمخشري كان يَلوي معاني المفردات من الحقيقة الى المجاز ، ويتذرع دائماً بالتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره ، ويحمل المتشابه على المحكم ، وينتصر لرأي المعتزلة في أصحاب الكبائر وفي مسألة الحُسْن والقبح العقليّين وينكر السحر ويؤول آياته ،كما ينتصر لمبدأ حرية الإرادة ، وخلق الأفعال ، ويقول بخلق القرآن ، ويستهزئ بأهل السنة ، ويحمل الصفات التي وصف الله بها الكافرين على أهل السنة ، ويتعصب لمذهبه تعصباً كبيراً .

---

(١) الفرقان ، ٣١

(٢) النساء ، ١٦٤

(٣) الأنعام ، ١٠٣

إن هذا كله أدى بالعلماء السنيين إلى أن يطعنوا فيه طعناً شديداً ، وحمل قاضي الاسكندرية أحمد بن محمد بن منصور المنير أن يكتب حاشيةعلى الكشاف سماها « الانتصاف » ناقش فيها الزمخشري في أكثر ما جاء به ، ورد عليه الطعنة بطعنات . وقد طبع الكشاف والانتصاف معاً .

* * *

كذلك ، فان للخوارج تفسيراً بالرأي غير جائز . ولسنا نريد تفصيل مذهبهم ، ولا أسباب نشأتهم ، ولا ألوان فرقهم ، ولا دقائق الفروق بينهم ، فكتب المِلل والنِحّل ، والتاريخ ، والأدب قد امتلأت بذلك .

وحسبنا الآن أن نقول : إن الخوارج فسروا القرآن على حسب نظرتهم التي يكفرون بها علياً وعثمان والحَكَمَيْن ،وأصحاب الجمل ، ويدعون إلى الخروج على السلطان الجائر ، وينسبون مرتكب الكبيرة الى الكفر ، ويرون الخلافة شورى بين المسلمين جميعاً .

والخوارج قوم بداة جفاة ، لم يدركوا الحضارة ، ولم يعيشوا في باطن الأحداث ، ولم يتعلموا في كتاب ، ولم يعتمدوا الا على القرآن والسيف . أما ما عدا ذلك فهم خواء .

لهذا فتفسيرهم للقرآن تفسير ساذج ، يعتمد على فهم المعاني الظاهرة ، ويرفض كل ما وراء ذلك .

فإذا قرأ الخارجي قوله تعالى : ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومَنْ كَفَرَ فإنَّ الله غنيٌ عَن العالمين[1] » فهم أن ترك الحج كفر .

واذا قرأ قوله تعالى : « وَقَرْنَ في بيوتكن[2] » فهم أن عائشة وجب الخروج عليها لأنها خرجت من بيتها .

واذا قرأ : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما[3] » فهم أن القطع واجب ، ولو كانت السرقة درهماً ..

إن الخوارج لا يلتفتون الى الحديث ، والى علوم القرآن المختلفة ويكتفون بالتفسير الظاهري الساذج . لذلك فتفسيرهم برأيهم غير مقبول .

---

(١) آل عمران ، ٩٧ (٢) الأحزاب ، ٣٣
(٣) المائدة ، ٣٨

هذا وان في المكتبة العربية بعض تفاسيرهم أهمها :

١ ـ تفسير هود بن محكم الهواري .

٢ ـ داعي العمل ليوم الأمل لمحمد بن يوسف اطْفَيّش

٣ ـ هميان الزاد إلى دار المعاد لاطفيش .

٤ ـ تيسير التفسير لاطفيش أيضاً[1]

* * *

٣ ـ التفسير الصوفي

ويسميه بعضهم بالتفسير الرمزي .

أصحاب هذا اللون من التفسير في المقام الأول هم الصوفية .

والصوفية ـ في حقيقتها ـ : جماعة صفت نفوسها من حب الحياة الدنيا ، واتصلت بحب الله ، والاتصال به ، وعبادته العبادة الحقة التي لا تجوز لسواه . وكلمة « الصوفية » مختلف في أصل نسبتها ، فمن الدارسين من قال : إنها نسبة الى « الصوف » . والمتصوفة يلبسون الصوف شعاراً على أجسادهم لتتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فلا يرتاحون ، فينهضون للعبادة ، والاتصال بالله . ومنهم من نسبها إلى « الصفاء » حيث أن الصوفي من صفت نفسه من حب متع الحياة المادية ، وذابت جوارحه في الجمال المطلق الذي يتجلى في الله وبديع صنعه . ومنهم من نسبها الى « الصُّفَّة » وهي درجة مادية حجرية ، كان يجلس عليها بعض الفقراء ، والمحبين ، والمخلصين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يعرفون باسم « أهل الصّفَّة » . ومهمتهم أن يتلقوا العلم من الرسول الكريم ، ثم ينشرونه ، ويذيعونه بين الناس . وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه واحداً منهم . ومنهم من نسبهم الى « سوفي » اليونانية ، أو إلى « الصّفّ » ، أو إلى « الصِّفَة » أو الى غير ذلك . وتبقى النسبة غير واردة في اللغة ما عدا كلمة « الصوف » .

كذلك يختلف العلماء في أصل نشأة هذه الجماعة ، وفي المؤثرات فيها ، ففريق يدعي أنهم متأثرون بالفلسفة الهندية ، وفكرة « النيرفانا[2] » الدينية ، وفريق يزعم

---

(١) انظر التفسير والمفسرون ٢/٣١٨ .

(٢) النيرفانا : تعني امتزاج روح الإنسان بروح الله ـ عند اليهود ـ ويقول بهذا المعنى من يقول بوحدة الوجود .

أنهم متأثرون بفكرة أفلاطون اليوناني عن « المُثُل » ، وفريق يرى أن للديانة المسيحية ، وفكرتها في « قبة الوجود » أثراً في نشأة الصوفية ، واتجاهاتها .

ولا يهمنا في هذا المجال أن نستعرض هذه الآراء ، ولا أن نؤكدها أو ننكرها ، فذلك مجاله في بحث آخر ، لا علاقة له ببحثنا عن التفسير الصوفي .

إنما يهمنا أن نقول : إن الصوفية ـ في حقيقتها ـ حب مطلق لا يتناهى في ذات الله ، ويصل الحب عند بعضهم الى درجة يغيب فيها عن ذاته ، ويتصل بمحبوبه ، ويتذوق طعم الجمال الحقيقي . ومثل هذا الاتجاه شرعي محض ، لا يختلف فيه اثنان .

أما الذي أنكره العلماء وحملوا عليه فهو ما يصدر عن فريق من الناس من شطحات غريبة ، تنبئ عن شذوذ شرعي واضح ، وجنوح عن الجادة المسلمة المستقيمة . ونحن لا نسمّي هذا الفريق صوفياً بالمعنى الحقيقي للصوفية ـ كما بينا في مطلع هذا البحث ـ ولكنا نرى ، أو أنه يخيل إلينا ، أن هذا الفريق الذي يقذف بألفاظ ترفضها الشريعة دخيل على الصوفية الحقة ، وهو الذي نرفضه ، ونرفض ما جاء به من قول أو تفسير كما رفضه العلماء ، وأنكروه .

لقد وقف علماء المسلمين والصوفيون أمام فكرتين : الحلول ، والاتحاد، ورأوا فيهما شركاً صريحاً .

فالحلول في حقيقته تجسيد ، بمعنى أن الله يحل ويتجسد في كل شئ . والاتحاد : تلاشي الصوفي عن وجوده الحسي ، ليصل بعده إلى الاتحاد بالذات الإلهية ، أو ما يسمى بوحدة الوجود . وذلك كله شرك بالله .

قلنا : لقد وقف علماء أهل السنة والصوفيون الحقيقيون أمام هاتين الفكرتين ، وحاربوهما أشد محاربة ، ونفوا عن رجالهم كالحلاج ، وابن عربي ، وابن الفارض ، وغيرهم أن يكونوا قد قصدوهما كليهما ، أو إحداهما .

هذا الفريق الجانح فَسَّرَ القرآنَ حسب ما يحلو له من اعتقاد ، فلم يعتمد في تفسيره على الشريعة الغراء ، وانما اعتمد على « « الفيوضات » أو « الإلهامات » التي يُلْهَم بها ، وراح يفسر المعاني تفسيراً بعيداً عن تحملات الألفاظ ، ومدلولاتها .

قال هذا الفريق : إن القرآن والشريعة لا يدلان على المقصود من الألفاظ حسب ظاهرها ، وانما تحتجب وراء هذه الدلالة أفكار أعمق ، لا يدركها الا الذين

يسمون بأرواحهم المجردة عن عالم الألفاظ ، ويعيشون في المعاني الباطنية وراءها .

وحين اعتقدوا بالاتحاد ، كما اعتقد الهنود بفكرة النيرفانا فسروا قوله تعالى : « إنا لله وإنا إليه راجعون[1] » ، و« إليه تُرْجَعُون[2] » و« الى الله المصير[3] » و« إليه تُقلَبون[4] » و« إلى ربك المُنْتَهَى[5] » . معتقدين أنهم سيصلون الى اتحاد حقيقي في الذات العَلِيَّة . كذلك حلَّلوا ترك الصلاة والصوم والحج والزكاة ، وشعائر الدين المختلفة لمن وصل إلى اليقين المطلق ، والمعرفة الحقيقية لله ، مستدلين بقوله تعالى « واعبدْ ربّكَ حتى يأتيَكَ اليقينُ » ، ففسروا « اليقين » بشيء ، وفسره علماء اللغة والشريعة بتفسير مغاير .

وقالوا : ما نَزَلَ من القرآن آية ، إلا ولها ظَهْرٌ وبطن ، ولكل حرف حَدٌّ ، ولكل حَدٍّ مَطْلَع . واعتمدوا هذا القول ، وراحوا يفتشون عن البواطن ، ويَدَعون الظواهر لغيرهم . ولهذا قال الزركشي : كلام الصوفية في القرآن ليس بتفسير ، وإنما هو مَعانٍ يجدونها عند التلاوة .وقال ابن الصلاح : من اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر . وقال النسفي : النصوص على ظواهرها ، والعدول عنها الى معان يدعيها أهل الباطن الحاد .

ومن تفاسير هذه الجماعة :

١ ـ تفسير القرآن العظيم : للتُّسْتَري

٢ ـ حقائق التفسير : للسُّلَمي (وهو غير السُّلَمي الكوفي الاثنا عشري)

٣ ـ عرائس البيان في حقائق القرآن : للشيرازي

٤ ـ التأويلات النجمية : لنجم الدين داية ، وعلاء الدين السمناني

٥ ـ التفسير المنسوب لابن عربي : (وحقيقته للقاشاني) .

* * *

إن علماء الشرع يقبلون التفسير الصوفي ، أو الإشاري ، أو الرمزي اذا توافرت فيه شروط أربعة :

---

(١) البقرة ، ١٥٦
(٢) العنكبوت ، ١٧
(٣) آل عمران ، ٢٨
(٤) العنكبوت ، ٢١
(٥) النجم ، ٤٢

١ ـ ألا يكون التفسير منافياً لظاهر النظم القرآني
٢ ـ أن يكون له شاهد شرعي يؤيده
٣ ـ ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي .
٤ ـ ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر .

* * *

٤ ـ التفسير الفلسفي

ما إنْ أهَلَّ القرن الثاني للهجرة حتى نشطت الحركة العلمية في البلاد الاسلامية ، وترجمت ثقافات الأمم الأخرى الى العربية ، ومن بينها الكتب الفلسفية .

وكان المترجمون ـ في الغالب ـ من الفرس والهنود والصابئة والنصارى . واطلع المسلمون على هذه الترجمات ، وانقسموا في أمرها فريقين :

فريق أنكر ما فيها ، لأنها تتعارض والدين ، ولا تتفق وروح الاسلام ، فقضى شطراً من حياته ينقض ما جاء فيها ، وينفر الناس منها . ومن هذا الفريق الإمام الغزالي ، وفخر الدين الرازي .

وفريق آخر أعجب بها إلى حد كبير ، على الرغم مما فيها من معارضة للدين وتناقض ، وظن أنه يستطيع أن يوفق بين الحكمة والعقيدة ، أو بين الفلسفة والدين ، فحاول جاهداً أن يوجد الحلول ووسائل الاتصال بين الطرفين . ومن رجال هذا الفريق ابن سينا ، والفارابي ، واخوان الصفا .

ولقد كان لكل من الفريقين كتب ، ومؤلفات . والذي يعنينا في هذا الصدد وجهة الفريق الثاني ، والصورة التي فسّر بها القرآن في ضوء فلسفته واتجاهه .

كتب الفارابي « **فصوص الحكم** » وفيه تعرض لتفسير عدد من الآيات لا للقرآن كله . وحاول من جملة ما حاول أن ينقل الفكر الأفْلَطونيّ المبني على القول بِقدمِ العالَمِ إلى القرآن ، واحتج بقوله تعالى : « هو الأول والآخر[١] » فقال : إنه الأول من جهة أنه منه ، ويصدر عنه كل موجود لغيره ، وهو أول من جهة أنه أوّل بالوجود لغاية قربه منه ، أول من جهة أن كل زماني ينسب إليه بكون ، فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشيء ، ووُجِد إذ وجد معه لا فيه . هو أول

---

(١) الحديد ، ٣

لأنه إذا اعتبر كل شيء كان فيه أولاً أثره ، وثانياً قبوله لا بالزمان . هو آخر ، لأن الأشياء إذا لوحظت ونسبت إليه أسبابها ومباديها وقف عنده المنسوب ، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية في كل طلب . فالغاية مثل السعادة في قولك : لم شربت الماء ؟ فتقول : لتغيير المزاج . فيقال : ولم أردت أن يتغير المزاج ؟ فتقول : للصحة . فيقال : لم طلبت الصحة ؟ فتقول : للسعادة والخير . ثم لا يورد عليه سؤال يجب أن يجاب عنه ؛ لأن السعادة والخير يطلب لذاته لا لغيره ... فهو المعشوق الأول ، فلذلك هو آخر كل غاية ، أول في الفكرة آخر في الحصول هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه ، ولا يوجد زمان متأخر عن الحق ..![1] »

إني لأنكر أن يكون هذا الكلام تفسيراً لكتاب الله الذي نزل بلسان عربي مبين ، ولسان الذين يلحدون إليه أعجميّ .

ولا يختلف أسلوب رسائل إخوان الصفا وابن سينا عن أسلوب الفارابي ، وكلاهما تكلم في القرآن كلاماً ظاهره العربية وباطنه العجمة والظلام .

وأظن أنا نستطيع أن نعدَّ هذا اللون من التفسير الفلسفيّ الذي هو أقرب إلى الألغاز منه إلى الكلام العربيّ الواضح لوناً من ألوان التفسير بالرأي المذموم ؛ لأنه أبعدنا عن فهم كلام الله وتدبّر آياته .

* * *

٥ ــ التفسير الفقهي :

نزل القرآن العظيم كتاب هداية للبشر عامة ، وكتاب تشريع وحياة . ففيه أحكام فقهية تتصل بمصالح العباد في دنياهم وأخراهم . وكان المسلمون الأوائل يفهمون ما تحمله الآيات من أحكام فقهية ببساطة ويسر ، فاذا ما أشكل عليهم أمر سألوا الرسول الكريم أو الصحابة ..

ولما امتد الزمن بالمسلمين ، وانبسطت بهم الأرض ، وجدوا مشكلات جديدة ، فهرعوا الى القرآن يستنجدون به ، وإلى الحديث يسألونه، فإن لم يجدوا لها حلاً اجتهدوا وأجمعوا أمرهم ، وان تعذرعليهم ذلك لجأوا إلى قياس مسألة على مسألة ، وحكم على حكم .

---

(١) فصوص الحكم ، ص ١٧٤

وطبيعي أن يحدث خلاف في اجتهادهم ، أو في قياسهم ، ولهذا وجدت المذاهب الفقهية في شتى الأمصار ، وكان لكل مذهب رجال وأعلام وأنصار.

وبقي القرآن رأس المصادر التي يلجؤون اليها ، ثم الحديث . والذي جَد في الموضوع أن الخَلَفَ الذين بَعُدت الشقة بينهم وبين السلف سَرَتْ فيهم روح التقليد ، ومع التقليد جاء التعصب للمذهب .

وكان من حصيلة هذا التعصب أن ذهبوا يلتمسون في القرآن الدلائل المختلفة لتأييد آرائهم . وقد يفسر المفسر الآية حسب هواه انتصاراً لمذهبه ورأيه ، وكسراً لشوكة خصمه ، حتى لقد بلغ الأمر بعبدالله الكرخي المتوفي سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م وهو أحد المتعصبين لمذهب أبي حنيفة ، أن يقول : كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤوَّل أو منسوخ .

ولكن هذا الغلوَّ عند فريق قابله تسامح عند فريق آخر وقف موقف الإنصاف من الأئمة ، فنظر في أقوالهم نِظرة العالم الرصين الذي يرى الحق فيتبعه حيثما كان .

ولو جئنا نستعرض ما في المكتبة العربية من تفاسير قامت على أساس فقهي ألفينا لأهل السنة ، وللظاهرية ، وللخوارج ، وللشيعة تفاسير كثيرة .

فمن **تفاسير المذهب الحنفي** : تفسير الجصّاص المسمَّى « **أحكام القرآن** » وتفسير أحمد بن سعيد المدعو بملاجيون المسمَّى « **التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية** » .

ومن **تفاسير الشافعية** : تفسير أبي الحسن الطبري المعروف بالكياهراسي . وقد سماه « **أحكام القرآن** » ؛ كما نجد تفسير « **القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز** » لشهاب الدين ، أبي العباس أحمد بن يوسف الحلبي ، وتفسير « **أحكام الكتاب المبين** » لعلي الشنفكي ، وكتاب « **الإكليل في استنباط التنزيل** » للسيوطي .

ومن **تفاسير المالكية** : نجد كتاب « **أحكام القرآن** » لأبي بكر بن العربي ؛ و « **الجامع لأحكام القرآن** » للقرطبي .

ومن **تفاسير الزيدية** : نجد كتاب « **شرح الخمسمائة آية** » لحسين النجري ؛ وكتاب « **الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة** » لشمس الدين بن يوسف ؛ « **منتهى المرام ، شرح آيات الأحكام** » لمحمد بن الحسين .

ومن تفاسير الامامية الاثني عشرية . نجد « كنز الفرقان في فقه القرآن » لمقداد السيوري[1] .

* * *

٦ ـ التفسير العلمي :

يقصد بالتفسير العلمي ، التفسير الذي يتحدث عن الاصطلاحات العلمية في القرآن ، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها .

ويبدو ان الإمام الغزاليّ في « إحيائه » كان أول من تحدث في هذا الموضوع ، وقد نقل عن بعض العلماء أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم ، اذ كل كلمة عِلْمٌ ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف ؛ إذ لكلِّ كلمة ظاهرٌ وباطن ، وحَدٌّ ومَطْلَع[2] . ثم يقول معقباً : وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عزّ وجَلّ وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته ، وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفي القرآن إشارة الى مجامعها .

ونتصفح كتاب الغزالي الثاني « **جواهر القرآن** » فنجده يعيد ما سبق ذكره في الإحياء . **وقد قسم علوم القرآن قسمين** :

الأول : **علم الصَدَف والقِشْر** ، وأدخل فيه اللغة ، والنحو ، والقراءات ، ومخارج الحروف ، والتفسير الظاهر .

والثاني : **علم اللباب** ، وأدخل فيه قصص الأولين ، والكلام ، والفقه ، وأصول الفقه ، والعلم بالله واليوم الآخر ، وعلم الصراط المستقيم ، وطريق السلوك .

ثم عقد فصلاً لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن ، فذكر علوم الطب ، والنجوم ، وهيئة العالم ، وبدن الحيوان ، وتشريحه ، والسحر ، والطِّلَّسْمات وغيرها .

ثم قال : « ثم هذه العلوم ما عَدَدْناها وما لم نعددْها ، ليست أوائلها خارجة من القرآن ؛ فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحِل له ، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته

---

(١) انظر التفسير والمفسرون ١٠٣/٣ ؛ وكشف الظنون في بحث التفسير .
(٢) الاحياء ١٣٥/٣

لنفِدَ البحرُ قبل أن تنفَدَ . فمن أفعال الله وهو بحر الأفعال ـ مثلاً ـ الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم : « وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين[1] » وهذا الفعل لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله ، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ، ومعرفة الشفاء وأسبابه . ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلها بحسبان .. ويظل الغزالي يعدّد أنواع العلوم ويأتي بالآيات القرآنية المشيرة إليها حتى يصل إلى قوله : « فتفكر في القرآن والتمسْ غرائبه لتصادف فيه مجامع علوم الأولين والآخرين[2] » .

ثم جاء السيوطي ونحا نحوه في كتابه « الإتقان » وكتابِه « الإكليل في استنباط التنزيل » .

وكان لأبي الفضل المُرْسِيّ ـ حسب ما ذكر السيوطي ـ قَدَمٌ في هذا السبيل ، وهو القائل : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله . وراح يعدّد العلوم التي اشتمل عليها فلم يترك علماً من علوم العربية والطب والهندسة والجبر والفيزياء والفلك والجدل والتنجيم وغيرها الا وَبَيَّنَ أن القرآن قد أشار إليه . وكانت حجته في ذلك آيات تشير إلى تلك العلوم .

ووقف علماء آخرون كالشاطبي الأندلسي موقفاً معارضاً لهذا اللون من تفسير الآيات[3] ، وقال : إن هذه العلوم عرف العرب بعضها وجاء القرآن فذكرها لهم ، لا على أنها علوم مبتدعة لا سابق لها ، بل على أنها شواهد ودلائل على خَلْق الله وبديع صنعه . وأضاف قائلاً : إن السَّلَفَ الصالح من الصحابة والتابعين ومن يَليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودِعَ فيه ، ولم يبلغْنا أنه تكلم أحدٌ منهم في شيء من هذا المدَّعَى سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التأليف ، وأحكام الآخرة ، وما يلي ذلك . ولو كان لهم خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن فدلَّ على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يُقْصَدْ فيه تقريرٌ لشيء مما زعموا .

ثم أخذ الشاطبي في ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمي من الأدلة فقال :

---

(١) الشعراء ، ٨٠

(٢) جواهر القرآن ص ٣٢

(٣) انظر الموافقات ٢/٦٩

وربما استدلّوا على دعواهم بقوله تعالى : « ونزّلنا عليكَ الكتابَ تبيّاناً لكلّ شيء[1] » ، وقوله : « ما فرّطنا في الكتابِ مِنْ شيءٍ[2] » ونحو ذلك ، وبفواتح السور ـ وهي ممّا لم يُعْهَد عند العرب ـ وبما نقل عن الناس فيها ...

وتابع الشاطبي قوله مُفنّداً هذه الأدلة :

فأما الآيات : فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبّد ، أو المراد بالكتاب في قوله تعالى : « ما فرّطنا في الكتابِ من شيء » : اللوحُ المحفوظ ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية .

وأما فواتح السور : فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً ، كعدد الجُمَّل الذي تَعرّفوه من أهل الكتاب ، حسبما ذكره أصحاب السِّيَر ، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلَها إلا الله تعالى ، وغير ذلك . وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدَّعِهِ أحدٌ ممن تقدم ، فلا دليل فيها على ما ادّعوا ... إلى أن يقول :

« فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه الى العرب خاصة ، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقوّلَ على الله ورسوله فيه ، والله أعلم ، وبه التوفيق[3] » .

ومرت عصور ، وجاء العصر الحديث واذا بكثير من المفسرين ينزعون هذا المنزع ، ويلجون على تفسير القرآن تفسيراً علمياً اعتقاداًمنهم أنهم بعملهم يثبتون إعجازه وخلوده .

من هؤلاء المفسرين الدكتور محمد الاسكندراني الذي ألف كتاباً عنوانه **« كشف الأسرار النورانية القرآنية ، فيما يتعلق بالأجرام السماوية ، والأرضية ، والحيوانات ، والنباتات والجواهر المعدنية »** .

كذلك فعل عبدالله باشا فكري في رسالة ألفها ، كان موضوعها : **مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية** .

---

(١) النحل ، ٦٩ (٢) الأنعام ، ٣٨

(٣) الموافقات ٢/ ٨١ ؛ التفسير والمفسرون ٣/ ١٥٥

وللشيخ الحلبي عبد الرحمن الكواكبي كتاب « **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد** » وفيه اتجاه إلى تفسير الآيات تفسيراً علمياً على نحو ما صنع الغزالي والمرسي والسيوطي .

وخاض في هذه المعمعة مصطفى صادق الرافعي في كتابه « **إعجاز القرآن** » وعقد فصلاً عنوانه « القرآن والعلوم » وكان فيه من أنصار هذا الاتجاه .

وللدكتور عبد العزيز اسماعيل مشاركة في هذا المجال وكتاب عنوانه « **الإسلام والطب الحديث** » وكان من رأيه أن القرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك ، ولكنه يشير أحياناً الى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم . ويقرر أن كثيراً من آيات القرآن لا يَفْهَمُ معناها الحقيقيّ الا مَنْ دَرَسَ العلومَ الحديثة[1] ، ويؤكد أن العلم الحديث كَشَفَ عن معنى بعض الآيات ، وسيكشف الباقي منها كلما تقدمت العلوم ، ثم يأتي وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس الى الدين .

وختاماً ، فإن أعظم علماء العصر الحديث تشيُّعاً للنزعة التفسيرية العلمية هو المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري حيث فسّر القرآن في خمسة وعشرين جزءاً كبيراً وسماه « **الجواهر** »[2]

* * *

٧ ـ التفسير الاجتماعي

اتسعت في العصر الحديث المعارف التاريخية ، والدينية ، والعلمية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والإنسانية اتساعاً كبيراً ، وانطلقت الى آفاق بعيدة المدى في كل الاتجاهات ، ونشأ عن هذا الاتساع سؤال صار يتردد في كثير من المناسبات . وهو هل الإسلام والحضارة الحديثة ضدان لا يجتمعان ، أو هما متوافقان ؟

وأجاب كثيرون عن السؤال ، وكان من الأجوبة السطحيٌّ الساذجُ المعتمدُ على منطق الحماسة والعاطفة ، والمتعمق الهادئ الذي يحلِّلُ الحضارة ، ويحلل

(١) الإسلام والطب الحديث ص ١ ـ ٣

(٢) التفسير والمفسرون ٣/ ١٧٠

الإنسان ، ويحلل الإسلام ، ويقرن بينها مستعيناً بالعلوم الثابتة ، والعقل الرصين ، وحقائق الدين الثابتة .

وكان من رجال الجواب الثاني عدد من مسلمي الهنود ، على رأسهم السيد أمير علي في كتابه « روح الإسلام » الذي نشره بالإنكليزية ، ثم ترجم إلى العربية . وأبو الأعلى المَوْدُودِي الذي أصدر سلسلة من الكتب حول المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية في ضوء الإسلام ، والسيد علي أحمد خان بهادر من عليكره في الهند . الا أن كتابات بَهَادُرْ ظلت في الأُورْدِيَّة ـ لغة الهند ـ بينما نقلت لغة المَوْدُودِي وأمير علي إلى العربية .

خلاصة ما ذهبوا إليه : أنه ليس بين الحياة العلمية والعملية المعاصرة والإسلام تناقض وتضاد ، وأن تعاليم الإسلام ذاتها لو فهمت الفهم الصحيح ، وفسرت التفسير العلمي الحق لظهرت أنها تؤيد الحضارة والعقل والحياة المعاصرة ، بل لَتُشَجِّعُ عليها ، وتدفع إليها . وأنَّ كلَّ فكرة مغايرة لهذا القول يقولها إنسان عن الاسلام خاطئة دفع إليها الفهم الخاطىء لروح الإسلام والقرآن .

وترى هذه الجماعة أن تحريف الإسلام ، وتطبيقه التطبيق السيىء أو الخاطئ عند فريق من المسلمين هو الذي أوجد مثل هذا الإشكال . وأثار مثل هذا الاستفهام ؛ لأن الإسلام ليس عَدُوًّا للتقدم العلميّ ، والعقليّ ، والإنسانيّ ، والحضاريّ ، والاّ تعارض مع نصوص القرآن وأحاديث المعلم الأول محمد صلى الله عليه وسلم[1] .

وازدهرت في أوائل هذا القرن وخلاله حركة تجديدية مماثلة في مصر في المقام الأول ، والبلاد العربية الأخرى في المقام الثاني .

ونحب أن نشير إلى أن حركة التجديد في مصر مستقلة كل الاستقلال عن التأثر بالحركة التجديدية الهندية ، وبما أوحت به .

كذلك استقلت المدرسة المصرية عن التيارات الفكرية الغربية واعتمدت في المقام الأول على القرآن ذاته ، وآراء السَّلَف ، وتأملاتهم الدينية الخاصة .

ولقد ألحت هذه الحركة على إبطال المنكرات ، لا لأن هذه المنكرات معادية للحضارة ، بل لأنها تتعارض والقرآن والسنة الموثوق بهما . واحتقرت التقليد

---

(١) انظر مؤلفات أبي الأعلى المودودي ؛ وروح الإسلام (النسخة الإنكليزية) ص ١٦٠ ، وجولدتسيهر ص ٢٣٩

الطائش المجرد عن المبدأ للتقاليد الأوروبية ، ودعت إلى الاحتفاظ بالطابع المستقل الخاص للرجل الشرقي المسلم .

على هذه الأسس فسرت المدرسة المصرية القرآن :

كان من أعلام هذه المدرسة الشيخ محمد عبده ، وتلميذاه محمد رشيد رضا ، ومحمد مصطفى المراغي .

وكانت دروس محمد عبده في الأزهر تفسيراً للقرآن جديداً ، لم يألفه أصحاب العقول المحنَّطة ، فثاروا عليه ، وكتبوا ضده ، واتهموه في دينه ، وراجعوا السلطات في أمره ، وعملوا المستحيل لإيذائه ، ولكن تعاليمه وآراءه وتفسيره انتشرت وذاعت ، وانتصر اتجاهه ، وأخفق اتجاه خصومه .

ولقد كانت مجلة « المنار » المنبر الذي كان يُطِلُّ منه محمد عبده على العالَم الاسلامي ، وكان رئيس تحرير المجلة محمد رشيد رضا الرجل السوري الأصل الذي هاجر الى مصر ، وأصدر فيها « المنار » وهو الذي كان يدعو الشيخ محمد عبده فيها باسم « مولانا الأستاذ الأكبر » ، أو « إمام المسلمين في كل بادية ومصر » ، أو « حكيم الإسلام في هذا العصر » ، أو « أستاذ الإسلام الأكبر » .

ويبدو أن محاضرات الشيخ محمد عبده كان يحضرها محمد رشيد رضا ، ثم يصوغها بقالب أدبي ، ويربط بعضها ببعض ، ويعرضها على شيخه الأكبر ، ثم ينشرها في مجلته .

شعار اتجاه المدرسة المصرية يتجلَّى في هذا النص : « إنه ليس في ديننا شيء ينافي المدنية الحاضرة المتفق على نفعها عند الأمم المرتقية إلا بعض مسائل الربا وانني مستعد للتوفيق بين الإسلام الحقيقي وكل ما يحتاج اليه العثمانيون لترقية دولتهم مما جَرَّبَهُ الإفرنج وغير ذلك ، ولكن بشرط ألا ألتزمَ مذهباً من المذاهب بل القرآن والسنة الصحيحة ، وأرجو أن يكون ذلك مقبولاً عند جميع العناصر العثمانية الا المقلدين المتعصبين لمذاهبهم من المسلمين[1] » .

لقد رفضت المدرسة المصرية الاعتماد على مذهب واحد من مذاهب أهل السنة ، وأطلقت لنفسها العنان في أن تستفيد من كل المذاهب الأساسية وغير الأساسية ، وبصورة أوضح اتجهت الى القرآن ذاته ، والسنة الصحيحة والعقل العلمي . وضربت

---

(١) المنار ١٢/٢٣٩

عُرْضَ الحائط بالقول المأثور « اختلاف أمتي رحمة » بل حملت عليه حملة شديدة مبيّنة عدم صحة روايته وأن في القرآن آيات عدة تناقضه . منها : « وإنَّ هذه أمتُكم امةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتَّقون فَتقطَّعوا أمرهُم بينهم زُبُراًكلُ حزبٍ بما لَدَيْهم فَرِحُون[1] ».

ولا تسود الوَحْدة والقدرة على الحياة إلا بالرجوع إلى القرآن المفهوم على وجه يطابق روحه الحقيقية ، والحديث الصحيح . ولا يمكن استعادة شباب الإسلام إلا حين تراعي عقولُ معتقديها مَطالبَ عصرها ، وتتفق على وضع مقاييس وقواعد مرنة غير جامدة . فليس الإسلام رفاتاً محنطاً لا حياة فيه ، وإنما هو مؤسَّسَةٌ حية تاريخية فعّالة ، لا يجوز أن تتجمد حياتُها في حِكمةٍ متقادِمة لبعض الثقات الغابرين منذ عهد بعيد .

العصر الحديث يتطلب نظماً جديدة ، فهو يتطلب التخلص من النظم والترتيبات التي بَثَّتْها الأجيال السابقة . وساق محمد رشيد رضا مثالاً على ذلك مثلاً موضوع المخترعات الحديثة ، وامكانية الاستفادة منها في القضايا الشرعية . ثم ضرب مثالاً بـ « آلة التسجيل » . فالقاضي يوقع عقوبة الحبس للتحقيق على متهمين اثنين . وفي الحبس يتبادل السجينان الحديث عن الجرم الذى اقترفاه ، وكان سبب حبسهما ، كما يتحدثان عن الطريقة والأسلوب الذي ينكران به اقتراف ذلك الجرم أمام القاضي . ويثبت القاضي « آلة التسجيل » في مكان مناسب ، فتنقل اعترافاتهما الصادقة ، وخططهما التي اتفقا عليها للانكار أمام القاضي . أفلا يقدم ذلك أساساً جديداً لبداهة الوقائع أمام المحكمة ؟ وهل يجوز الاقتصار تُجاه هذا الدليل الجديد على قواعد البينة في نظام المحاكمة القديم ؟ بل ألا تقدم هذه الوسيلة ضماناً للتثبيت في تقرير مضمون الجريمة أكثر مما اقتصر القانون القديم عليه وحده دليلاً ، وهو شهادة اثنين لا ترتفع بهما في كل الأحوال على مستوى الشك[2] ؟

كذلك وقفت المدرسة المصرية محاربة فكرتين :

الأولى : فكرة التقليد التي تنص على أن الأمة الاسلامية لا يجوز لها أن تتعبد وتتعامل بغير المذاهب السنية الأربعة المعروفة ، ولا مانع أن يكون المسلم العاديّ مقلداً فيها .

---

(١) المؤمنون ، ٥٢ــ٥٣ والفكرة مأخوذة من المنار ٦/٧٦٩

(٢) المنار ٤/٨٦٦

الثانية : إغلاق باب الاجتهاد ، حيث قرر القدماء أن أبواب الاجتهاد في الدين أغلقت،وأنه ما ترك الأول للآخر شيئاً .

وتندّد المدرسة المصرية بالرأيين معا ، وترى أن الضرر مزدوج في التقليد الإجباري ، وفي رفض تجويز الاجتهاد للأجيال الحديثة ، وأن هذين المبدأين أوقعا العالم الإسلامي في الجمود،ودفعاه إلى التقهقر .

لقد فتحت المدرسة المصرية أبواب الاجتهاد على مصاريعها للمسائل التي تستدعيها الحياة المتجددة[1] . والتي لا يرجع القول الأول والأخير في حسمها وتنظيمها إلى الحروف الهجائية القديمة ، بل إلى رعاية الصالح العام للعالَم الإسلامي « فليست الشريعة محصورة في جلود كتب الحنفية[2] » .

وحين بسط الشيخ الإمام تفسيره وعرضه تلميذه في « المنار » كانا يزاوجان بين النص الديني والتمدن القائم على الخلق الرفيع وبَعْثِ الإنسان الكامل . فلقد فَسّرا قوله تعالى « واسْتَعِينوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ ، وإنّهَا لَكَبيرةٌ إلاّ على الخَاشِعين[3] » : أن المراد صلاة يتطلع فيها المصلون إلى الله ، وَيَحْضُرون بقلوبهم عنده ، ويستغرقون بكليتهم في أسرار خشيته وعظمته وسلطانه . هذه هي الصلاة التي يقول الله فيها : « وإنّها لكبيرة إلاّ على الخاشِعين » ، « وأقِمِ الصَّلاَةَ إنّ الصَّلاَةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ[4] ». وليس المراد هو تلك الصور المعروفة : القيام ، والركوع ، والسجود ، وليس هو على الأخص تحريك الشفتين بالقراءة ، الذي يستطيع فعله كلّ طفل مميز إذا عُوِّد ذلك ، وكم رأينا من أناس اعتادوا فعل ذلك ولكنهم يقترفون الخطايا والمنكرات على الدوام . وأي قيمة لهذه الحركات الجسمانية اليسيرة الأداء ، حتى يقول فيها الله سبحانه : «وإنّهَا لَكبيرة إلاّ على الخاشعين » ؟ . هذه الحركات ليست إلا رموزاً وأماراتٍ الخ ...

ولا يستشعر أصحاب هذه المدرسة خوفاً على الاسلام أمام العلم الحديث . فيقارنونه بالنمو التاريخي والإجتماعي ، ويخرجون بأن القرآن لم يخرج عن قانون هذا النموحين دعا إلى النظر في « سنة الأولين » ، كما يقارنونه بعلم الطبيعيات فيوفقون بينهما ومما يقولون في هذا الصدد : «إن من مزايا الإسلام التي امتاز بها على سائر

---

(١) المنار ٤١/٧ (٢) المنار ٥٠٨/٦

(٣) البقرة ، ٤٥ (٤) العنكبوت ، ٤٥

الأديان ، أن يحث كتابه المقدس على العناية بعلوم الكون ودراستها[1] » . وتبرز للدلالة على هذه الفكرة الآية « إنَّ في خَلْقِ السّمَوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفُلْكِ التي تَجْري في البحر بما يَنْفَعُ الناسَ ، وما أنزلَ اللهُ من السماءِ من ماءٍ فأحْيَا به الأرضَ بعدَ موتها ، وبَثَّ فيها من كلِّ دابَّة ، وتصريفِ الرياحِ المُسَخَّرِ بينَ السماءِ والأرض لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلون[2] » . هذه الآية تقدم فرصة خاصة لتأكيد العناية بدراسة الطبيعيات والعلوم الكونية . وقد يزعم بعض هؤلاء ، الذين يعادون علم الكون باسم الدين ، أن النظر في ظواهر هذه الأشياء كاف للاستدلال بها ، ومعرفة صانعها وحكمته ورحمته . فَمَثَلُهم كَمَنْ يكتفي من الكتاب برؤية جلده الظاهر وشكله ، من غير معرفة ما أودعه من العلم والحكمة . نعم إن هذا الكون هو كتاب الإبداع الآلهيّ المفصِح عن وجود الله وكماله ، وجلاله وجماله وإلى هذا الكتاب الإشارة بقوله تعالى : « قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِداداً لكلماتِ ربي لَنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تنفَدَ كَلِماتُ ربي ولو جِئْنا بِمِثْله مَدَداً[3] » وبقوله : « ولو أنَّ ما في الأرضِ من شَجَرة أقلامٌ والبَحْرُ يَمدهُّ من بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبحُرٍ ما نَفِدتْ كَلِمَاتُ الله[4] » . فكلمات الله هي آحاد المخلوقات والمبدعات الآلهية ؛ فإنّها تنطق بلسان أفصح من لسان المقال ، لكن لا يفهمه الذين هم عن السمع معزولون ، وللعلم معادون .

ومن غرائب ما وجدنا في تفسير الإمام نظريات حديثة عن الأمراض وعلاجها ، فلقد فسر قولَه تعالى « الذين يأكلونَ الرِّبا لا يقومُونَ إلا كما يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ من المَسِّ[5] » لا كما فسرها القدماء بالجن والشياطين وأنهم سبب الأمراض بل فسرها بالميكروبات المسبّبة للأمراض[6] ، مع أن القرآن صرّح بوجود الجن والشياطين .

كذلك رأيه في مسألة تعدُّد الزوجات في الآية « وانْ خِفتم ألا تُقْسِطُوا في اليتامى فانْكِحُوا ما طاب لكم من النساء مَثْنى وثُلاثَ ورُبَاعَ فإنْ خِفْتُم ألاَّ تَعْدِلوا فواحدةً أوما ملكت أيمانكم ذلك أدْنى ألا تَعُولوا[7] » . قال في ذلك : الإذن بتعدد الزوجات هنا مقيَّد بأن يكون الزوج ذا خُلُق ثابت ، وأن يحسَّ أيضاً في نفسه بالقدرة من

---

(١) المنار ، ٥/٩ (٢) البقرة ، ١٦٤
(٣) الكهف ، ١٠٩ (٤) لقمان ، ٢٧ (٥) البقرة ، ٢٧٥
(٦) المنار ، ٧٣٨/٨ (٧) النساء ، ٣

الوجهة الاقتصادية على العدل بين الضرائر ، وإبعاد ما ينشأ بينهن في ذلك من تنافر وتنازع ، وبما أن إباحة تعدد الزوجات مضيَّقة قد اشترط فيها ما يصعب تحققه فكأنه نهي عن كثرة الأزواج . ويذهب محمد عبده بعيداً فيصرح بقوله : « أما والأوامر على ما نرى ونسمع فلا سبيل إلى تربية الأمة مع فُشُوّ تعدد الزوجات فيها . فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة ، خصوصاً الحنفية منهم ، الذين بيدهم الأمر ، وعلى مذهبهم الحكم ، فلا ينكرون أن الدين أُنزِل لمصلحة الناس وخيرهم ، وأن من أصوله منعَ الضرر والضِّرار . فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله ، فلا شك في وجوب تغيّر الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة ، يعني على قاعدة « دَرْءُ المفاسِد مقدَّم على جَلْب المصَالِح » ، ثم يختم المفتي قوله : « وبهذا يُعلَم أن تعدد الزوجات محرَّم قطعاً عند الخوف من عدم العدل[1] » .

الخلاصة ، إن التفسير العصريّ لم يعتمد على ما قاله الفقهاء ، ورجال المذاهب الدينية والفكرية في الماضي ، ولم يتقيدوا بحرفية أسباب النزول ، ولا بالمعطيات البلاغية والنحوية والفنية ، ولا بالأحاديث الضعيفة ، وغير الموثوقة ، ولا بما جاء به المتصوفة ورجال الأحزاب السياسية الدينية ، ولا بالقواعد الجامدة التي درج عليها كثير من العلماء والمفكرين ورجال الدين ، وإنما اعتمدوا على العقل أولاً ـ كما اعتمد المعتزلة ـ وعلى النظريات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية في الشرق والغرب ، ونتائج العلوم الثابتة ، ومقتضيات العصر ومتطلباته ، وكذلك اعتمدوا على فكرة التوفيق بين جوهر الشريعة ومصلحة الانسان العليا . ولا شك أنهم أخطأوا في بعض الاجتهادات ، وأصابوا في بعضها الآخر .

* * *

٨ ـ التفسير الأدبيّ

هنالك تفسير جديد للقرآن الكريم ، يُعَدُّ أحدَثَ تفسير صدر في العالم العربي ، ويدعى «**في ظلال القرآن**» لمؤلفه المرحوم « **سيد قطب** » . وإلى جانب هذا التفسير كتابان صغيران أولهما يُدْعى « **التصوير الفني في القرآن** » وثانيهما « **مَشاهِدُ**

---

(١) المنار ، ٢/٥٧٢

القيامة في القرآن » للمؤلف سيّد قُطب نفسه . والتفسير « الظلال » و « التصوير » و « المشاهد » تنبع من روح واحدة ، وتتجه وجهة واحدة ، وهي محاولة الوصول إلى فهم « الصورة الفنية » في القرآن .

ولو قرأنا مقدمة « **التصوير الفني** » أدركنا السبب الذي أغرى المؤلف بسلوك هذه الطريقة من التفسير . ومن جملة ما قال فيها : إنه قرأ القرآن وهو طفل صغير ، لا ترقى مداركه إلى آفاق معانيه ، ولا يحيط فهمه بجليل أغراضه ، ولكنه كان يجد في نفسه منه شيئاً .

وكان خياله الساذَج الصغير ، يجسّم له بعض الصور من خلال تعبير القرآن . وإنها لَصُور ساذجة ، ولكنها كانت تشوِّق نفسَه ، وتُلِذُّ حِسّه ، فيظل حِقبة غير قصيرة يتملاّها ، وهو بها فرِح ، ولها نشيط .

وضرب سيّد قطب على الصُّور الساذجة أمثلة عدة كانت ترتسم في خياله كلما قرأ شيئاً من القرآن . ومن تلك الصور « وَمِنَ الناسِ مَن يَعبُدُ اللهَ على حَرْفٍ ، فإنْ أصابه خيرٌ اطمأنَّ به ، وإنْ أصابته فتنةٌ انقلبَ على وجهِه ، خَسِرَ الدنيا والآخرة[1] » قال : « كان يشخَص في مخيلتي رجل قائم على حافةَ مكان مرتفع : مصطبة ـ فقد كنت في القرية ـ أو قمة تل ضيقة ـ فقد رأيت التلَّ المجاور للوادي ـ وهو قائم يصلي ، ولكنه لا يملك موقفه ، فهو يترجح في كل حركة ، ويهم بالسقوط ، وأنا بإزائه ، أتتبع حركاته ، في لذة وشَغَفٍ عجيبَيْن[2] » .

« تلك أيام . . . ولقد مضت بذكرياتها الحلوة ، وبخيالاتها الساذجة . ثم تلتها أيام ، ودخلت المعاهد العلمية ، فقرأتُ تفسير القرآن في كتب التفسير ، وسمعت تفسيره من الأساتذة . ولكنني لم أجد فيما أقرأأو أسمع ذلك القرآن اللذيذ الجميل ، الذي كنت أجده في الطفولة والصبا » .

« وأسفاه . لقدطُمست كل معالم الجمال فيه ، وخلا من اللذة والتشويق . تُرى هل هما قرآنان ؟ قرآن الطفولة العذب الميسَّر المشوّق ، وقرآن الشباب العَسِر المعقَّد الممزَّق ؟ أم تلك جناية الطريقة المتبعة في التفسير » ؟

« وعدت إلى القرآن أقرؤه . في المصحف لا في كتب التفسير . وَعُدْتُ أجد قرآنيَ

---

(١) سورة الحج ، ١١

(٢) التصوير الفني ص ٧ (الطبعة الثانية)

الجميل الحبيب ، وأجد صوري المشوّقة اللذيذة . إنها ليست في سذاجتها التي كانت هناك . لقد تغيّر فهمي لها ، فعدت الآن أجد مراميها وأغراضها ، وأعرف أنها مَثَلٌ يُضرَب ، لا حادث يقع . ولكن سحرها ما يزال . وجاذبيتها ما تزال[1] » .

« ... لقد بدأتُ البحث ، ومرجعي الأول فيه هو المصحف ، لأجمع الصور الفنية في القرآن ، واستعرضها ، وأبين طريقة التصوير فيها ، والتناسق الفني في إخراجها ... فبرزت لي حقيقة واحدة هي : أن الصور في القرآن ليست جزءاً منه يختلف عن سائره . إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل . القاعدة الأساسية المتَّبعة في جميع الأغراض ـ فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال ـ فليس البحث إذن عن صور تُجَمّع وترتَّب ، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز ... وعلى هذا الأساس قام البحث ، وكل ما فيه إنما هو عَرْض لهذه القاعدة ، وتشريح لظواهرها ، وكشف عن هذه الخاصيّة في التعبير القـرآني » . وحـين انتهيت من التحضير للبحث ، وجدتُني أشهد في نفسي مولد القرآن من جديد . لقد وجدته كما لم أعهده من قبل أبداً . لقد كان القرآن جميلاً في نفسي . نعم . ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق . أما اليوم فهو عندي جملة موحدة ، تقوم على قاعدة خاصة ، قاعدة فيها من التناسق العجيب ، ما لم أكن أحلم من قبل به ، وما لا أظن أحداً تصوَّره[2]

والحق يقال : إن التفسير الأول الذي عُني بإبراز الصُّوَر الجمالية في القرآن هو « في ظلال القرآن » على الرغم من وجود كتب أخرى حاولت استنباط هذه الصور وكشفها ، وإبرازها إلى الوجود كتفسير **الكشاف للزمخشري** ، **ودلائل الإعجاز** لعبد القاهر الجرجاني ، ومُعظم كتب البلاغة ، ولكنّ واحداً من تلك المؤلفات لم يبلغ ما بلغه سيد قطب في هذا المضمار .

وعلى المنوال ذاته حاول المرحوم أمين الخولي أن يفسر القرآن ، والسيدة الدكتورة عائشة عبد الرحمن المعروفة باسم « بنت الشاطىء » في كتابها « **التفسير البياني للقرآن الكريم** » والأستاذ الكريم محمد المبارك في كتابه « **دراسة أدبية لنصوص من القرآن** » أصدرها في سلسلة مؤلفاته المعنونة « من منهل الأدب الخالد » . والفرق بين المرحوم سيد قطب وبين غيره ممن ذكرنا أنه فسّر القرآن كله على طريقته ، وفسروا هم سوراً عدة منه .

(١) التصوير الفني ص ٨
(٢) المصدر السابق ص ١٠

الفصل الثالث

تفسير القرآن بغير لغته
أو
ترجمة القرآن

الترجمة تطلق على معنيين :

١ ـ الترجمة الحرفية :

وهي نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من لغة أخرى ، بحيث يكون النظم موافقاً للنظم ، والترتيب موافقاً للترتيب .

٢ ـ الترجمة المعنوية

وتسمى بالترجمة « التفسيرية » . وهي بيان معنى الكلام بلغة أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل ، أو مراعاة لنظمه .

والذين على علم باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية ـ بالمعنى المذكور ـ لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل ، والإحاطة بجميع معناه . فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى في ترتيب أجزاء الجملة . فالجملة الفعلية في اللغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل في الاستفهام وغيره ، والمضاف مقدَّم على المضاف إليه . والموصوف على الصفة ـ إلا إذا أريد الإضافة على وجه التشبيه مثلاً كلجين الماء ، أو كان الكلام من إضافة الصفة إلى معمولها كعظيم الأمل ـ وليس الشأن كذلك في سائر اللغات .

والتعبير العربي يحمل في طياته من أسرار اللغة ما لا يمكن أن يحل محله تعبير آخر بلغة أخرى ، فإن الألفاظ في الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلاً عن التراكيب[1] .

---

(١) مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن ص ١٥٨

ونتساءل : أمِنَ الممكن أن يُترجم القرآن إلى لغة أخرى ترجمة حرفية ؟

وللجواب عن ذلك نقول : إن القرآن يتبع منهجاً فريداً في التعبير عن المعاني ، وهو منهج تجسيد المعاني وتصويرها أمام مخيلة القارىء . وهو منهج مُطَّرد يظهر في كل أبحاثه وموضوعاته ، وإنه يعَبِّر عن المعاني المتعددة المختلفة بلفظة واحدة .

وطبيعي أن منهجاً تعبيرياً بهذا الشكل ، يستعصي على الترجمة . ولنأخذ على ذلك مثلاً : القرآن الكريم يقول : « ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِك ، ولا تبْسُطْها كلَّ البَسْط ، فتقعُدَ مَلُوما مَحْسُورا[1] » ، ليس شيء من الألفاظ هنا يدل على المعنى المقصود بطريق الدلالة اللغوية الأصلية ، وإنما هي تكشف عن المعنى المراد بوساطة التصوير والتخييل ، والأداة المستعملة لذلك جملة من المجازات والتشبيهات والاستعارات المختلفة . فكيف يمكن أن تترجم هذه الآية ترجمة حرفية سليمة ، لا تفسد المعنى أو تشوهه[2] ؟ .

في الحقيقة ، إن ترجمة القرآن ترجمة « حرفية » أمر مستحيل ، وإذا وقع ما قد يسمى ترجمة من حيث الصورة ، فهو في الحقيقة ليس إلاّ تشويهاً لمعاني القرآن ، وتلبيساً للمقصود بغيره ، وتمزيقاً لأحكامه وحججه .

مستحيل ، لأن القرآن معْجِزٌ بألفاظه ومعانيه ، على الصورة التي نزل بها ، وبالعربية التي أعجزت العرب وفصحاءهم وليست الترجمة الحرفية قرآناً ، بل إنها حرام شرعاً .

أما الترجمة المعنوية ، ويدعوها كثير من الدارسين باسم **الترجمة التفسيرية** ، فهي التي تنقل معاني الكلام المترجَم إلى اللغة الثانية غير متقيدة بالألفاظ ، وترتيبها ، وخواصها ، وقواعدها . وهي جائزة شرعاً بشرط أن يكون المترجم ضليعاً بالعربية من جهة ، وباللغة التي يترجم اليها من جهة ثانية . بل هي مطلوبة . وذلك لأن محمداً ـ ص ـ بُعث برسالة الإسلام إلى البشرية عامة على اختلاف أجناسها وألوانها ، وبما أن هذه الأمم قد لا تحسن إلا لغتها ، فقد وجب أن تترجم الدعوة بكل ما فيها من أصول إلى ألسنة الأمم ، حتى تبلغهم الدعوة ، وتلزمهم الحجة ، ولكن ما يترجم من قرآن إلى تلك اللغات لا يُعَدُّ قرآناً وإنما هو بعض معانيه ، كذلك لا يجوز التعبد بتلاوته ولا الصلاة به .

---

(١) الاسراء ، ٢٩

(٢) البوطي ، من روائع القرآن ص ٢٢١

وبعد ، فإن الظاهرة التي نلمحها في ترجمة القرآن وضرورتها لتُومِئُ الى ضَعْف الأمة العربية ، وتقهقرها عما كانت عليه في الماضي . ذلك أن القرآن في أيام عز العرب لم يترجم إلى لغات الناس المختلفة ، بل كانوا يتعلمون العربية ، ثم يُقْبِلون بعدئذ على دراسة القرآن بلغته الأصيلة ، لأن لغته هي اللغة السائدة في العالم ، وأصحابها هم الحاكمون للعالم .

وحين بدأ العرب يضعُفون ، ويتفرقون ، ويحطم بعضهم بعضاً ، ويستعينون بالأغراب على تحطيم بعضهم ، ذلوا ، وضعفوا ، وأهينوا ، وتكالبت عليهم أمم الأرض زاحفين من الغرب والشرق ، وضعفت لغتهم بالتالي ، وصاروا يبحثون في ضرورة ترجمة روائعهم ونقلها إلى لغات الناس ، وكان المفروض أن يتعلم الناس لغتهم الأصلية ، ويفهموا روائعهم وهي على أصولها لا عن طريق المترجمين .

الباب الرابع

إعجاز القرآن

الفصل الأول

العرب والقرآن

إذا افتخر العرب في الجاهلية بشيء ففخرهم الأول فن الشعر ، وروعة النثر ، ولقد أجادوا القول فيهما وأحسنوا ، وكان لهم من شعرائهم الفطاحل ، وخطبائهم المصاقع خير شاهد على البراعة والجودة في التعبير الذي به يفتخرون .

وكم كانوا يعجبون بسجع الساجعين ، ويطربون لجودة المتفننين ، ويحفظون قول الحكماء المبينين كقول سَطِيح : « أُقْسِمُ ما بين الحَرَّتَيْن من حَنَش ، لَتَهْبِطَنَّ أرضَكم الحَبَش ، فلَيملكنَّ ما بين أَبْيَنَ الى جَرَش » وكقول شِقّ : « أقسمُ ما بين الحرتين من إنسان ، لينزلنَّ أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان ، وليملكن ما بين أَبْيَنَ إلى نجران » .

ونزل القرآن على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه يقول الله تعالى : « صٓ ، والقرآنِ ذي الذكْرِ ، بلِ الذين كفروا في عِزَّة وشِقاق . كم أهلكْنا مِن قَبلِهم من قَرْن فنادَوْا ولاتَ حِينَ مَناص ، وعَجِبوا أنْ جاءَهم منذرٌ منهم ، وقال الكافرونَ هذا سِحْرٌ كذّاب[1] » .

وفيه يقول تعالى : « إنَّ جهنمَ كانتْ مِرصاداً . للطَّاغينَ مَآباً . لابثِينَ فيها أحْقاباً . لا يذوقُونَ فيها برداً ولا شَرابا . إلا حَميماً وغَسَّاقاً . جزاءً وِفاقاً . إنهم كانوا لا يَرْجُونَ حِساباً . وكَذَّبوا بآياتِنا كِذَّاباً . وكلَّ شيءٍ أحْصَيْناهُ كِتاباً . فَذُوقُوا فَلَنْ نزيدَكم إلا عَذاباً[2] » .

وفيه يقول تعالى : « والنَّجمِ إذا هَوَى . ما ضَلَّ صاحِبُكمْ وما غَوَى . وما يَنطِقُ عن الهوى . إن هُوَإلا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَديدُ القُوى . ذو مِرَّةٍ فاستوى[3] » .

....

---

(١) سورة ص ، ١ (٢) النبأ ، ٢١ (٣) النجم ، ١

وحار العرب في أمر هذا الجديد . فذكر بعضهم أنه شعر ، وأنه كهانة ، إلا أن الله قد أكذبهم فيما زعموه ، وكذلك أكذبهم علماؤهم وحذاقهم ، كالذي رواه ابن اسحق في السيرة حيث قال : « ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش . وكان ذا سِنٍّ فيهم ، وقد حضر المَوْسِم . فقال لهم : يا معشر قريش ، قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدُم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا . فأجْمِعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا ، فيكذبَّ بعضُكم بعضاً ، وَيرُدّ قولُكم بعضُه بعضاً . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول: مجنون . قال : ما هو بمجنون : لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخَنْقه ، ولا تخالُجه ، ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر : قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كلَّه ، رجزَه وهزَجَه ، وقريضَه ومقبوضَه ، ومبسوطَه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السُّحار وسحرَهم ، فما هو بنَفْثِهم ، ولا عَقْدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لَحَلاوة ، وإن أصلَه لَعِذْق ، وإنَّ فرعَه لَجَنَاة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً الا عُرِف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأخيه وزوجه ... هو سحر يؤثر ، ومحمد ساحر ، وهذا هو السحر المبين[1] » . وفيه نزل قول الله تعالى : « إنهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ ، فقُتِلَ ، كيفَ قَدَّرَ؟ . ثم قُتِلَ . كيفَ قَدَّرَ؟ ثم نَظَرَ ، ثم عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثم أدْبَرَ واسْتَكْبر ، فقال : إنْ هَذا إلاّ سِحْرٌ يُؤثرُ[2] » .

وقصة إسلام عمرَ التي رويناها في مقدمة هذا الكتاب دليل آخر على أثر القرآن في نفوس العرب ، حتى لقد قال بعد أن قرأ شيئاً من سورة طَه : « فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي ، فبكيت ، ودخلني الاسلام » وفي رواية أخرى أنه قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » .

وصدق الله العظيم إذ وصف أثر قرآنه في نفوس المؤمنين به ، ونفوس الذين أوتوا العلم من قبله بأنه : « تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثم تَلِينُ جُلودُهُمْ وقلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ[3] » و « إذا يُتْلى عليهِمْ يخِرّون للأذقانِ سُجَّداً ، ويقولونَ : سبحانَ ربنا ، إنْ كانَ وَعْدُ ربنا لَمَفْعُولا ، ويخِرونَ للاذقانِ يبكونَ ، ويزيدُهم خشوعا[4] » .

---

(١) السيرة ١/٢٨٣ (٢) المدثر ، ٢٢
(٣) الزمر ، ٢٣ (٤) الاسراء ، ١٠٩

الفصل الثاني

التحدّي والمعارضة

كان من عادة العرب أن يتحدَّى بعضهم بعضاً في المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب ، ثقة منهم بقوة الطبع ، وتدفق الشاعرية ، ولأن ذلك مذهب من مفاخرهم ، وعادة من عاداتهم .

وحين نزل القرآن تحداهم في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه ، وسلك إلى ذلك طريقاً كأنها قضية من قضايا المنطق التاريخي . وحكمة هذا التحدِّي وذكره في القرآن ، إنما هي أن يشهد التاريخ في كل عصر وزمان بعجز العرب عنه ، وهُمُ الخطباء ، والشعراء ، والفصحاء ، وأصحاب اللَّسَن والبيان .

تحداهم القرآن على صورٍ وأشكال ، طلب منهم أن يأتوا **بمثل هذا القرآن** « قُلْ لئِن اجتمعتِ الإِنسُ والجنُ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ ، لا يأتونَ بمثلِه ، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظَهيرا[1] » .

ثم تحداهم **بعشر سور** منه مفترَيات ، لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة ، وليس إلا النظم والأسلوب ، وهم أهلُ اللغة ، ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور : « أمْ يقولونَ افتراه ؟ قلْ : فأْتوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِه مُفْتَرَياتٍ ، وادْعوا مَنِ استطعتم من دونِ الله ، إنْ كنتم صادقين ، فإنْ لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنَّما أُنزِلَ بعلمِ الله[2] » .

ثم قرن التحدِّي بالتأنيب والتقريع ، واستفزهم بعد ذلك جملةً واحدة ، وطالبهم **أن يأتوا بسورة واحدة منه** في قوله : « أمْ يقولونَ افتراه ؟ قُلْ فأْتُوا بسورةٍ مثلِه[3] » وفي قوله : « وإنْ كنتم في ريبٍ مما نزلنا على عبدِنا فأْتوا بسورةٍ من مثلِه ، وادْعُوا شهداءكم مِنْ

(١) الاسراء ، ٨٨ (٢) هود ، ١٣ و ١٤
(٣) يونس ، ٣٨

دُونِ اللهِ إنْ كنتم صادقين . فَإنْ لم تفعلوا ، وَلَن تفعلوا ، فاتَّقوا النارَ التي وَقودُها الناسُ والحجارةُ ، أُعِدَّتْ للكافرين[1] » .

فقطع لهم أنهم لن يفعلوا ، لأنهم لا يستطيعون .

قال الجاحظ : بعث الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحْكَمَ ما كانتْ لغةً ، وأشدَّ ما كانت عُدَّةً ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر ، وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحَمِيَّة دون الجهلِ والحَيْرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا ، وقتل مِنْ عَلِيهم وأعلامِهم وأعمامهم وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم بها ، وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكشَّف عن نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منه ما كان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا . قال : فهاتوا مُفْتَرَيَات . فلم يَرُمْ ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لَوَجَدَ مَنْ يستجيزه ، ويحامي عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارَضَ وقابَلَ وناقَضَ ، فدلّ ذلك العاقلَ على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم . وكثرة من هجاه منهم . وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه[2] .

على أن التاريخ لا يخلو من أسماء قوم زعموا أنهم عارضوا القرآن ، فمنهم من ادعى النبوة ، وجعل ما يلقيه من ذلك قرآناً كيلا تكون دعوته بلا دليل .

ومنهم من تعاطى معارضة القرآن صناعة ، وظن أنه قادر عليها يضع لسانه منها حيث يشاء .

وكان **مُسَيْلِمَةُ بنُ حبيب النجدي** قد تنبأ باليمامة في بني حنيفة ، على عهد رسول الله ـ ص ـ بعد أن وفد عليه وأسلم ، وكان مسيلمة يصانع كل إنسان ويتألفه ، ولا يبالي أن يطلع أحد منه على قبيح ، لأنه إنما يتخذ النُبُوَّةَ سبباً إلى الملك ، حتى عرض على رسول الله ـ ص ـ أن يُشرِكه في الأمر ، أو يجعله له من بعده ، وكتب له في

---

(١) البقرة ، ٢٣ و ٢٤

(٢) تاريخ الطبري ٢/٥٠٦

سنة عشر للهجرة : « أما بعد : فإني قد شوركت في الأرض معك ، وإنما لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، لكنّ قريشاً قومٌ يعتَدُون » .

وقد زعم مسيلمة أن له قرآناً نزل عليه من السماء ، ويأتيه به ملك يسمى « رحمن » . بيد أن قرآنه إنما كان فصولاً ، وجملاً ، بعضها مما يرسله ، وبعضها مما يترسل به في أمرٍ إنْ عَرَضَ له ، وحادثة إن اتفقت ، ورأي إذا سئل فيه . وكلها ضروب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن في تراكيبه ، ويجنح في أكثرها إلى سجع الكهان ، لأنه يحسب النبوة ضرباً من الكهانة ، فيسجع كما يسجعون .

ومن قرآن مسيلمة : « والمبذرات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ... لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعترّ فآووه ، والباغي فناوئوه » .

ومن قرآنه أيضاً : « الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل[1] » .

وقال الجاحظ في كتابه « الحيوان » عند القول في الضفدع : « ولا أدري ما هيّج مُسَيْلِمةَ على ذكرها ؟ ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيها فيما نزل عليه من قرآنه : « يا ضفدعُ بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، . نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » .

وكل كلامه على هذا النمط واهٍ سخيف ، لا ينهض ولا يتماسك ، بل هو مضطرب النسج ، مبتذَل المعنى ، مستهلَكٌ من جهتيه .

ومن الذين ادعوا النبوة **عَبْهَلَةُ بن كعب** الذي يقال له : الأَسْوَدُ العَنْسِي ، وكذلك طُلَيْحَة بن خويلد الأسدى ، وسَجاحُ بنت الحارث بن سُوَيْد التميمية ، والنَّضرُ بن الحارث . وهؤلاء جميعا زعموا أن الوحي ينزل عليهم ، ولكن كتب التاريخ والأدب لم تحفظ لنا شيئا يذكر ، ويُطمأن الى صحته من مزاعمهم وكذبهم .

وزعم بعض رجال البلاغة أن **ابن المقفع عارض القرآن** مدة من الزمن ، ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من اظهاره حين سمع قوله تعالى : « وقيل يا أرضُ ابلعِي ماءَكِ ، ويا سماءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ الماءُ ، وقُضِيَ الأمرُ ، واستوَتْ على الجودِيِّ ، وقيلَ بُعْداً للقومِ الظالمين[2] » فقال ابن المقفع : هذا ما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٥٠٦ (٢) هود ، ٤٤

ونعتقد بما يشبه اليقين أن الخبر مدسوس على ابن المقفع ، وأن حسّاده هم الذين افتروا عليه هذه الفرية الشنعاء .

لقد ظن أولئك المفترون أن كتاب « الدرة اليتيمة » من تأليف ابن المقفع ، معارضة للقرآن ، وغفلوا عن أنه ترجمة لكتاب بزرجمهر في الحكمة ، وشهد له بهذا عالم موثوق هو الباقلاني . وابن المقفع رجل عاقل ، ومن أبصر الناس باستحالة المعارضة ، لا لشيءٍ الا لأنه من أبلغ الناس .

وإذا قيل لك : إن فلانا يزعم إمكان المعارضة ، ويحتج لذلك وينازع فيه ، فاعلم أن فلانا هذا في الصناعة أحدَ رجلين اثنين : إما جاهل يصدق في نفسه ، وإما عالم يكذب على الناس .

وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس ، لأن فتنة الفرق الملحدة انما كانت بعده ، وكان البلغاء كافة لا يمترون في اعجاز القرآن ، وإن اختلفوا في وجه إعجازه ، ثم كان ابن المقفع متهما عند الناس في دينه ، فدفع بعض ذلك الى بعض ، وتهيأت النسبة من الجملة[1] .

والعجيب في الأمر أنه كلما نبغ كاتب ، وطارت شهرة حكيم ، وتحدث الناس بسيرة أديب عظيم قال الزنادقة والملحدون : إن حكمة ذلك الانسان ، أو أدبه ، أوشعره ، أوقوله معارضة للقرآن .

زعموا أن حكم وقصص شمس الدين **قابوس بن وَشْمَكِير الدَّيْلَمي** هي من بعض المعارضة للقرآن . وشمس الدين هذا رجل مسلم قوي الإيمان ، أثنى عليه الثعالبي في يتيمة الدهر خير ثناء ، ومدحه أيما مديح . وبلغ بهم الزعم أن قالوا : إن القصائد السبع المسماة بالمعلقات هي عندهم معارضة للقرآن بفصاحتها .

على أننا يجب ألا نحسن الظن ، وندفع التهمة عن كل مترسل أو بليغ ، وننفي عنه كل شبهة ، فذلك يوقعنا في ورطة ، ويصمنا بالجهل ، والغباء .

ذلك أنه ثبت أن **أبا الحسين أحمد المعروف بابن الراوندي (ـ ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م)** . وكان رجلا غلبت عليه شِقوة الكلام ، فبسط لسانه في مناقضة الشريعة ، وذهب يزعم ويفتري . وليس أدل على جهله وفساد قياسه ، وأنه يمضي في قضية لا برهان له بها من قوله في كتابه المسمى « الفريد » : « إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي تحدى به النبي فلم تقدر على معارضته . فيقال لهم : أخبرونا ، لو

(١) الرافعي . إعجاز القرآن ص ١٩٦

ادعى مدع لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن ، فقال : الدليل على صدق بطليموس أوإقليدس ، أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه ، أكانت نبوته تثبت ؟ »

ويرد الرافعي على ابن الراوندي بقوله[1] : « فاعجب لهذا الجهل الذي يكون قياسا من أقيسة العلم ، واعجب للكلام الذي يقال فيه : إن هذا كتاب وذلك كتاب ، فكلاهما كتاب ، ولما كانا كذلك فأحدهما مثل الآخر ، ولما كان أحدهما معجزا فالثاني معجز لا محالة ، وما ثبت لصاحب الأول يثبت بالطبع لصاحب الثاني ، وما دمنا نعرف أن صاحب الكتاب الثاني لم تثبت له نبوة ، فنبوة صاحب الأول لا تثبت . ولعمري إن مثل هذه الأقيسة التي يحسبها ابن الراوندي سبيلا من الحجة ، وبابا من البرهان لهي في حقيقة العلم كأشد هذيان عرفه الأطباء قط ، وإلا فأين كتاب من كتاب ؟ وأين وضع من وضع ؟ وأين قوم من قوم ؟ وأين رجل من رجل ؟ . ولو أن الاعجاز كان في ورق القرآن ، وفيما يخط عليه ، لكان كل كتاب في الأرض ككل كتاب في الأرض ، ولا طَّرَدَ ذلك القياس كله على ما وصفه كما يطرد القياس عينه في قولنا : إن كل حمار يتنفس ، وابن الراوندي يتنفس ، فابن الراوندي يكون ماذا . . ؟

ولو أن مثل هذه السخافة تسمى علما تقوم به الحجة فيما يحتج له ويبطل به البرهان فيما يحتج عليه ، لما بقيت في الأرض حقيقة صريحة ولا حق معروف ، ولا شيئ سُمِّي باسمه .

وقد قيل : إن هذا الرجل عارض القرآن بكتاب سماه « التاج » كما فعل في سائر كتبه الأخرى كالفريد ، والزمردة ، وقضيب الذهب ، والمرجان . وجاء ذكر هذه الكتب في رسالة الغفران للمعري ، وقد وفّاه حسابه عليها ، وشتمه أيما شتم ، في نثر مسجوع ، وعبارات لاذعة ، ومما قاله المعري في « التاج » : وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلاً ، وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة : أف ، وتفّ ، وجورب ، وخف . قيل وما هوجورب وخف ؟ قال : واديان في جهنم .

وهذا يشير الى أن الكتاب كذب واختلاق ، وصرف لحقائق الكلام كما فعلت الكاهنة .

أما أبو الطيب المتنبي ، فقد ادعى النبوة في حدثان أمره ، وكان في بادية السَّماوة (بين الكوفة والشام) وتبعه خلق كثير من بني كلْب وغيرهم ، وكان

(١) إعجاز القرآن ص ٢٠٥

يمخرق على الناس بأشياء وصف بعضها المعري في رسالة الغفران ، وقيل : إنه تلا على البوادي كلاما زعم أنه قرآن أنزل عليه . يحكون منه سوراً كثيرة . ومنها : « والنجمِ السيار ، والفلكِ الدّوّار ، والليلِ والنهارِ ، إن الكافرين لفي أخطار ، امض على سنتك ، واقف أثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه ، وضل عن سبيله » .

ولم يكن المتنبي كاتبا ، ولا بصيراً بأساليب الكتابة وصناعتها ووجوهها ، ولا هو عربي قح من فصحاء البادية ، وان كان في حفظ اللغة ما هو ، وليس يمنع سقوط ذلك الكلام الذي نسب إليه من أن تكون نسبته إليه صحيحة ، لأنه لو أراده في معارضة القرآن ما جاء بأبلغ منه . وما المتنبي بأفصح عربية من العَنْسيّ ولا مُسَيْلِمة ، وقد كان في قوم أجلاف من أهل البادية ، اجتمعت لهم رخاوة الطباع ، واضطراب الألسنة ، فلا تعرفهم من صميم الفصحاء بطبيعة أرضهم ، ولا تعرفهم في زمن الفصاحة الخالصة ، لأنهم في القرن الرابع ، وإذا كانت حماقات مسيلمة قد جازت على أهل اليمامة ، والقرآن لم يزل غضا طريا ، ونور الوحي مشرق على الأرض بعد ، فكيف بالمتنبي في بادية السماوة وقومٍ من بني كلب ؟ وهل عرف الناس نبياً بغير وحي ولا قرآن ؟

وزعم بعضهم **أن أبا العلاء المعري** عارض القرآن بكتاب سماه « الفصول والغايات في مجاراة السُوَر والآيات » وأنه قيل له : ما هذا إلا جيد ، غير أنه ليس عليه طَلاوة القرآن . فقال : « حتى تصقله الألسنة في المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون » .

وقيل : إن من كتابه قوله « أقسمُ بخالق الخيل ، والريح الهابّة بليل ، بين الشرط مطالع سهيل ، إن الكافر لطويل الوْيل ، وإن العمر لمكفوف الذيْل ، تعدّ مدارج السيل ، وطالعِ التوبة من قُبَيْل ، تَنْجُ وما إخالك بناج » .

ويخيل إلينا أن تلك فرية شنعاء أراده بها عدو حاذق ، لأن المعري من كبار المدافعين عن بلاغة القرآن ، والحاملين على الكذّابين ، والوضاعين ، والمتنبئين ، ومقاله في ابن الراوندي خير دليل على ما نقول . ولقد ذكر المعري ــ من جملة ما ذكر ــ عن القرآن الكريم : « إن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالإعجاز ، ولقي عدوه بالأرجاز[1] ، ما حُذِيَ على مثال ، ولا أشبه

---

(١) الأرجاز : جمع رجز ، أو رِجْز : وهو القذر

غريب الأمثال ، ما هو من القصيد الموزون ، ولا في الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ذوي الأرب . وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم ، يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غَسَق ، والزهرة البادية في جدوب ذات نَسَق[1] » .

وبعد ، فتلك صور خاطفة ، ونماذج متباينة من معارضة القرآن . وتحديه ، درجت على أرض مترامية الأطراف ، وفي زمن يزيد على خمسمائة عام ، وكانت على أيدي رجال ظنوا أنفسهم فحولا يستطيعون أن ينطحوا الصخرة فيوهنوها ، وحين حاولوا ، باءوا باحتقار الناس ، ورجعوا بخُفَّيْ حُنَيْن . وصدق الله العظيم إذ قال : « قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمِثْلِ هـذا القرآن لا يأتونَ بمثلهِ ، ولوكان بعضُهُمْ لبعض ظَهِيراً »[2] .

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢١١

(٢) الإسراء ، ٨٨

الفصل الثالث

المؤلفات في إعجاز القرآن

أثار القرآن منذ اللحظات الأولى لنزوله حركة فكرية عند العرب ، ودعاهم إلى الالتفات اليه ، لِمَا جاء به من جديد في أساليب التعبير والبيان ، وَعَلِقَت أفئدتهم وأسماعهم بما جَمَع من كلام رائع ، فلم يسعهم إزاءَه إلا التسليم بروعة الأثر ، وانشغلت به طوائف كثيرة من الناس ، كلٌ من ناحية اهتمامه . فالمفسرون يتتبعون آياته ، والفقهاء يستخلصون منه أصول الشريعة ، واللغويون يبحثون في الألفاظ العربية والمعرَّبة ، والغريبة وغير الغريبة ، والنحْويون يستقصون وجوه الإعراب لآياته ، والبلاغيون يتتبعون بيانه وبديعه ، ورجال الفكر يلتقطون ما فيه من إشارات إلى مبادئ ، ونظريات .

والأكثر من هذا : أن القرآن أوجد علوما مختلفة ، كانت في أصلها تتجه إلى خدمة القرآن وجلاء معانيه ، ثم استقلت هذه العلوم ، واتخذت لنفسها مساراً خاصا يأتلف مع القرآن ولا يختلف ، ويتحد ولا يفترق ، حتى إذا امتدت لهذا العلم فروعه ، وترامت إلى آفاق بعيدة تشعيباته وجزئياته ظلت جميعها تنظر إلى الأصل ، وتتقيد به ، خشية أن تضل أو تحيد . وكثيرا ما تكون وجوه التباين في الفروع متفاوتة فإذا ما ذُكِر النصُّ القرآني بَطَلَتْ كل الفروع المناوئة ، واضمحلت ، لأن القرآن هو الحجة الدامغة ، والتي لا يعلو عليها حجة مهما سمت ، وقويت ، وكان شأنُ صاحبها .

كان علم التفسير أول العلوم التي نشأت لخدمة القرآن ، وكان للمفسرين مذاهب تتفق وهوى أصحابها ، واتجاهاتهم ، وأهواءَهم ، ومذاهبهم . فاللغويون والنحويون منهم طبعت كتبهم باسم « معاني القرآن » فالكسائي ، والأخفش ،

والرُّؤاسي ، والمازني ، والفرّاء ، والزَجّاج ، وأبو علي الفارسي ، وأبو جعفر النحاس كتبوا كتبا يحمل كل منها اسم « **معاني القرآن** » وفيها مَزْجٌ بين النحو واللغة .

وأفرد علماء آخرون اللغة وحدها دون النحو فألفوا كتبا تحمل عنوان « **غريب القرآن** » كما فعل أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى ، والدّوسي ، وابن قتيبة ، واليزيدي وابن سلاَّم ، وابن عَرَفة .

وتخيّر علماء آخرون جوانب معينة في اللفظ القرآني ، فوجهوا إليها عنايتهم اللغوية ، مثال ذلك كتاب « **لغات القرآن** » للأصمعي ، و« **لغات القرآن** » للفراء ، وأبي زيد الأنصاري ، ثم « **المصادر في القرآن** » للفرَّاء أيضا ، وكتاب « **الجمع والتثنية** » له كذلك .

ووجه بعضهم عنايته للأسلوب القرآني ، والمعاني ، والنظم ، وصلته بالمعنى واللفظ ، وهؤلاء استرعى اهتمامهم فنون التعبير في القرآن . ومن هؤلاء أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه « **مجاز القرآن** » ، والجاحظ في كتابه « **نظم القرآن** » . وابن قتيبة في كتابه « **تأويل مشكل القرآن** » على تفاوت بينهم .

* * *

١ ـ **فأبو عبيدة في « مجاز القرآن »** يمثل التيار اللغوي مع قليل من آثار البحث البياني ، واذا كان أبو عبيدة لم يتوسع في تفصيل البحوث البيانية فلأنه ألَّفَه في وقت مبكِّر نسبياً ، وكان عام ثمانية وثمانين ومائة من الهجرة النبوية / ٨٠٣م .

ويعتبر هذا الكتاب مرحلة أولية من مراحل الكشف عن إعجاز القرآن وبلاغته ، كما يعتبر مرجعاً لكثير من الدراسات اللغوية والأدبية التي تلت .

يقدم أبو عبيدة لكتابه بمقدمة في بحوث لغوية عامة في القرآن ، يبدؤها ببحث كلمة « قرآن » ثم يدلف الى نص القرآن وما يتضمنه من فنون الكلام ، منبِّهاً : الى أنه يشابه في نظمه كلام العرب ، ثم يتناول السور والآيات تناولاً تنازلياً يبدأ بسورة الفاتحة ، ثم البقرة وهكذا . وطريقة ترتيبه واضحة حيث يبدأ شرح الآية بآية أخرى ما أمكن ، ثم يتبعها بحديث في المعنى نفسه ، ثم بشاهد شعريّ قديم ، أو بكلام العرب الفصيح كالخطب والأمثال والأقوال المأثورة . ويحرص على أن يؤكد دائماً صحة أسلوب القرآن وفنون التعبير فيه بأساليب العرب وفنونهم ، فيذكر دائماً في ختام كلامه أن « العرب تفعل هذا » .

* * *

٢ ـ ويعتبر « **معاني القرآن** » **للفرّاء** دراسة مكملة ـ من الناحية اللغوية ـ لكتاب « مجاز القرآن » ، لأنه يبحث في التراكيب ، والإعراب . وكلمة « المجاز » يقصد بها البحث في الغريب والمجاز البلاغي ، وكلتا الدراستين متعلقتان بالأسلوب .

ويتبع الفراء في كتابه المنهجَ الذي اتبعه أبو عبيدة ، حيث يبدأ بسورة الفاتحة ، ثم البقرة ... وهكذا تنازليًّاً ، ويتعرض لآيات كل سورة آية آية بالترتيب شارحاً ومفسراً لغريب الألفاظ ، ويزيد على أبي عبيدة بوقوفه عند القراءات المختلفة ، فيصحح بعضها ، أو ينفيها ، ثم يفسرها نحوياً ، ويأتي بالأمثلة والشواهد ثم يدرج المسائل جميعاً تحت قاعدة واحدة .

كذلك يتبع طريقة أبي عبيدة في تفسير الآيات بالآيات أولاً ، ثم بالحديث إذا وُجد ، ثم بالشاهد الشعري ، أو بالمَثَل ، أو بالكلام الفصيح .

ولقد تطرق الفراء في « معاني القرآن » الى أبحاث بلاغية كالكناية ، والتشبيه والمَثَل ، والمجاز ، والاستعارة ، والانتقال من مخاطبة الشاهد الى الغائب ، والتقديم والتأخير ، وأبحاث أخرى .

إن الذي يميز كتاب الفراء من سابقه هو عناية صاحبه بالناحية الموسيقية في نظم القرآن ، والتوقيع الرتيب فيه ، وملاحظة النسق الصوتي فيه وتتبعه .

وقديماً تنبه العرب إلى وزن القرآن ، فقارنوه بوزن الشعر ، وإيقاع سجع الكهان ، ثم تركوا هذا الجانب وانصرفوا إلى دراسة معانيه ، وما تحمل من تشريع وعقيدة وأغراض شتى .

والفراء إذ يحاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن لا يذهب بعيداً ، بل يريد أن يقول : إن للقرآن ما للشعر والكلام الموزون من صفات ، ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم : تجاوبُ الكلمات مع وزن الآية ، ومراعاةُ رؤوس الآيات للنسق .

* * *

وتطورت الدراسات المختلفة بتطور الزمن ، واشتبكت بالحضارة الجديدة ، وما حملته من فِكَر ، وتيارات ، وفلسفات ، ومذاهب ، وعلوم . واختلفت نظرة الدارسين الى إعجاز القرآن باختلاف العلماء واتجاهاتهم وتأثراتهم .

فالنَظّام المعتزلي ـ مثلاً ـ تأثر بكتب الفلاسفة ، ودرس الاعتزال ، واتصل بالثقافة الهندية والفارسية واليونانية ، وتعلم المسيحية ولاهوتها ، وكان بطبعه ميالاً الى التجربة والقياس ، ولا يقبل التسليم بالمنقول والمأثور ، وألمَّ بالثقافة العربية ، فحفظ القرآن ، ونظر فيه وفي تفسيره على ضوء مذهبه التجريبي القياسي ، وخالف

أصحابه من المعتزلة كما خالف أهل السنة الذين يقولون : إن إعجاز القرآن في نظمه ، وحسن تأليفه ، وإنه محال وقوع مثله من العرب . فرأى النظام أن إعجاز القرآن في إخباره عن الغيوب ؛ أما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا ان الله منعهم ، بمنعٍ وعجزٍ أحدثهما فيهم .

وطارت هذه النظرية في الآفاق ، وناقشها كثيرون ، وحمل عليها آخرون . وأُلِّف في الرّد عليها كتب ، ونال النَّظّام نقداً كبيراً . وكان أول من خرج على النظّام المعتزلي تلميذُه « الجاحظ » المعتزلي ، وكتب في الرّد عليه كتابه « نظم القرآن » . ثم توالت المؤلفات ، تناقش كلُّها نظرية النظام التي عرفت بنظرية « الصَّرْفَة » (المشتقة من صَرْفِ الله عقولَ العرب عن محاكاة القرآن) فتؤيدها أو تنكرها .

* * *

٣ ـ اعتمد الجاحظ في كتابه « نظم القرآن » ـ في أغلب الظن ـ على القرآن في نصه ، فلم يتّبع المفسرين واللغويين والنحويين ، ولا المعتزلة أنفسهم اتّباعاً حرفياً ، بل شق لنفسه طريقاً وارتضى رأياً لاءم فيه بين طبيعة الأسلوب القرآني والبيان العربي بصفة عامة .

ويمكن تصور رأي الجاحظ في بيان القرآن وإعجازه بتتبع بعض آرائه في كتبه التي وصلت الينا ، ونأسف لعدم وصول « نظم القرآن » إلينا لضياعه ، وهو عمدة دراساته في هذا الموضوع ، ولا نرى بأساً في أن نستخبر كتبه الأخرى عنه ، لعلها تلقي بعض الضوء عليه .

ففي كتابه « **حجج النبوة** » يتحدث الجاحظ عن معجزات الأنبياء ومعجزة محمد ـ ص ـ . ويبين أن المعجزة لا تكون حتى تَعجِز الخلق وتَخرُج من حدّ الطاقة كإحياء الموتى ، والمشي على الماء ، وفَلْق البحر ، وما إلى ذلك ، وينتهي إلى أن معجزة القرآن أكبر المعجزات ، وأن الله حين تحدَّى العرب دمغهم بالحجة ، ولم يقدروا على الإتيان بمثله عَجْزاً منهم ووهناً ، لا تهاوناً ولا تغافلاً ، ولا ضعفاً لأن الإتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلاً بأن يكفيهم شر قتل الأنفس والأولاد ،

وأن التقريع بالعجز أشد على نفوس العرب والبدو خاصة ، لما فيهم من الأنفة والعزة . فكيف والقرآن يتحداهم في أخص خصائصهم وهو البيان ، وهم قد عرفوا بالبراعة والبلاغة .

ثم يرى الجاحظ أن الإعجاز متصل بالنظم وحده ـ بصرف النظر عما يحويه القرآن من المعاني ـ إذ طلب الله تعالى اليهم أن يأتوا بعشر سور من مثله في النظم والروعة في التأليف ، حتى ولو حوى التأليف الرائع كل باطل ومفترى لا معنى له ، « فما بال القرآن جمع الى النظام الرائع المعانِيَ الفائقةَ ؟[1] » .

وفي كتاب « البيان والتبيين » نعثر على رأي الجاحظ في اللفظ القرآني الذي أولاه التنزيلُ عنايةً خاصة ، فاختاره بدقة ليدل على المعاني بدقة ، وقد يشترك لفظان في المعنى لكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة عليه ، ولنظم القرآن براعته في تنزيل اللفظ منزلته في الموضع الذي أريد له . ويمتاز بروعته أيضاً في الاختيار ومراعاة الفروق بين الألفاظ ، فلا يأتي بالألفاظ المترادفة دالاً على معنى واحد ، وإنما للدلالة على معان مختلفة ، وبقَدْر الدقة في إصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم وألفاظ القرآن .

يقول الجاحظ[2] : « وقد يستخفُّ الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن « الجوع » ، الا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السَّغَب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر « المطر » لأنك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام ، والأمة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث . ولفظ القرآن إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، واذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين ، ألا ترى أنه لا تجمع الأرض على أرضين ، ولا السمع أسماعاً ، والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال ، وقد زعم بعضهم أنه لم يرد ذكر النكاح في القرآن الا في موضع التزويج » .

وتَبَيَّنَ الجاحظ في ألفاظ القرآن ميزة أخرى ـ من حيث النظم ـ ذلك أن

(١) حجج النبوة للجاحظ ص ١٤٤ ؛ وأثر القرآن في تطور النقد العربي لسلام ص ٧٧ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٢٠

بعض الألفاظ تأتي متصاحبة دائماً لا تكاد تفترق مثل « الصلاة والزكاة » و« الجوع والخوف » و« الجنة والنار » و« الرغبة والرهبة » و« المهاجرين والأنصار » « والجن والإنس » .

كذلك اهتدى الجاحظ الى أن القرآن قد يستعمل لفظاً بعينه ، فيستغني به عن ألفاظ ، ويدل به على معان كثيرة وأسماء مجتمعة ، فتكون اللفظة جامعة شاملة كلفظة « مُكَلِّبين » في قوله تعالى : « قُلْ أُحِلَّ لكمُ الطَّيِّباتُ وما عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبين[1] » فاشتق لكل صائد ، وجارح ، وكاسب ، وباز ، وصقر ، وعقاب ، وفهد ، وشاهين ، وزُرَّق ، ويُؤيُؤ ، وبَاشِق الأرض من اسم الكلب .

وتحدث الجاحظ في الإعجاز القرآني عن الاستعارة والتشبيه والمجاز ، والايجاز ، وأورد نصوصاً قرآنية كثيرة ، واستجلى جمالها ونظمها وإعجازها . والتفت التفاتة طويلة المدى إلى نظم القرآن وموسيقى وزنه . وبهذه النظرية ضرب عُرْضَ الحائط بنظرية أستاذه النَّظَّام الذي لم يُقِمْ وزناً لنظمه بقدْر ما قال : إن الاعجاز في معانيه[2] .

* * *

ان النظَّام والجاحظ معتزليان ، نظرا الى القرآن نظرة معتزلية ، فاتفقا في أمور ، واختلفا في أخرى . وكان كل منهما عالماً ، قديراً ، صاحب حجة ومنطق ، وحسن بيان ، وكان يمكن أن يجعلا أفكارهما هي القاطعة الفاصلة لو لم يتصدّ لهما رجال من أهل السنة ،ثَقِفوا ما ثَقِفا ، ودرسوا ما درسا ، واطلعوا على ما اطلعا ، وأوتوا منقوة الحجة ، والمنطق ، وحسن البيان ما أوتيا . وبذلك استطاع التيار السُّنيّ أن يقف أمام التيار المعتزلي فيجابهه ويجبهه ، ويرد حجة بحجة ، وبرهاناً ببرهان .

وكان على رأس الفريق السنيّ ابن قتيبة الذي مثّل أهل الحديث والسنة ، وتسلَّح بالتجريب والقياس والمنطق ، ودرس الطبيعة والطب والفلسفة ، وقرأ الى جانب هذا كله بعض ما وقع بين يديه من الكتب السماوية ، وكتب الديانات الأخرى كما أتقن علوم العربية ولغاتها ، والثقافة الفارسية والهندية واليونانية .

---

(١) المائدة ، ٤

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ٩٦

ألف ابن قتيبة كتباً كثيرة كالشعر والشعراء ، وتأويل مختلف الحديث ، والرد على الجَهْمِيّة والمُشَبِّهَة ، والمسائل والأجوبة ، وتأويل مشكل القرآن . وعلى هذا الأخير يدور بحثنا .

٤ ـ **وقف ابن قتيبة في « تأويل مشكل القرآن »** أمام المعتزلة ورد عليهم في مسألة الرواية والإجماع ، فالمعتزلة وأصحاب الكلام والنظر يعتمدون على الرواية وينكرون الإجماع . وأخذ عليهم تفسيرهم القرآن حسب هواهم وعقيدتهم ـ وان خالف ذلك اللغة ـ . يقول ابن قتيبة : « وفسروا ـ والضمير يعود على المعتزلة ـ القرآن بأعجب تفسير ، يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم . ويحملوا التأويل على نِحَلِهِم ، فقال فريق منهم في قوله تعالى :« وَسِعَ كرسيُّهُ السَّمَواتِ والأرض » أي : « عِلْمُه » . وجاءوا على ذلك بشاهد لا يعرف ، وهو قول الشاعر : « ولا يُكَرْسِئُ عِلْمَ اللهِ مخلوق » كأنه عندهم : ولا يعلم علمَ الله مخلوقٌ . والكرسي غير مهموز ، ويكرسئ مهموز ، يستوحشون أن يجعلوا لله كرسياً[1] » .

فقد سخر منهم لاحتجاجهم بقول شاعر مجهول على القرآن ، ثم غَلَّطهم بعد ذلك في الشاهد ، فالكلمة فيه مهموزة ، وهي في الآية غير مهموزة . وهم عنده تحملوا الجهد والعَنَت فيه لنفيهم التشبيه ، وأن يجعلوا لله صفة الخلق ، فيستوحشون أن يجعلوا لله كرسياً .

والاختلاف الآخر الكبير بين السنة والمعتزلة هو في « المجاز » فقد أجازه المعتزلة وتوسعوا فيه ، ورأوا فيه ضرورة تعبيرية ، في حين وقف أهل السنة والحديث موقفاً حذراً ، وتحرج آخرون فنفوا المجاز من أصله في القرآن ، واعتبروا كل شيْ وَرَدَ فيه على الحقيقة . فيد الله هي يد الحقيقة ولكن لا يُدْرَى كُنْهُها ، وهناك كرسيّ ، وهناك استواء .

والقاعدة العامة عند بعض أهل السنة المتشددين أن المجاز من الضرورات التي لا يلجأ إليها القرآن ، اذا صح وجودها أو اضطر اليها البشر من الشعراء والبلغاء في كلامهم ، وما ذلك ـ عند المعتزلة ـ إلا لِقِصَرِ باعهم وضَعف أداتهم ، ولا يأتي الله به في كلامه وهو أعرف بموضع الكلم ومواقعه .

وهناك فريق وسط من أهل السنة ، لم يرفضوا المجاز جملة ، ولم يقبلوا به

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ (طبعة ١٣٢٦ هـ)

جملة ، فقالوا : إن المجاز في القرآن واقع ، وهو جائز ، لأنه فن من مستلزمات التعبير ، وأسلوب من أساليب العرب . وقد كان ابن قتيبة من هذا الفريق .

تلك هي أكبر الفروق بين المعتزلة والسنة من جهة النظر في تفسير القرآن ، وبيان سر اعجازه .

ولو أردنا استعراض ما ورد في « تأويل مشكل القرآن » من فِكَرٍ أخرى وجدناه قد تحدث في عدة نواح من جوانب الاعجاز .

أولاً — نظم الألفاظ ، وضمها بعضها الى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني ، فيجريان معاً في سلاسة وعذوبة .

ثانياً — النغم الموسيقي : ويشمل النظم والإيقاع الداخلي في الآيات ، وهو الذي ينجم من تآلف الحروف ، ومن الفواصل واطرادها ، أو اختلافها .

ثالثاً — سموّ بيانه عن بيان العرب وفنون بلاغاتهم .

رابعاً — العلوم والمعاني التي ضمها ، وفيها زبدة الشرائع السماوية .

خامساً — ما فيه من دلائل الألوهية ومظاهرها المختلفة في الكون .

سادساً — ما فيه من أثر نفسي يثير الوجدان عن طريق الشعور ، ويهز القلوب .

على أن ابن قتيبة استطرد الى أبحاث بلاغية مختلفة في هذا الكتاب وراح يشرحها شرحاً نظرياً أول الأمر ، ثم يأتي بالشواهد القرآنية ، ويظهر ما فيها من روعة وجمال بعد تحليلها .

* * *

تلك الكتب العامة التي عددناها كـ « معاني القرآن » و « مجاز القرآن » و « نظم القرآن » و « تأويل مشكل القرآن » كانت دراسات جامعةً ، شاملة ، عامة ، تحدثت في النحو ، واللغة ، والقراءات ، والبلاغة ، وغيرها . وتناولت موضوع إعجاز القرآن من جملة ما تناولت في أبحاثها المختلفة .

* * *

٥ — وشبيه بهذه الكتب العامة كتاب « **الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى** » . **للقاضي عياض السَّبْتي** ، المتوفّى بمراكُش في منتصف القرن السادس الهجريّ . فلقد ضم « الشِّفَا » أبحاثاً كثيرة ، دار معظمها حول صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يجب له ، ويضاف إليه ، أو يمتنع ، أو يجوز عليه ، وخصائص درجته ،

واستطرد في خَلَلِ ذلك إلى « إعجاز القرآن » الذي أنزل عليه ، فرأى أن إعجازه يقوم على أربع دعائم .

أولها : حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب .

وثانيها : صورة نظمه العجيب ، وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليها ، ووقفت مقاطع آيه ، وانتهت فواصل كلماته اليه .

وثالثها : ما انطوى عليه من الإخبار بالمُغيبات ، وما لم يكن ، ولم يقع ، فوجد كما ورد ، وعلى الوجه الذي أخبر .

ورابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذّ من أحبار أهل الكتاب ، فيورده النبي على وجهه ، ويأتي به على نصه مع أنه لم ينله بتعليم ، وأنه أميّ لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مشافهة[1] .

وقامت في المشرق في آخر القرن الثالث وطَوَال القرن الرابع للهجرة دراسات مستقلة في « الإعجاز » مستندة الى ما سبقها من مؤلفات ، ومستفيدة مما جاءت به من فِكَر .

من هؤلاء الذين أفردوا للاعجاز كتاباً مستقلاً باسم « **اعجاز القرآن** » **محمد بن يزيد الواسطي** ، **وعلي بن عيسى الرُّماني** ، **وحَمْدُ بن محمد بن إبراهيم الخطابي** ، **وأبو بكر محمد بن الطيب الباقِلاني** .

وتمتاز هذه الدراسات عن دراسات القرن الثالث بأنها محاولات خاصة ، ومستقلة بادراك حقيقة الإعجاز في نظم القرآن ، ومعرفة أسرار أسلوبه . واصطنع هؤلاء منهجاً في البيان لتقريب تلك الحقيقة للعقول ، وبنوا منهجهم على خلاصة دراسات القرن الثالث .

لقد قسموا منهجهم إلى أقسام تتعلق بالبلاغة ، وتطرح قضيتها على بساط البحث ، وتحاول الوصول إلى معرفة أي فنون القول أبلغ من غيرها ، وأيها أقل بلاغة ، وتبني مقاييس لذلك كله ، ثم تحاول الوصول الى معرفة سر الاعجاز عن طريق البلاغة .

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ص ٢٠٤ ـ ٢١٧ (طبع تركيا ١٢٩٣هـ)

ولسنا نستطيع القول : إن تلك الكتب اقتصرت على معرفة الاعجاز عن طريق البلاغة وحدها ، ولم تَشُبْها بشائبة أخرى ، وانما مزجت في أحيان كثيرة دراسات كلامية ، وحججاً منطقية لاثبات الاعجاز ، وتحدثت عن إخبار القرآن بالغيوب ، وقصص الأقدمين ، والنبي أمي لا يقرأ ولا يكتب .

وكان لبعض العقول الكبيرة فضل في الكشف عن دقائق البيان القرآني ، وجماله ، والوصول إلى إدراك العلة الجمالية التي تكمن وراء الفنون الجميلة في البيان .

وظلت هذه الدراسات تورق ، وتزهر ، وتثمر طَوَال القرن الرابع ، والقرون التالية ، وتزداد سَعَةً ونشاطاً على مَرّ الأزمان حتى بلغت مقدرة بعض الدارسين درجة رفيعة ، وأصبحت بعض دراساتهم في تحليل نصوص القرآن نماذج أدبية لكل ناقد أدبي ، ومرجعاً لكل باحث في خفايا التعبير العربي . فاستفاد النقد ، والبلاغة ، والأدب العربي بوجه عام من ذلك أيما استفادة ولا سيما من « دلائل الاعجاز » للجرجاني ، و« المثل السائر ، لابن الأثير . »

* * *

٦ ـ أما كتاب محمد بن يزيد الواسطي « إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه » فيبدو أنه ضائع ، ولم يمكن العثور عليه ، ولا على شروحه .

مؤلفه محمد بن يزيد (٣٠٦هـ / ٩١٨م) عالم معتزلي ، عاصر النَّحْويَ قُطْرُبَ ، وحدثت بينهما أمور . وله مؤلفان « الإمامة » و« إعجاز القرآن » ويقال : إن عبد القاهر الجرجاني شَرَحَ الإعجاز شرحين ، أحدهما كبير وسماه « المقتضَب » والآخر صغير .

ويخيل إلينا أن كتاب الواسطي على شيء غير قليل من الأهمية لاهتمام الجرجاني به ، وتناوله له بالشرح مرتين . ولا نستبعد أن يكون قد تأثر به في كتابيه « دلائل الإعجاز » و« أسرار البلاغة » .

* * *

و **٧ ـ ولأبي الحسن علي بن عيسى الرُّمَّاني « النُّكَتُ في إعجاز القرآن »** والرماني باحث معتزلي مفسّر ، ومن كبار النحاة . له نحو مائة مصنف[1] . توفي سنة ٣٨٤هـ ، أو ٣٨٦هـ / ٩٩٤م أو ٩٩٦م .

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ١٣٤/٥

يبحث كتاب الرماني في إعجاز القرآن البلاغي . وقد حدد المؤلف هدفه في مقدمة الكتاب حين تدرج من قضية الإعجاز عامة إلى الإعجاز البلاغي . وتناول هذه الناحية الأخيرة ووضعها في أعلى مراتب البلاغة ، ووصف بلاغة القرآن في هذه الدرجة بأنها بلاغة معجزة ، لأنها بلغت أقصى ما يمكن أن يصله التعبير باللسان العربي ، فبلاغة البلغاء مهما بلغت فهي ممكنة ، لكن بلاغة القرآن معجزة وليست في مقدور أحد .

ويقول الرماني : وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات :

١ - تَرْكُ المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة .

٢ - والتحدّي للكافة . ٣ - والصَّرْفَة . ٤ - والبلاغة .

٥ - والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة . ٦ - ونقض العادة .

٧ - وقياسه بكل معجزة .

« فأما **البلاغة** فهي على ثلاث طبقات : منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن . وما كان منها دون ذلك فهو ممكنٌ كبلاغة البلغاء من الناس وليست البلاغة إفهامَ المعنى ... وإنما البلاغة إيصالُ المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ[1] » .

والبلاغة على عشرة أقسام : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان .

ويذهب الى تفصيل القول في كلٍّ من هذه الأقسام العشرة ، ويقارن بين ما جاء به العرب وما جاء به القرآن ، وينتهي الى ما بينهما من تفاوت في مستوى التعبير ، وجمال التصوير ، وروعة الأداء القرآني .

ثم يأتي بعد ذلك إلى بيان الوجوه الأخرى في إعجاز القرآن فيقول :

« أما **توفر الدواعي** فيوجب الفعلَ مع الإمكان لا محالة ، في واحدٍ كان أو جماعة ، والدليل على ذلك أن إنساناً لو توفرت دواعيه الى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه . وكل داع يدعو الى مثله ، وهو مع ذلك ممكن له ، فلا يجوز ألا تقع شَرْبة منه حتى يموت عطشاً لتوفر الدواعي على ما بيَّنا ،

---

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني . تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ص ٦٩ (من المجموعة المسمَّاة : « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ») .

فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له دل ذلك على عجزه عنه . فكذلك توفرُ الدواعي إلى المعارضة على القرآن ، ولما لم تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها .

وأما **التحدي للكافة** فهو أظهر ، في أنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الدواعي إلا للعجز عنها .

وأما **الصَّرْفة** فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صَرْف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول .

وأما **الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة** فإنه لما كان لا يجوز أن تقع على الاتفاق دلَّ على أنها من عند علاَّم الغيوب .

وأما **نقض العادة** فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة : منها الشعر ، ومنها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنثور ، الذي يدور بين الناس في الحديث . فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة ...

وأما **قياسه بكل معجزة** فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة ، إذ كان سبيل فَلْق البحر ، وقَلْب العصا حية ، وما جرى هذا المجرى في ذلك سبيلاً واحداً في الإعجاز ، إذ خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة . فان قال قائل : فلعل السور القصار ممكن للناس . قيل له : لا يجوز ذلك من قبيل أن التحدى قد وقع بها ، فظهر العجز عنها في قوله تعالى : قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ . فلم يخصّ بذلك الطوال دون القصار . فإن قال قائل : فإنه يمكنه في القصار أن تُغَيَّر الفواصل ، فيجعل بدل كل كلمة ما يقوم مقامها فهل يكون ذلك معارضة ؟ قيل له : لا ، من قِبل أن المفحَم يمكنه في قوافي الشعر مثل ذلك ، وان كان لا يمكنه أن ينشىء بيتاً واحداً ، ولا يفصل بطبعه بين مكسور وموزون ، فلو أن مفحَما رام أن يجعل بدل قوافي قصيدة رؤبة :

وقاتِمِ الأعماقِ خاوي المُخْتَرَقْ
مُشْتَبِهِ الأعلامِ لَمّاعِ الخَفَقْ
يَكِلُّ وفدُ الريحِ من حيثُ انخرَقْ

فجعل بدل المختَرَق الممتزق . وبدل الخَفَق الشفق . وبدل انخرق انطلق . لأمكنه ذلك ولم يجب به قول الشعر ، ولا معارضة رؤبة في هذه القصيدة عند أحد له أدنى معرفة . فكذلك سبيل من غيّر الفواصل ، وزعم أنه قد عارض . وهذا واضح بيّن لا يخفى على متأمل والحمد لله .

... فإن قال قائل : فلم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولّدين ، وهو عندكم معجز للجميع ، مع أنه يوجد للمولّدين من الكلام البليغ شيء كثير ؟ قيل : لأن العرب كانت تقيم الأوزان والإعراب بالطباع ، وليس في المولّدين من يقيم الإعراب بالطباع كما يقيم الأوزان ، والعرب على البلاغة أقدر، لما بيّنا من فطنتهم لما لا يفطن إليه المولّدون من إقامة الإعراب بالطباع ، فإذا عجزوا عن ذلك ، فالمولدون عنه أعجز[١] » .

* * *

٨ ـ أما كتاب حَمْدِ بن محمد بن إبراهيم الخطابي فهو « البيان في إعجاز القرآن » والخطابي هذا منسوب الى زيد بن الخطاب أخي عمر بن الخطاب وقد توفي سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م .

يذكر المترجمون عنه أنه كان محباً للعلم ، ساعياً الى تحصيله في شرقي البلاد الإسلامية وغربيها ، وتتلمذ للرجال البارزين في عصره ، كما تتلمذ له كثير من الرجال المشهورين .

وله كتب عدة ، معظمهما في الحديث والفقه . منها : معالم السنن ، وغريب الحديث ، وتفسير أسماء الرب عز وجل أو شرح أسماء الله الحسنى ، وشرح الأدعية المأثورة ، وشرح البخاري ، وكتاب العزلة ، وإصلاح خطأ المُحَدِّثين ، وأعلام الحديث ، ومعالم التنزيل ، والبيان في إعجاز القرآن ، وغيرها[٢] .

في « البيان في إعجاز القرآن » يقرر الخطابي أن الناس قديماً وحديثاً ذهبوا في الموضوع كل مذهب من القول ،ولم يَصْدُروا عن رِيّ، ويناقش فكرة الصَّرفة ،

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ص ١٠٤

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨

وفكرة تضمن القرآن للأخبار المستقبلة ، ولا يرتضيها شرحاً لأسرار الإعجاز .

ثم ينتقل إلى موضوع البلاغة ، ويَعيب على القائلين بها اعتمادهم على التقليد ، وعدم تحقيقهم ، وقصور كلامهم على الإقناع . ويعالج هذا الموضوع على طريقته . فيذكر الأقسام الثلاثة للكلام المحمود ، ويقرر أن بلاغات القرآن قد أخذت من كل قسم من هذه حصة ، ومن كل نوع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الضخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين ، لذلك كان اجتماعهما في نظم القرآن خُصَّ بها ، يَسَّرَها اللطيف الخبير ، لتكون آية بيِّنة لنبيه . وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله ، لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة وأوضاعها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع النظوم التي بها ائتلافها ، وارتباطها بعضها ببعض .

وإنما صار القرآن معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، مُضَمَّناً أصح المعاني من توحيد وتحليل وتحريم ... الخ .. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها ، حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه قوى البشر .

وعمود البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به . ومن هنا كَاعَ القومُ وجَبُنُوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصعدهم منه .

ويفند الخطابي بعض ما أورده المعترضون من شُبَه ضد القران .

ومن الطريف في كتاب الخطابي ما أورده من تحليل بعض النصوص تحليلاً فنياً جميلاً ، يكشف فيه عن ذوق وبصر بمواطن الجمال في الكلام . وقد أثبت في آخر رسالته وجهاً آخر للإعجاز ذهب عنه الناس : ـ كما يقول ـ وذلك صنيع القرآن بالقلوب ، وتأثيره في النفوس . وهذه الفكرة هي التي دار حولها الجرجاني في الأسرار والدلائل إذ اعتبر مصدر البلاغة في الكلام تأثيره في النفوس[1] .

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٢

٩ ـ ولأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفيّ سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م كتاب اسمه « إعجاز القرآن » .

والباقلاني له مصنفات كثيرة زادت على خمسين كتاباً[١] . وكان من أعلام المتكلمين على مذهب أبي الحسن الأشعري ، كما كان خطيباً بارعاً . ومجادلاً قوي البيان والحجة ، عالي القَدْر في علوم القرآن والسنة والكلام . تعرض لكثير من المعارضين والمخالفين ، وقارعهم الحجج ، وجادل علماء الروم وظهر عليهم ، مما أثار إعجاب معاصريه[٢] .

ومن الأبحاث التي عني بها مبحث الإعجاز في القرآن ، وكان دائم الحديث فيه ، وخص به كتاباً مستقلاً ، وهو الذي نريد تحليله .

يستهل الباقلاني كتابه « إعجاز القرآن » بالتعرض لمطاعن الملاحدة على أسلوب الذكر الحكيم ، مبيناً أن الحاجة إلى الحديث في إعجاز القرآن أمسّ من الحاجة إلى المباحث اللغوية والنحوية .

وينعي الباقلاني على المؤلفين القدماء تقصيرهم في بيان وجه إعجاز القرآن ، ويشير إلى أن الجاحظ صنف في نظمه كتاباً ، وأنه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى .

ويصرح بأنه سيضيف إلى من سبقوه ما يجب وصفه من طرق البلاغة ، وسبل الفصاحة .

ويجعل أول فصل فيه لبيان أن القرآن معجزة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهي معجزة تقوم على بلاغته ، ويستشهد لذلك بآيٍ من الذكر الحكيم .

ويفتح فصلاً ثانياً يتم به الفصل الأول وما ساق فيه من حجج على إعجاز القرآن . وفي تضاعيف ذلك يرد رداً عنيفاً على من عللوا الإعجاز القرآني بالصَّرْفَة ، ولأن ذلك يقتضي أن المعارضة ممكنة ، وإنما مَنَعَ منها الصرفة . وبذلك يسقط أن يكون القرآن معجزاً في نفسه وببلاغته . وواضح أنه يرد على المعتزلة من أمثال النظّام مبتدع الفكرة ، والرماني الذي عدّ الصرفة من وجوه الإعجاز القرآني .

---

(١) انظر ترجمته في مقدمة « إعجاز القرآن » التي كتبها المحقق أحمد صقر ، وأصدرها ملحقة بالكتاب في سلسلة ذخائر العرب رقم ١٢ ، طبع دار المعارف بمصر ص ٤٢ ـ ٥٦

(٢) انظر المصدر السابق ص ٢٠ ـ ٣٨

ويقول : إن أهل التوراة والإنجيل لا يدّعون لكتابيهما الإعجاز ، واذن فليس هناك كتاب سماوي معجز سوى القرآن .

ثم يفتتح فصلاً لبيان وجوه الإعجاز القرآني في رأيه ورأي الأشاعرة من أصحابه . ويردها إلى ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : تضمن القرآن الإخبار عن الغيب .

الوجه الثاني : إتيان القرآن بجملة ما حدث من بدء الخليقة الى حين بعثة النبي مع كونه ـ ص ـ أمياً ، لا يعرف شيئاً من كتب السابقين وأنبائهم .

الوجه الثالث : بديع نظمه ، وعجيب تأليفه ، وتناهيه في البلاغة .

ويجمل نظريته في إعجاز القرآن البلاغي فيقول : « إنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه في البلاغة الى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[1] » . وهو يتأثر في الشطر الأول من نظريته بفكرة الجاحظ التي ذهب فيها إلى أن مرجع الإعجاز في القرآن إلى نظمه وأسلوبه العجيب المباين لأساليب العرب في الشعر والنثر ، وما يطوى فيه من سجع[2] . أما في الشطر الثاني من نظريته فيتأثر بفكرة الرماني الذي ذهب الى أن القرآن يرتفع الى أعلى طبقة من طبقات البلاغة[3] .

ويحاول الباقلاني تفسير نظريته ، فيتحدث عن نظم القرآن ، ويقول : إنه مخالف للمألوف من كلام العرب ، وله أسلوب يتميز به يباين أساليبهم في الكلام الموزون والمنثور بضربَيْهِ من السجع والترسل ، وهو أسلوب فريد ، تطّرد فيه البلاغة اطراداً يشمل جميع آياته دون أي تفاوت[4] ، بخلاف كلام الفصحاء ، فإنه يتفاوت ، ويتخالف من موضوع الى موضوع . ومن أجل ذلك كان النقاد يلاحظون على الشعراء تقصيرهم في بعض الموضوعات وأنهم يحسنون في بعضها دون بعض .

ويقول : إن القرآن يخرج في بلاغة صوغه عن طريق الإنس والجن ، كما أنه يتفوق على كلام البشر في إيجازه ، وإطنابه ، وصُوَرِهِ البيانية والتعبيرية ، ومن تمام

(١) إعجاز القرآن ص ٥١ (٢) البيان والتبيين ١ / ٣٨٣

(٣) إعجاز القرآن للرماني ص ٦٩

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني ، ص ٥٤

ذلك فيه دقة وضعه الأسماء والألفاظ لمعانيه التي لم تكن متداولة بين العرب ولا مألوفة لهم . ومما يكشف عن روعته أن الكلمة منه إذا ذكرت في تضاعيف كلام تتألق بين جاراتها تألقاً .

وقال : إن القرآن وضع حروفاً في مطالع بعض السور ، تبلغ عدتها أربعة عشر ، وهي بذلك نصف حروف المعجم . وكأنه يشير بذلك الى أن كلامه منتظم من نفس تلك الحروف التي يستخدمونها ، ومع ذلك عجزوا عجزاً تاماً عن معارضته . ويُنَوِّهُ الباقلاني بخلوه من اللفظ الوحشي المستكره ، والغريب المستنكَر ، والصنعة المتكلَّفَة[1] .

وأخذ الباقلاني بعد ذلك يصور أطرافاً مما أجمله في بيان الإعجاز ، فوقف عند إخبار القرآن عن الغيوب ، وحديثه عن القرون السالفة والأمم الدائرة . ثم عقد فصلاً لنفي الشعر عن القرآن كأن المسألة تحتاج إثباتاً . وتلاه بفصل ثان عن نفي السجع عنه. ، ردّد فيه ما ذكره الرماني من أن فواصله تباين السجع مباينة تامة ، إذ الفواصل تتبع المعنى ، أما السجع فيتبعه المعنى ، ومن أجل ذلك يتضح فيه التكلف والثقل[2] .

ثم عقد فصلاً طويلاً تحدث فيه عن وجوه البديع ، ليرى هل يمكن تعليل الإعجاز القرآني بها أو لا يمكن . وانتهى في خاتمته إلى القول : « إنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه ، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم ، والتدرب به ، والتصنع له . أما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ، ولا إمام يقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً[3] » .

ويتحدث بعد ذلك عن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن ، ويقول : إنه لا يقف عليه إلا من عرف معرفة بينة وجوه البلاغة العربية ، وتكونت له فيها مَلَكة يقيس بها الجودة والرداءة في الكلام بحيث يميز بين نمط شاعر وشاعر ، ونمط

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٧٠
(٢) المصدر السابق من ص ٧٢ إلى ١٠٠
(٣) المصدر السابق ص ١٦٩

كاتب وكاتب ، وبحيث يعرف مراتب الكلام في الفصاحة . ويسوق أمثلة من خطب الرسول وصحبه ليبين الفرق بين القرآن وكلامهم ، كما يسوق معلقة امرئ القيس ، فيدرسها ، ويبين ما فيها من عَوار وتكلف وحشو وخلل وتطويل غريب ، وتفاوت بين أبياتها في الجودة والرداءة والسلاسة والغرابة ، ويخرج بنتيجة هي أن القرآن متساوق النظم ، وهذا التساوق في جميع سوره وآياته ، بينما يتفاوت كلام البلغاء من الشعراء حتى في القصيدة الواحدة .

ثم يعقد فصلاً بعنوان « وصف وجوه البلاغة » ، وفيه يلخص الوجوه العشرة للبلاغة التي صوّرها الرماني في « النكت في إعجاز القرآن » ويعارضه معارضة شديدة ، إذ بينما كان الرماني يرى أن من وجوه إعجاز القرآن بلاغته يرفض الباقلاني ذلك الرأي ، ويدعي أن البلاغة قسمان : قسم يمكن تعلمه ، وهذا لا يكون به إعجاز ، وقسم لا يمكن تعلمه وهو المعجز . فليس التشبيه أو الاستعارة أو التجنيس بحد ذاتها معجزة ، وإنما الإعجاز هو صوغ العبارة أو نظمها صوغاً لا يمكن لبليغ أن يأتي بمثله .

ثم جاء الى مقارنة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم وقال : إن بينهما في البلاغة بوناً بعيداً هو نفس البَوْنِ بين بلاغة الذكر الحكيم وبين كلام الناس .

والخلاصة ، إن الباقلاني لم يزد على ما ذهب إليه الجاحظ من نظرية نظم القرآن ، وما ذهب اليه الرماني من بلاغة القرآن الرفيعة ، وكان أول من هاجم نظرية إعجاز القرآن عن طريق تصوير ما فيه من بديع أو بيان . ولقد كاد يصيب المَحَزَّ لو وضّح نظريته القائمة على النظم ، وفسّرها بأمثلة وتطبيقات . ولكنه لم يفعل[1] .

* * *

١٠ ــ ولمصطفى صادق الرافعي كتاب عنوانه « اعجاز القرآن والبلاغة النبوية » .
والرافعي من الأدباء المشهورين في العصر الحديث ، ومن دعائم النهضة الأدبية في العالم العربي . أصله من طرابلس الشام ، ومولده ووفاته في طنطا بمصر . له شعر ونثر ، وديوانه مطبوع ، ومن مؤلفاته النثرية : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن ، وتحت راية القرآن ، ورسائل الأحزان ، وعلى السفود ، والسحاب

(١) انظر شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٧ ــ ١١٤ .

الأحمر ، وحديث القمر ، والمعركة ـ وهو رد على كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين ـ ، والمساكين ، وأوراق الورد[1] ، ووحي القلم .

ويبدو أن سبب تأليف الرافعي لإعجاز القرآن ما أورده محمد رشيد رضا في مقدمة كتاب الرافعي أن بعض الأدعياء في القرن التاسع عشر ابتدعوا ديناً جديداً ، وصنعوا له كتاباً ، توخوا فيه تقليد القرآن في فواصله ، وادعوا محاكاته في إعجازه ، ومساهمته بأنبائه عن الأمور الغائبةوالمستقبلة . ووجد الى جانبهم فريق من الزنادقة الملحدين بآيات الله سلكوا في الدعوة إلى الكفر شعاباً ، والى الطعن باللغة العربية وآدابها ، والى استبدال اللغة العامة بلغة القرآن . إضافة الى هذا أن الكتب القديمة التي أُلِّفت في البحث عن الاعجاز ككتاب الجرجاني « دلائل الإعجاز » ، وكتاب الباقلاني « إعجاز القرآن » وغيرها لم تَعُدْ ملائمة لحاجات عصرنا ، وإن كانت في زمنها قد بلغت الغاية ، وسمت إلى الذروة[2] .

ابتدأ الرافعي كتابه بفصل مطول في تاريخ القرآن ، فتحدث عن جمعه وتدوينه ، وترتيب آيات سوره ، وقراءاته ، وقُرّائه ، وطرق أدائه .

ثم تحدث عن لغة القرآن ، وأنه أُنزل بلغة قريش التي انتهى إليها التهذيب والرقة قبيل الإسلام ، وأصبحت اللغة الرسمية للأدب والأدباء ، والجامع الذي يجمع مختلف الوفود أيام الحج والمواسم والأسواق . وعدّد الرافعي اللغات المختلفة التي وردت في القرآن ، والأحرف السبعة فيه ، واعتمد على رأي ابن قتيبة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » في بيان الأحرف ، دون أن يشير إليه بكلمة ، شأنه في ذلك شأن كل الآراء التي نقلها في كتابه عن الأقدمين دون أن يشير الى المصدر الذي يعتمد عليه في نقله .

ثم جاء الى بحث مفردات القرآن ، فنفى أن يكون فيه لفظٌ مُنْكَر ، أو نافر ، أو شاذ،لأن اللفظة الغريبة هي التي يحكم عليها أهل العلم والتأويل لا الجهلة والغافلون ، ولم يقل أهل الثقة بذلك أبداً . وأورد الرافعي نقلاً عن السيوطي وغيره الألفاظ الأعجمية التي وردت في القرآن ، واعتمد على رأي ابن جني الذي يقول عنها : إنها ألفاظ أخرجتها العرب على أوزان لغتها ، وأجرتها في فصيحها ، فصارت

(١) انظر الأعلام للزركلي ١٣٧/٨ .

(٢) انظر مقدمة إعجاز القرآن للرافعي بقلم محمد رشيد رضا ص ١٤ ـ ١٩

بذلك عربية ، ونقل تعليله لسبب عجمتها بأنها لا يسد غيرها مسدّها إلا أن توضع لمعانيها ألفاظ جديدة على طريقة الوضع الأول ، فيكون قد خاطب العرب بما لم يوقفهم عليه ، وما لا يدركون بفطرتهم اللغوية وجه التصرف فيه ، وليس ذلك مما يستقيم به أمر ، ولا هو عند العرب من معاني الإعجاز في شيء ، لأن الوضع يعجز أهله ، وهم كانوا أهل اللغة . ولذا قال العلماء : إن بلاغتها في نفسها أنه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات لا إفراداً ولا تركيباً[1] .

ثم تحدث عن تأثير القرآن في اللغة ، تحدث عن الجنسية العربية فيه حيث جعل العربية لغة الإسلام ، وحيث حفظ اللغة على صفائها منذ نزل الى يومنا هذا ، وحفظ على العرب صفاتهم الأصيلة من الأنفة والعزة والغلب .

ثم خصص فصلاً لآداب القرآن ، فذكر منها التربية النفسية للفرد ، وللجماعة ، والتربية العقلية ، والشرعية ، والاجتماعية ، والروحية ، وضرب عليها أمثلة عدة من القرآن ، ثم قال : فلما ضعفت أخلاق القرآن في نفوس أهله ، لم ينفعهم العقل الذي أفادوه من استفاضة العلوم بينهم ، واستبحار فنونها[2] . وما فرَّط المسلمون في آداب هذا القرآن الكريم الا منذ فرطوا في لغته ، فأصبحوا لا يفهمون كَلِمَهُ ، ولا يدركون حِكَمَهُ ، ولا ينتزعون أخلاقه وشِيَمَهُ .

ثم عقد فصلاً عن القرآن والعلوم ، فذكر في مطلعه حِرْصَ القرآن على العقل ، ثم تكلم عن العلوم التي أوجدها القرآن من بحث في لغته ، ومن نحو وصرف ، وتفسير ، وأصول ، وخطابة ، وتاريخ وتشريع ، ومواعظ ، وفرائض ، ومواقيت ، وأدب جزل ، ونظم بديع وغير ذلك .

والرافعي من أنصار المذهب القائل : إن في القرآن لمحات عن علوم مختلفة ، كالطبيعة ، والفلك وما الى ذلك مستدلاً بقوله تعالى « سَنُرِيهِم آياتنا في الآفاق وفي أنفُسِهم حتى يتبينَ لهم أنه الحقُ ، أو لم يَكْفِ بربكَ أنه على كل شيءٍ شهيدٌ ؟[3] » ، بل الأكثر من هذا أنه استدل على مذهبه بكتاب صدر في الآستانة بعنوان « سرائر القرآن » لأحمد مختار باشا ، وبناه على سبعين آية فسرها بآخر ما انتهى اليه العلم الحديث في الطبيعة والفلك ، فاذا هي في القرآن تسبق العقل الإنساني ومخترعاته

---

(١) ص ٧٦ (٢) ص ١١٣

(٣) فُصِّلتْ ، ٥٣

بأربعةَ عَشَرَ قرناً الى زمننا[1] ، ومن أجل هذا الكتاب عقد الرافعي فصلاً جعل له عنوان الكتاب ذاته « سرائر القرآن » . ولزيادة توثيق مذهبه ساق الرافعي تفسير آية « ولقد خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلاَلَة مِنْ طِيْنٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قرارمَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخلَقْنَا العَلَقةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المضْغَةَ عظَاماً ، فكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ، ثم أَنْشَأْنَاهُ خَلْقَاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ[2] » فسرها داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة/١٥٩٩م تفسيراً طبياً ، فأفرد الرافعي لها فصلاً بعنوان « تفسير آية[3] » ليدل من جملة ما يدل على إعجاز القرآن .

ثم استعرض ما قاله القدماء من المؤلفين في الإعجاز ، وحمل حملة شعواء على النظّام وسماه « شيطان المتكلمين[4] » ، ورمى المؤلفين بشيء من التقصير ، ولا سيما الباقلاني ، وقد وصف كتابه بقوله[5] : « .. وكأنه في غير ما وضع له ، لما فيه من الإغراق في الحشد ، والمبالغة في الاستعانة ، والاستراحة الى النقل ... » .

وزبدة الكتاب تأتي في بحث المؤلف عن إعجاز القرآن ، فيتحدث بفصل طويل عن أسلوبه الذي أعجز العرب عن التحدّي ، ثم انقطاعهم عن معارضته ، وإقرارهم بعجزهم . وفي فصول متلاحقة بَيَّنَ أن الإعجاز فيه اعتمد على الحروف وأصواتها وما تضمه من موسيقى ، وعلى كلماته التي ما فيها حشو أو زيادة ، وعلى جمله المتناسبة المتناسقة ، وعلى غرابة تراكيبه التي لم يألفها العرب البلغاء .

والخلاصة ، لم يختلف الرافعي في بحثه عن الجاحظ الذي ذكر أن الإعجاز كامن في نظم القرآن ، وعن ابن قتيبة الذي ذكر من جملة ما ذكر أن الإعجاز كامنٌ في الموسيقى القرآنية الصادرة عن حروفه وكلماته وتراكيبه وجمله ، وعن الجرجاني الذي حلل الصور الفنية في القرآن وبين الفرق بينها وبين كلام العرب الفصحاء . واذا كان قد أتى بجديد فهو في إدخاله « سرائر العلوم » على معاني الإعجاز ، وفي هذه كان مسبوقاً ، علماً بأن كثيراً من الناس يرى أن القرآن ليس كتاب علوم ، وليس يعيبه إنْ لم تُذْكَر العلوم المختلفة فيه . ونسي ما أشار إليه القدماء من وجوه إعجازه كالإخبار بالغيب ، والحديث عن الماضي ، وهو الأميّ الذي

---

(١) ص ١٤٥
(٢) المؤمنون ، ١٤
(٣) ص ١٥٢
(٤) ص ١٦٢
(٥) ص ١٧٢

لم يدرس على يد أحد ، كما نسي الآثار النفسية التي يطبعها القرآن في قارئه أو سامعه . هذا بالإضافة إلى أسلوب جزل ، قويّ ، محكم ، يميل إلى السجع إذا أمكن السجع ، والتعقيد اذا أمكن التعقيد ، وما كان أكثر ذلك في معظم صفحات الكتاب . كذلك كنا نود لو ذكر الرافعي في هوامش صفحات الكتاب المصادر والمراجع التي اعتمد عليها ، ولكنه كان في الغالب يتجاهل هذه الناحية ويهمل ذكرها .

الباب الخامس

أسلوب القرآن

مقدمة

لكلمة « الأسلوب » في المعنى اللغويّ معان عدة ، منها : السطر من النخيل، والطريق بين الأشجار ، والوجه ، والمذهب ، وطريقة المتكلم في كلامه .

أما « الأسلوب » في الأدب فهو الطريقة التي يسلكها الانسان في تأليف كلامه ، واختيار ألفاظه .

والذي نعنيه بـ « أسلوب القرآن » هو الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه ، واختيار ألفاظه .

ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به ، فإن لكل كلام إلٓهي أو بشريّ أسلوبه الخاص به . وأساليب الأدباء من كتّاب وشعراء تتعدد بتعدد أشخاصهم ، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها ، والفنون التي يعالجها .

إن الأسلوب غير المفردات ، والتراكيب التي يتألف منها الكلام ، وإنما هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه . وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف الأدباء ، مع أن المفردات التي يستخدمونها واحدة والتراكيب في جملتها واحدة ، وقواعد صوغ المفردات وتركيب الجمل واحدة .

إن القرآن لم يخرج عن معهودِ العرب في لغتهم ، فمفرداته مفرداتهم ، وجُمَلُه جُمَلُهم ، وقواعدُ صوغِه قواعدُهم . من حروف العرب تألفت كلماته ، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه ، وعلى قواعدهم جاء تأليفه ، ومع هذا فقد أعجزهم بأسلوبه الفذّ ، ومذهبه الكلامي المعجز ، ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه لأمكن أن يُتَلَمَّس لهم عذر، وأن يسلم لهم طعن أوشبه طعن[1] .

« إنا أنزلناه قرآنا عربيا[2]».

إن في مفردات اللغة ما هو متآلف في حروفه ، أو متنافر ، وما هو واضح مستأنس أو خفي غريب ، وما هو رقيق خفيف على الأسماع أو ثقيل كريه تمجه الأسماع ،

---

(١) مناهل العرفان ٢ / ٢٠٠ (٢) يوسف ، ٢

وما هو موافق لقياس اللغة أو مخالف له . ثم من هذه المفردات عام وخاص ، ومطلَق ومقيّد ، ومُجْمَل ومُفَصَّل ، ومعرَّف ومنكَّر ، وظاهر ومضمر ، وحقيقة ومجاز .

كذلك التراكيب منها ما هو حقيقة ومجاز ، ومنها متآلف الكلمات ومتنافرها ، وواضح المعاني ومعقَّدها ، وموافقٌ القياس اللغوي وخارج عنها . ومنها الاسمية والفعلية ، والخبرية والإنشائية ، وفيها النفي والإثبات ، والإيجاز والإطناب ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، إلى غير ذلك . . .

من هذه الأمور التي ذكرناها ينفذ الأدباء الى أغراضهم في تعبيرهم ، ولكن ما كل ما ذكرناه صالح لكل تعبير ، بل لكل مقام مقال ، فما يجمُل في موطن قد يقبُحُ في آخر ، وما يجب في مقام يمتنع في مقام آخر . ولولا هذا لكان الوصول إلى الطرف الأعلى من البلاغة هيِّنا ، وَلَتَساوى إنتاج الأدباء جميعا قَدْراً ورفعة . ولكن دون ذلك خَرْطُ القَتاد .

يقولون : الأسلوب هو الرجل . وصحيح ما يقولون . ذلك أن الأسلوب يعني الصورة الفنية ، أو الطابع الخاص ، أو المزاج الشخصي الذي تهيأ للأديب عند صوغه الأثر الفني . ولا شك أن الأدباء يتفاوتون في التفكير والإحساس والبراعة وتتفاوت من ثَمَّ قِيَمُ آثارِهم الفَنِّية بتفاوُتِ شُخُوصِهم وَمُكَوِّناتها .

لكنّ منشئ القرآن ليس بشراً ، وإنما هو خالق البشر ، لذلك لم يظفر الوجود بأسلوب بلغ الإعجاز إلا في القرآن العظيم . وهيهات أن يستطيع مُحمَّد وغير محمد من البشر أن ينشئ آيةً واحدة من إبداعه تشبه أسلوبه ، وتتحدَّى بيانه .

إن الذي خلق السموات والأرضَ ، والجنَّ والإنس ، والوجود وما قبله وبعده هو الذي أنزل القرآن وفَصَّله تفصيلا .

الله الذي انتهت اليه الاحاطة بجميع أحوال الخلق وحده ، هو القادر على تضمين كلامه كل المناسبات التي اقتضتها الأحوال الكثيرة التي لم يحط ولن يحيط بها سواه[1] .

ومع هذا فسنحاول – قدر المستطاع – بيان جمال الأسلوب القرآني ممَثَّلاً بالعناصر التالية :

---

(١) مناهل العرفان ٢ / ٢٠٤

الفصل الأول

المفردة القرآنية

تمتاز المفردة القرآنية بميزات ثلاث رئيسية :

١ ــ جمال وقعها في السمع

٢ ــ اتساقها الكامل مع المعنى .

٣ ــ اتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى

قد نجد في أسلوب بعض الأدباء كالجاحظ والمتنبي بعض هذه الميزات الثلاث ، أما أن تجتمع كلها معا ، وبصورة مطردة لا تتخلف أو تشذّ ، فذلك مما لم يتوافر إلا في القرآن .

انظر إلى قوله تعالى في وصف كلّ من الليل والصبح : « واللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ ، والصبح إذا تنفَّسَ[1] » ألا تشم رائحة المعنى قوية من كل من هاتين الكلمتين : عسعَس وتنفَّس ؟ ألا تشعر أن الكلمة تبعث في خيالك صورة المعنى محسوساً مجسماً دون حاجة للرجوع الى معاجم اللغة ؟ . وهل تستطيع أن تصور إقبال ظلام الليل ، وتمدُّده في الآفاق المترامية بكلمة أدل من « عسعس » ، أو هل تستطيع أن تصور انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من « تنفس » ؟ ، بل هل تجد في المعاجم أدقّ من هاتين الكلمتين في التعبير عن هذين المعنيين[2] ؟ .

اقرأ قوله تعالى : « يا أيُّها الذين آمنوا ، ما لَكُمْ إذا قيل لكم : انفِروا في سبيلِ اللهِ اثّاقَلْتُم إلى الأرضِ[3] » . وادرس الأداء الفنيّ الذي قامت به لفظة « اثّاقلتم » بكل ما تكونت به من حروف ، ومن صورة ترتيب هذه الحروف ، ومن حركة التشديد على الحرف اللّثوي « الثاء » والمدّ بعده ، ثم مجيء القاف الذي هو أحد حروف القلقلة ، ثم التاء المهموسة ، والميم التي تنطبق عليها الشفتان ويخرج صوتها

---

(١) التكوير ، ١٧ ــ ١٨

(٢) من روائع القرآن ص ١٤٢

(٣) التوبة ، ٣٨

من الأنف ، ألا تجد نظام الحروف ،وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحت اليك بالمعنى ، قبل أن يَرِد عليك المعنى من جهة المعاجم ؟ ألا تلحظ في خيالك ذلك الجسم المثّاقل ، يرفعه الرافعون في جهد ، فيسقط في أيديهم في ثقل ؟ ألا تحسّ أن البطء في تلفظ الكلمة ذاتها يوحي بالحركة البطيئة التي تكون من المثّاقل ؟ .

جرب أن تبدل المفردة القرآنية ، وتحل محلّها لفظة « تثاقلتم » . ألا تحس أن شيئاً من الخفة ، والسرعة ، بل والنشاط أوحت به « تثاقلتم » بسبب رصف حروفها ، وزوال الشَّدَّة ، وسبق التاء قبل الثاء ؟ . إذن ، فالبلاغة تتم في استعمال « اثّاقلتم » للمعنى المراد ، ولا تكون في « تثاقلتم » .

وتستطيع أن تقيس على المثال السابق قوله تعالى : « وإنْ منكم لَيُبَطِّئَنَّ[1] » . وإنك لَمُدرِكٌ أنَّ صورة التبطئة أدتها الكلمة « ليبطّئن » بجرسها إضافة إلى ما أدته النونات في الكلمتين السابقتين من تأكيد لهذا الجَرْس الخاص .

إن الأمثلة في القرآن أكثر من أن تعدّ وتحصى ، وكلها تؤيد هذه النظرية ، وتشير إلى أن جرس المفردات القرآنية يوحي بمعناها قبل أن يوحي مدلولها اللغوي عليه .

وهناك مفردات قرآنية من نوع آخر ، يرسم صورة الموضوع ، لا بجرسه الموسيقي ، بل بظله الذي يلقيه في الخيال . وللألفاظ ـ كما للعبارات ـ ظلال خاصة يلحظها الحس البصير ، حينما يوجه إليها انتباهه ، وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية .

مثال ذلك : « فَأَصْبَحَ في المدينةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ[2] » فمفردة « يترقب » ترسم هيئة الحَذِرِ المتلفت في المدينة التي يشيع فيها الأمن والاطمئنان ، في العادة .

وقد يشترك الجَرْس والظل في مفردة واحدة . كقوله تعالى : « يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّم دَعّاً[3] » فمفردة « يُدَعُّونَ » أو « دَعّاً » يصور مدلولها بجرسه وظله جميعاً . ومما يلاحظ هنا أن « الدعّ » هو الدفع في الظهر بعنف ، وهذا الدفع ـ في كثير من الأحيان ـ يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إراديّ ، فيه عين ساكنة هكذا : في جرسه أقرب ما يكون الى جرس « الدعّ[4] » .

---

(١) النساء ، ٧٢ (٢) القصص ، ١٨ (٣) الطور ، ١٣
(٤) التصوير الفني ص ٧٩

اقرأ قوله تعالى : « يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ، ارجِعي إلى ربِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فادْخُلي في عِبادي ، وادْخُلي جَنَّتي[1] » .

وتأمل ما ضمت من مدود : يا ـ ها ـ جعي ـ الى ـ را ـ خلي ـ في ـ عبا ـ دي ـ خلي ـ تي .

وما ضمت من تشديد : أيّتها ـ النّفس ـ المطمئنّةَ ـ ربّك ـ ضيَّة ـ جنّتي .

وما ضمت من نونات : النّفس ـ المطمئنّة ـ راضيتَنْ ـ مرضيتنْ ـ جَنّتي .

وما ضمت من حركات الكسر : جعي ـ ربّك ـ خُلي ـ في ـ دِي ـ خلي ـ نّتي .

ثم تصور أنَّ الميت مسجىّ في كفن ، والقبر فاغرٌ فاه ، ينتظر ضيفه الجديد ، ليضمّه حيناً من الزمن ، ثم يُسْلِمه إلى الأبدية الخالدة التي لا نهاية لها ، وتصور كذلك الدموع الصامتة يذرفها الأهل والأحباب لفراق عزيز أو حبيب ، عاش معهم حيناً من الزمن ، ثم فارقهم إلى سفر طويل ، لا عودة منه ، وتصوَّر الصراعَ النفسيّ في قلوبهم : فَرَحٌ فيما هو مقبل عليه من رحمة الله ونعيمه ، وحزنٌ إنساني لا بدَّ منه عند الوداع؛ فهل تجد أوقع أثراً ، وأدق تعبيراً عن هذا الموقف الجليل ، وهذا الحزن ، وتلك الدموع ، وذلك الأمل العريض مما جاءت به تلك المفردات بكل ما حملت من مدود ، وشَدَّات ، وغُنّات ، وحركات كسر ، ونونات ؟؟ وجرب أن تعيد قراءة الآيات مرات عدة ، وتأمل في الحروف ورصفها ، والمفردات كلٍّ منها على حدة ، ثم في مجموعها وتناسقها ، فلسوف تجد الحزن والرضى ، والطمأنينة قد امتزجت امتزاجاً تاماً . وهيهات هيهات لإنسان ـ مهما أوتي حظاً من الذوق والأدب ـ أن يبلغ الى هذا المستوى المعجز ، ولو كان محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وليس في القرآن ترادف ، لأن كل كلمة تحمل معنى خاصاً معيناً ، لا تحمله الكلمة الثانية . وخير دليل على ما نقول قوله تعالى : « قالتِ الأعرابُ : آمنّا . قلْ : لم تُؤمِنُوا ، ولكنْ قولوا : أسْلَمْنا ، ولمّا يدخُلِ الإيمانُ في قلوبكم[2] » فالإسلام غير الإيمان ، والفرق بينهما شاسع ، وشتان بين التصديق الظاهري في الجوارح ، وبين الإيمان القلبي الذي يقرن القول بالفعل .

---

(١) الفجر ، ٢٧ ـ ٣٠ (٢) الحجرات ، ١٤

استمع إليه في قوله : « وإذْ نَجّيْنا كم من آل فرعونَ ، يَسُومونكم سوءَ العذاب ، يُذَبِّحُون أبناءَكم ، وَيَسْتحْيون نساءَكم ، وفي ذلكم بَلاءٌ من ربِّكم عظيم[1] » . إنه استخدم مفردة « يذبّحون » مشددة الباء ، ولم يستخدمها دون تشديد ، مراعياً بذلك تصوير ما حدث أولاً ، وكثرة ما حدث ثانياً . ونوع ما حدث ثالثاً . ولو جئنا بغيرها ما سدّ مسدّها .

وانظر قوله تعالى : « إنَّا نخافُ من ربّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَريراً ، فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ اليوم ، ولَقَّاهُمْ نَضْرَةً وسروراً[2] » ألا تجد مفردة « العَبُوس » فيها دقة بالغة حين صورت نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم ، إنهم يجدونه عابساً مكفهراً ، وما أشد اسوداده ، فيه يفقد المرء الأمل والرجاء . وكلمة « قَمْطريراً » بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم ، وفي كلمتي « النَّضْرَة والسرور » تعبير دقيق عن المظهر الحسيّ لهؤلاء المؤمنين ، وما يبدو على وجوههم من الإشراق ، وعما يملأ قلوبهم من البهجة .

ومن دقة التمييز بين معاني الكلمات ما نجده من التفرقة في الاستعمال بين « يعلمون » و« يشعرون » . فالعلم خاص بالعقل ، والشعور خاص بالحواس . وتأمل قوله تعالى : « ألا إنّهمْ هُمُ السُّفَهاءُ ، ولكنْ لا يَعْلَمون[3] » . فالسفاهة أمر مرجعه إلى العقل . وقوله تعالى : « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُّ من ربهم[4] » وقوله : « أولا يعلمون أن الله يَعْلمُ ما يُسِرّونَ وما يُعْلِنون[5] » ، وقوله : « والذين آتيناهم الكتابَ يَعْلَمُون أنه منزّل من ربّك بالحق[6] » ، وقوله : « ألا إنَّ وعْد الله حقّ ، ولكنّ أكثرهم لا يعلمون[7] » إلى غير ذلك من الآيات .

وتأمل كيف استعمل فعل الشعور : قال تعالى : « ولا تقولوا لمن يُقْتَلُ في سبيل اللهِ أمْواتٌ ، بل أحْياءٌ ، ولكن لا تشعرون[8] » أليست الرؤيةُ إحدى الحواس ؟ وقال : « واتَبعُوا أحْسنَ مَا أُنْزل إليكم مِنْ رَبّكُم مِنْ قَبْل أنْ يَأتيكم العذاب بَغْتَةً وَأنتم لا تَشْعُرون » أوليس العذاب مما يُشْعرُ به ويُحسُّ ؟ . وقال : « وإذا قيل لهم :

---

(١) البقرة ، ٤٩ (٢) الإنسان ، ١٠
(٣) البقرة ، ١٣ (٤) البقرة ، ٢٦
(٥) البقرة ، ٧٧ (٦) الأنعام ، ١١٤
(٧) يونس ، ٥٥ (٨) البقرة ، ١٥٤

لا تُفْسِدُوا في الأرض . قالوا : إنَّمَا نَحْنُ مَصْلِحون . ألا إنهم هُم المفسِدونَ . ولكنْ لا يَشعُرون[1] » وغير ذلكَ كثير .

وقد يحتاج المرء الى التريث والتدبر ، ليدرك السرَّ في إيثار كلمة على أخرى ، ولكنه لا يلبث أن يجد سموّ التعبير القرآني . من ذلك قوله تعالى : « قالوا : إنْ هذانِ لسَاحِرانِ ، يُريدانِ أنْ يُخرجاكم من أرضكم بسِحْرِهما ، ويَذْهَبا بطريقتكم المُثْلَى ؛ فأجْمِعُوا كيدَكم ، ثُم ائتوا صفّاً ، وقد أفلَحَ اليوم من استعلى . قالو ا : يا موسى ! إمّا أنْ تُلْقِيَ ، وإما أنْ نكونَ أوّلَ مَن ألقى[2] » . قد يبدو للعَجْلان المتسرِّع أن يقول : إما أن تلقي وإما أن نلقي . وربما توهم أن سرَّ العدول عن هذا التعبير المتوهم يعود الى رعاية النغمة الموسيقية ، لتتفق الفواصل في الأداء . ذلك ما يبدو بادئ الرأي . أما النظرة المدققة فإنها تكشف رغبة القرآن في تصوير نفسية هؤلاء السَّحَرَة ، وأنهم لم يكونوا يوم تحَدَّوْا موسى بسرهم خائفين ، أو شاكين في نجاحهم ، وانما كان الأمل يملأ قلوبهم ، في نصر مؤَزَّرٍ عاجل ، فهم لا ينتظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه ، بل كانوا مؤمنين بالنصر ، سواء أألقى موسى أولاً ، أم كانوا هم أول من ألقى .

ذلك شيء ، وهناك إلى جانبه شيء آخر ، هو التصوير . فاللفظة ليست وعاء معنى دقيق فحسب ، وانما هي مصدر صورة لها أبعاد ، وظلال ، وحياة . وما أكثر الأمثلة .

* * *

أما التناسق فنعني به : اتساق القرآن ، وائتلاف حركاته وسكناته ، ومَدَّاته ، وغُنَّاته ، واتصالاته وسكتاته .

ذلك ما يسترعي الأسماع ، ويستهوي النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر ، من منظوم ، أو منثور .

وبيان ذلك أن من ألقى سمعه الى مجموعة القرآن الصوتية ، وهي مرسلة على وجه السذاجة في الهواء ، مجردة من هيكل الحروف والكلمات ، كأن يكون السامع بعيداً عن القارئ يشعر من نفسه ــ ولو كان أعجمياً ــ بأنه أمام لحن غريب ،

---

(١) البقرة ، ١٢ (٢) طه ، ٦٤

وتوقيع عجيب ، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى ، وترنيم الشعر .

وهذا الجمال الصوتي ، والتناسق الفني ، والإيقاع الموسيقي هو أول شيء أحسّته الأذن العربية يوم نزل القرآن وتلاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن من قبل عهدت مثله في منثور الكلام ومنظومه . خيل إليهم أول الأمر أنه شعر ، لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة ، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع هزة ، لم يعرفوا قريباً منها إلا في الشعر ، ولكن سَرْعان ما عادوا إلى تخطئة أنفسهم فيما ظنوه شعراً . حتى قال قائلهم ـ وهو الوليد بن المغيرة ـ : « وما هو بالشعر » معللاً ذلك بأنه ليس على أعاريض الشعر في رَجَزِه ولا في قصيده .

أما تناسق حروف القرآن وكلماته ، فأمرها عجيب . ذلك أنك إذا استمعت الى حروف القرآن خارجةً من مخارجها الصحيحة تشعر بتناسق رصف الحروف ، بعضها بجانب بعض ، في الكلمات والآيات . هذا حرف ينقر ، وذاك يصفر ، وهذا يخفى ، وذاك يظهر ، وهذا يهمس ، وذاك يجهر .

من هنا يتجلى جمال لغة القرآن ، حين خرج الى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة ، الجامعة بين اللين والشدة ، والخشونة والرقة ، والجهر والخفية ، على وجه دقيق محكم ، وضع كلاً من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان ، حتى تألّف من المجموع قالب مدهش ، وقشرة سطحية أخاذة ، امتزجت فيها البداوة في غير خشونة ، برقة الحضارة من غير ميوعة ، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يُسْرٍ وسهولة .

هذا التناسق الذي لا يمكن التعبير عنه ، وهذا النظام الصوتي ، وهذا الجمال اللغوي كانت سُوراً منيعاً لحفظ القرآن بحيث لو داخله شيء من كلام الناس لاعتل مَذاقه ، واختل نظامه .

الفصل الثاني

الآيـة وصياغتها

إن دراسة الآية تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة لأن هذه أساس الآيـة ومنها تركيبها . والذي نعنيه بالآية ما نعنيه بالجملة على وجه التقريب .

وإذا كان علماء المعاني يجعلون البلاغة درجات ، فانهم مُقِرّون ـ دون جدال ـ أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته .

ويضربون على ذلك الأمثلة الكثيرة :

منها : أن للمخاطب الخالي الذهن من الحكم أسلوباً يختلف عن مخاطبة المتردد ، أو المنكر ، وقد جاءت الآية القرآنية مصداق ذلك : « واضربْ لهم مَثَلاً أصحابَ القَرْية ، إذْ جاءها المُرْسَلُون . إذْ أرسَلْنا إليهمُ اثنَيْن ، فكذَّبُوهما ، فَعَزَّزنا بثالِث ، فقالوا : إنّا إليكم مرسَلُون . قالوا : ما أنتم إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا ، وما أنزلَ الرحْمَنُ من شيءٍ ، إنْ أنتم إلاّ تكْذِبُون ، قالوا : ربُّنا يَعْلَمُ إنّا إليكم لمُرْسَلُون[1] » .

إنه قال في المرة الأولى : « إنا إليكم مُرْسَلُون » .

وقال حين اشتد إنكارهم في المرة الثانية : « إنّا إليكم لَمُرْسَلُون » .

ويتحدثون عن المواضع التي يذكر فيها المسنَدُ إليه ، ومن جملتها الموطن الذي يكون فيه السماع محبوباً أو مطلوباً . ويوردون الآية الكريمة « وما تِلْكَ بيمينِك يا مُوسى ؟ قال : هي عَصَايَ ، أتَوكَّأُ عليها ، وأهُشُّ بها على غَنَمي ، وليَ فيها مآرِبُ أخرى[2] » ولولا المقام المحبوب لكفاه أن يقول : « عصا » لأن « ما » للسؤال عن الجنس ، فزاد المبتدأ ، وأضاف العصا ، وبسط الكلام .

ألا يشبه هذا الإسهاب في الحديث ، ورغبة الإطالة فيه موقف حبيب أمام

---

(١) يس ، ١٣ (٢) طه ، ١٨

حبيب ؟ أو لا يشعر المحِب أنه يرغب أن يحكي ويحكي كل شيء أمام حبيبه ، صَغُر موضوع حديثه أو عظم ؟ بل ألا يطلب المحبوب أو المحب من قسيمه أن يتحدث إليه بأي حاجة ، ويطلب منه أن يقول ويقول ، ويتمنى أن يقف الزمن ولا يقف الحديث ؟ ؟

وموسى عليه السلام في مناجاة الله يشبه حالة المحب والمحبوب ، وهل أحبُّ إلى قلب الرسول موسى من أن يحدث محبوبَه وآلهَه وخالقَه ، ويبسط أمامه الحديث غير مختَصَر ولا متعَجَّل ؟ وهل أحب عند الله من أنبيائه ؟ أوليس هو ـ جلَّ جلاله ـ اختارهم رسلَه وسفراءه ؟ ولهذا فحين سأله الله ـ تعالى ـ : « وما تِلكَ بيمينك يا موسى ؟ » **قال موسى ـ عليه السلام ـ : « هي عصَاي ، أتوكَّأُ عليها ، وأهُشُّ بها على غَنَمي ، ولِيَ فيها مآرِبُ أخرى »** .

ما اروع البلاغة التي تضع كل شيء موضعه ، وتقدر الكلام بحسب المقام ...

وإذا قالوا : إن الحديث مع الملوك والعظماء يُستحَب فيه الاختصار ، ويجمل فيه الإيجاز، والله ملك الملوك، بل هو خالق الملوك والمملوكين، ولذا فالأنسب أن يكون موسى قد اختصروا اكتفى بالإشارة عن العبارة ، وبالتلويح عن التصريح . فإنا نقول : ولكنْ : أين تذهب عاطفة الحب ، وحرارة المشاعر ، وخفقة القلب العاشق ؟ وهل يقاس موقف الحبيب مع المحبوب على كل موقف آخر في الوجود ؟؟

لذلك ، فقد صوّر القرآن التعبير في أروع ما يجب أن يكون عليه التعبير : « هي عصاي ، أتوكأ عليها ، وأهُشُّ بها على غَنَمي ، ولِيَ فيها مآربُ أُخرى »

وقالوا : ان « ما » الموصولية تكون للتفخيم ، بدليل قوله تعالى : « فَغَشِيَهُمْ من اليَّم ما غَشِيَهُمْ » ويرون أن استعمال « ما » في الآية أغنت عن قول أديب : فغشِيَهُمْ من اليّم دُوار ، أو صداع ، أو امتناع عن الطعام والمنام ، وما شابه ذلك من كروب البحر . وكل هذه التعابير لا تفيد ما أفاد ما في إبهام « ما غشيهم » من التفخيم والتهويل . وكأنه يشير بمثل ذلك التعبير الى أن ما غشيهم من أهوال البحر لا تقوى عبارات الأبْيِنَاءِ من البلغاء على التعبير عنها .

وتحدثوا مسهبين عن البلاغة في استعمال الحروف ، ومنها حروف العطف . وجاءوا بالآية القرآنية مثالاً على أروع استعمال لها في قوله تعالى : « الذي خَلَقَني فهو يَهْدِين . والذي هُو يُطْعِمُني ويسْقِين . وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفِين . والذي

يُمِيتُني ثم يُحْيِين . والذي أطمعُ أن يغفِرَ لي خطيئتي يومَ الدّين[1] » ، فقد عطف في الآية الأولى بالفاء لتعقب بلا مهلة الهداية للخلق ، وكذلك كان العطف بالفاء في الآية الثالثة ليعقب الشفاء بالمرض بسرعة ، وعطف في الآية الثانية بالواو لمجرد الجمع ، وكان العطف في الآية الرابعة بـ « ثم » لتراخي الاحياء عن الإماتة .

ويقول البلاغيون : إن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث ، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستقرار . ولكل منهما مكان لا يصلح للآخر ، والبلاغة الحقة تكون في اختيار الجملة الخاصة للمعنى الخاص . انظر الى قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين دخلت عليه الملائكة وحَيَّتْهُ ، فرد عليها بتحية أحسن منها . وكل ما فعلته الملائكة أنْ حيته بالجملة الفعلية المناسبة للمقام ، فرد عليها بخير من تحيتها ، فحياها بجملة اسمية . و لقد عرض القرآن الكريم بأسلوبه التحيتين في قوله تعالى :

« ولقد جاءت رُسُلُنا إبراهيمَ بالبشرى .

قالوا : سلاماً .

قال : سلام » .

فأصل سلام الملائكة : نسلِّم عليك سلاماً .

وتقدير سلام إبراهيم : سلام عليكم .

ومن روائع صياغة الجمل القرآنية تلك التي فيها أسلوب القَصْر . من ذلك مثلاً قوله تعالى في وصف خمور الجنة « لا فيها غَوْلٌ » فقد قدم تعالى الجار والمجرور ليفيد قَصْر عدم وجود الغَوْل ـ الذي يغتال العقول ـ في خمور الجنة ، وليفيد في الوقت ذاته أن خمور الدنيا فيها الغَوْل والإسكار وتخريب العقول .

ونلاحظ أنه في جملة واحدة نفى وأثبت ، وقرر عدداً من الحقائق ، وشرّع وهدى ، وما كانت الجملة لتزيد على ثلاث كلمات فقط .

والمثال المعاكس قوله تعالى في وصف القرآن الكريم « لا رَيْبَ فيه » لم يقدم الجار والمجرور كما فعل في الجملة السابقة ، لأنه أراد من هذا الترتيب للجملة « لا ريب فيه » أن ينفي الريبَ عن القرآن الكريم وحده ، دون أن يتعرض للكتب السماوية الأخرى بمدح أو غير مدح . ولو عكس التعبير فقيل « لا فيه ريب » أدى الى نفي الريب عن القرآن وإثباته ـ في الوقت ذاته ـ لغيره من الكتب . وهو غير مراد .

وفي آية واحدة نستطيع أن نلحظ روعة الأداء في وضع الجار والمجرور في

مكانه الخاص الدقيق في الجملة . ليؤديَ المعنى الدقيق الخاص المطلوب ، وذلك في قوله تعالى : « وكذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتكونوا شُهَدَاء على الناس ، ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً » فقد أخّر الجار والمجرور « على الناس » في الأولى ، وقدم « عليكم » في الثانية . ولو تمعنا في الحكمة المقصودة من تأخير الأول وجدنا أن المراد منها إثبات شهادتهم على الأمم ، وسبب تقديم الثاني اختصاصهم بكوْنِ الرسول شهيداً عليهم . وفَرْقٌ كبير بين المعنيين ، وقد تم التفريق بينهما بنقل الجار والمجرور من مكان الى مكان فكان هذا التمييز .

وقد وردت في القرآن آيتان متشابهتان كل التشابه ، ولم يكن الفرق بين الأولى والثانية إلا بتقديم ضمير وتأخير آخر ، وبهذا التقديم والتأخير اختلف المعنى اختلافاً تاماً ، واختلف نوع المخاطَب باختلاف الضمير .

قال تعالى : « ولا تَقْتُلوا أولادَكم من إملاق نَحْنُ نرزُقكم وإياهُم »

وقال في آية أخرى : « ولا تقتلوا أولادَكم خَشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزُقُهم وإياكُمْ .

في الآية الأولى : « من إملاق » . وفي الثانية « خَشْيَةَ إملاق » .

في الأولى : « نحن نرزقكم وإياهم » . وفي الثانية « نحن نرزقهم وإياكم » .

الآية الأولى خطاب للفقراء الذين يعيشون حالياً في الفقر الشديد . ويقتلون أولادهم لأنهم لا يجدون هم ما يأكلون فضلاً عن أولادهم .

والآية الثانية خطاب للأغنياء الذين يعيشون اليوم في بُحبوحة وغنى ، ويخشون أن يأتي يوم يصابون فيه بفقر ، أو يخشون إن كثر عدد أولادهم ألا يَرِثُوا المال الكثير ، فتقِلَ سعادتهم ، ويتضاءلَ فرحهم ونعيمهم ، ولذلك فهم يلجؤون إلى قتل أولادهم بطريقة من الطرق .

فعبارة الآية الأولى تضمنت « من » التي تفيد السببية والتعليل ، وقدم فيها ضمير المخاطب « نرزقكم » على ضمير الغائب « وإياهم » لأن حاجة الفقير إلى أن يأكل هو ، ويقيم صلبه ، ويشد عصبه ، ألزم من حاجة ابنه الذي ولد ، أو لَمّا يولَدْ ؛ لأن الصغير لا يأكل إلا إذا كان أبوه قدعمل ، وربح ، وجاء له بطعام ، أما اذا كان الأب جائعاً ، وغير قادر من شدة جوعه على العمل ، فانه يموت أولاً ، ومن ثَمَّ يموت أبناؤه بموته .

أما الثانية التي هي خطاب الأغنياء ، فقد استخدمت مفردة « خشية » التي توحي بالخوف الآتي عَبْر المستقبل ، لا الخوف الآنيّ . وقدم فيها ضمير الغائب العائد

على الأولاد لأنه هو الأهم والمقدم .

هذا ولو أردنا ضرب الأمثلة على الألوان الأخرى من الوصل والفصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ، لضاق بنا المجال ، واحتجنا الى صفحات لا تنتهي . وكلها تؤدي إلى نتيجة واحدة هي أن هذه الآية القرآنية صيغت بأسلوب يعجز عنه البشر .

الفصل الثالث

التشبيه والاستعارة

آ ـ التشبيه :

جعل القدماء التشبيه رابطاً بين أمرين أو مفرقاً بينهما ، وأغفلوا في كثير من الأحيان وقع أثره في النفس ، وشعورها به . وليس التشبيه في واقع الأمر سوى إدراك ما بين أمرين من صلة في وقعهما على النفس ، فاعتمدوا على الجامع العقلي وعلى ما تربطه الحواس من صلة بين أطراف التشبيه ، وقَبِلوا من التشبيه ما كان فيه المشبَّه به خيالياً ، توجد أجزاؤه في الخارج دون صورته المركبة ، كقول الشاعر :

وكأنَّ مُحْمَرَّ الشَّقيقِ إذا تَصَوَّبَ أو تَصَعَّد
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْ نَ على رماحٍ من زَبَرْجَد

فهذه الاعلام لم تزدنا شعوراً بمحمر الشقيق ، ولم ترسم لنا صورته ، وخاصة إذا كنّا نجهله . والحقيقة ، أننا لا نقدّر التشبيه بنفاسة عناصره ، ولكن بقدرته على التصوير والتأثير ، فليس تشبيه ابن المعتز للهلال يرفع من شأنه أو يزيدنا شعوراً بجماله ولا أنسا برؤيته حين يقول :

انظرْ إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلتْهُ حمولةٌ من عَنْبرِ

فصوّر لنا هذا الهلالَ الجميل ، صورة شوهاء متخيَّلة ، فأين الزورق الضخم من الهلال النحيل . وإذا وازنّا بين هذه الصورة التي رسمها ابن المعتز للهلال ، وتلك الصورة التي تعبر عن الإحساس البصري والشعور النفسي معاً ، حينما تحدث القرآن عن هذا الهلال . فقال : « والقمرَ قدّرناه منازلَ حتى عاد كالعُرْجُون القديم » فهذا العرجون القديم أقدر على تصوير القمر كما تراه العين ، وكما تحسّ به

النفس ، أكثر من تصوير الزورق الفضي له ، فهذا القمر لا يزال ينتقل في منازله ، حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة دقيقاً نحيلاً محدودباً ، وكأنما هو في السماء كوكب تائه ، لا أهمية بأمره ، وإن وصف العرجون بالقدم ، يصور لنا هيئة الهلال في آخر الشهر ، ويحمل إلى نفوسنا ضآلة أمره معاً .

والقرآن حين يشبه محسوساً بمحسوس ، يرمي أحياناً إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس ، ونجد ذلك في قوله تعالى يصف سفينة نوح : « وهي تجري بهم في موج كالجبال » . فهذه الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة ، كما تصور لنا ما يحسّ به ركاب هذه السفينة ، كما يرمي أحياناً الى اشتراك الطرفين في صفة محسوسة ، ولكن للنفس كذلك نصيبها في اختيار المشبه به الذي له تلك الصفة ، فالقرآن قد شبه نساء الجنة باللؤلؤ المكنون ، فقال جل جلاله : « وحُورٍ عِينٍ ، كأمثال اللؤلؤ المَكْنُونِ » فليس اللؤلؤ المكنون لوناً فحسْبُ ، وإنما هو لونٌ صافٍ حيٌّ فيه نقاء وهدوء ، وهي أحجار كريمة ، تصان ، ويُحرَص عليها ، والنساءُ نصيبهن من الصيانة والحرص ، وهن يتّخذن من تلك الحجارة زينتهن ، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط . الصلة من حيث الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما ، وحتى في هذا الرفق أيضاً صلة تجمع بينهما . فليس الحسّ وحده هو الرابط والجامع ، ولكن للنفس نصيباً وافراً .

خصائص التشبيه في القرآن الكريم

١ ــ **يستمد القرآن الكريم عناصره من الطبيعة** ، من نباتها وحيوانها وجمادها .

فما اتُّخِذ مشبَّهاً من نبات الأرض ، العرجون ، وأعجاز النخل ، والعَصْف المأكول ، والشجرة الطيبة ، والحبة تنبت سبع سنابل .

ومما اتُّخِذ مشبَّهاً من حيوانها : العنكبوت ، والحمار ، والكلب ، والفراش ، والجمال والأنعام .

ومما اتخذ من جمادها : العِهْن المنفوش ، والجبال ، والحجارة ، والخشب .

فالقرآن لا يعنى بنفاسة المشبه به ، إنما يعني العناية كلها باقتراب الصورتين في النفس ، وشدة وضوحهما وتأثيرهما .

٢ ــ **والتشبيه ليس عنصراً إضافياً في الجملة ، ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه** ، والتشبيه يأتي ضرورة في الجملة ، يتطلبه المعنى ليصبح قوياً .

٣ ـ **دقة التشبيه** : فالتشبيه في القرآن يصف ويقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة ، فلم يكتف في تشبيه الجبال يوم القيامة بالعهن ، بل وصفه بالمنفوش اذ قال : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » للدقة في تصوير هشاشة الجبال .

٤ ـ ومن خصائص التشبيه القرآني : **مقدرته الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية** ، وهذا ما تجده في كل تشبيه قرآني ، فلقد آثر القرآن كلمة « بنيان » في قوله سبحانه : « إنّ الله يُحِبُّ الذين يقاتِلون في سبيله صفّاً كأنهم بُنْيَانٌ مَرصوص » لِما تثيره في النفس من معنى الالتحام والاتصال والاجتماع القوي ، مما لا يثار في النفس عند كلمة « حائط » أو « جدار » مثلاً .

٥ ـ ومن ميزات التشبيه القرآني أيضاً أن **المشبه قد يكون واحداً ويشبه بأمرين أو أكثر تثبيتاً للفكرة في النفس** . ومن ذلك مثلاً : تصوير حَيْرة المنافقين واضطراب أمرهم ، فإن هذه الحَيْرة يشتد تصويرها لدى النفس ، إذا هي استحضرت صورة هذا الساري قد أوقد ناراً تضيء طريقه ، فعرف أين يمشي ، ثم لم يلبث أن ذهب الضوء ، وشمل المكانَ ظلامٌ دامس ، لا يدرى السائر فيه أين يضع قدمه ، ولا كيف يتخذ سبيله فهو يتخبط ولا يمشي خطوة حتى يرتد خطوات . أو إذا استحضرنا صورة هذا السائر تحت صَيِّب من السماء قد صحبه ظلام ورعد وبرق ، أما الرعد فمتناه في الشدة الى درجة أنه يود اتقاءه بوضع أصابعه إذا استطاع في أذنيه ، وأما البرقُ فيكاد يخطف البصر ، وأما الظلمات المتراكمة فتحول بين السائر وبين الاهتداء إلى سواء السبيل .

هدف التشبيه في القرآن :

يهدف التشبيه في القرآن إلى التأثير في العاطفة ، فترغب أو ترهب ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه ، الذي يزيد نفسيتَهم وضوحاً ، ويصور وقع الدعوة على قلوبهم ، وما كانوا يقاتلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض ، يصور لنا حالهم وقد استمعوا لدعوة الداعي ، فلم تثر فيهم تلك الدعوة رغبة في التفكير فيها لمعرفة ما قد تنطوي عليه من صدق ، وما قد يكون فيها من صواب ، بل يحول بينهم وبين ذلك الكبر والأنفة . وما أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئاً ، ولم يطرق أذنه عنها نبأ ، بل ما أشبههم بمن في أذنه صمم ، فهو لا يسمع شيئاً مما يدور حوله ، وبمن أصيب بالبكم ، فهو

لا ينطق بصواب اهتدى اليه ، وبمن أصيب بالعمى .

أمّا ما يشعرون به عندما يسمعون دعوة الحق فضيق يملأ صدورهم ، كهذا الضيق الذي يشعر به ، الصاعد جبلاً ، فهو يجر نفسه ويلهث من التعب والعناء ، وهكذا صوّر الله ضيق صدورهم بقوله : « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَه يَشْرحْ صدرَه للإسلام . ومن يرد أنْ يضلَّه يجعلْ صدرَه ضيِّقاً حرجاً ، كأنما يَصَّعَّد في السماء ، كذلك يجعل الله الرِّجْس على الذين لا يؤمنون » . وما دام هؤلاء القوم لا يستخدمون عقولهم فيما خلقت له ، ولم تصغ آذانهم إصغاء مَنْ يسمع ليتدبر ، فقد وجد القرآن في الأنعام شبيهاً لهم يَقْرنهم بها ، ويعقد بينهم وبينها وثيق الصلات ، فقال تعالى : « ولقد ذَرَأْنا لجهنم كثيراً من الجِنِّ والإنس ، لهم قلوبٌ لا يفقَهون بها ، ولهم أعيُنٌ لا يُبصِرون بها ، ولهم آذانٌ لا يَسْمَعون بها ، أولئك كالأنعامِ ، بل هُمْ أضَلُّ ، أولئكَ هُمُ الغافلون » .

ونحن نرى كيف مهد لهذا التشبيه ، التمهيد الصالح ، فجعل لهم قلوباً لا يفقهون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وآذاناً لا يسمعون بها ، ونحن نراهم في أنفسنا بمنزلة البهائم ، لذا فإنّ هذا التشبيه لا غرابة فيه .

ولم يهدف القرآن في التشبيهات الى التأثير فحسب ، وانما لجأ اليها للتصوير والتأثير معاً ، فاذا أراد القرآن أن يبين قدرة الله على أن يأتي بيوم القيامة بأسرع مما يتصور المتصوّرون لجأ الى أسرع ما يراه الرائي ، فاتخذه مثلاً يؤدى الى الهدف المراد فيقول : « ولله غَيْبُ السموات والأرض ، وما أمْرُ الساعةِ الاّ كَلَمْحِ البَصَر أو هو أقربُ ، إن اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ » . ويقرّب أمر البعث إلى الأذهان بتوجيه النظر إلى بَدْءِ الإنسان ، وأنّ هذا البعث صورة من هذا البدء ، فيقول : « كما بَدَأكُم تَعُودون » .

واذا جاء يوم القيامة استيقظ الناس لا يشعرون بأنه قد مضى عليهم حين من الدهر طويل منذ فارقوا حياتهم ، ويورد القرآن من التشبيه ما يصوّر هذه الحالة النفسية ، فيقول : « ويومَ يحشرُهم كأنْ لمْ يَلْبَثُوا الاّ ساعةً من النهار يتعارفون بينهم ، قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين » . وإذا نظرنا الى قوة التشبيه مقترنة بقوله : « يتعارفون بينهم » أدركنا مدى ما يستطيع أن يحدثه في النفس من أثر ، وقد كرر هذا المعنى في موضع آخر يريد أن يثبّته في النفس ويؤكده ، فقال : « يسألونَكَ عن الساعة : أيّان مُرساها ، فيمَ أنتَ من ذِكْراها ،

إلى ربِّك منتهاها ، إنما أنت منذرُ مَنْ يخشاها ، كأنّهم يومَ يروْنها لم يلبَثوا الاّ عشيّة أو ضُحاها » . ها هم أولاء قد بُعثوا ، خارجين من أجداثهم في كثرة لا تدرك العين مداها ، وماذا يستطيع أن يرسم لنا تلك الصورة التي تدل على الغزارة والحركة والانبعاث أفضل من هذا التشبيه الذي أورده القرآن حين قال : « خُشَّعاً أبصارُهم ، يَخرُجون من الأجداثِ كأنهم جَرادٌ مُنْتَشِر » .

وحينا يصوّرهم ضِعافاً يتهافتون مسرعين إلى الداعي كي يحاسبهم ، فيجد في الفَراش صورتَهم ، فيقول : « القارعةُ ، ما القارعةُ ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكونُ الناس كالفَراش المَبْثوث » .

ويتناول المجرمين ، فيصوّر ما سوف يجدونه يومئذ من ذلة وخزي ، أما طعامهم فمن شجر الزَّقُّوم ، يتناولونها فيحسّون بنيران تحرق أمعاءهم فكأنما طعموا نحاساً ذائباً أو زيتاً ملتهباً ، واذا ما اشتد بهم الظمأ واستغاثوا قدّمت اليهم مياه كهذا النحاس والزيت تشوي وجوههم ، قال تعالى : « إنَّ شجرةَ الزَّقُّوم طعامُ الأثيم ، كالمُهْلِ يَغلي في البطون ، كَغَلْيِ الحميم » . وقال جلّت قدرته « وإنْ يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهْل يَشْوي الوجوهَ » حقاً إنّ هذا التشبيه يثير في النفس خوفاً وانزعاجاً .

وهكذا نرى أن من طبيعة التشبيه القرآني تمثيل الغائب حتى يصبح حاضراً ، وتقريب البعيد النائي حتى يصير قريباً دانياً .

ب ـ الاستعارة :

لون من ألوان التصوير في القرآن ، وهي من الأدوات المفضّلة لديه ، ومن خلالها كان يعبّر عن المعنى الذهني والحالة النفسية والحادث المحسوس ، فهو يعمد الى هذه الصورة التي رسمهافيعطيها ألوانها وظلالها ثم لا يلبث بعد ذلك أن يضيف اليها الحركة فالحوار فاذا هي شاخصة تسعى .

إن إحصاء ما ورد في القرآن منها ، وإجراءها لا يؤدي الى بيان الجمال الفني في هذا اللون من التصوير ، ومن الخير تبيان الأسرار التي دعت الى إيثار الاستعارة على الكلمة الحقيقية .

فالألفاظ المستعارة ألفاظ موحية لأنها أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه ، وتصور المنظر للعين ، وتنقل الصورة للأذن ، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محسّا ، وحسبنا أن نقف عند بعض هذه الألفاظ المستعارة

الموجبة ، ونتبين سرّ اختيارها ، قال سبحانه : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً » فكلمة « يموج » لا تقف عند حد استعارتها لمعنى « الاضطراب » بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس ، احتشاداً لا تدرك العين مداه ، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ، ترى العين منه ما تراه ، في البحر الزاخر من حركة وتموّج واضطراب ، ولا تأتي كلمة « يموج » بهذا المعنى ، ودالة عليه . وقال سبحانه : « رَبِّ ، إني وَهَنَ العظمُ مني ، واشتَعلَ الرأسُ شيباً » وهنا لا تقف كلمة « اشتعل » عند معنى انتشر فحسب ، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في بطء وثبات ، كما تدبّ النار في الفحم مبطئة ، ولكن في دأب واستمرار ، حتى اذا ما تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقي ولا تَذَر ، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب ، حتى لا يذر شيئاً الاّ التَهَمَهُ ، وأتى عليه ، وفي إسناد الاشتعال الى الرأس ما يوحي بهذا الشمول الذي التهم كل شيء في الرأس .

وقال تعالى : « وآيةٌ لَهُمُ الليلُ نَسْلَخُ منه النهارَ ، فإذا هُم مُظْلِمون » فكلمة « نسلخ » تصوّر للعين انحسار الضوء عن الكون قليلاً قليلاً ، ودبيب الظلام الى هذا الكون في بطء وحتى إذا تراجع الضوء وظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل .

وكثر في القرآن أخذ الكلمات الموضوعة للأمور المحسوسة ، يدل بها على معقول معنوي ، يصير به كأنه ملموس مرئي ، فضلاً عن إيحاءات الكلمة الى النفس ، لنأخذ مثلاً قوله تعالى : « بَلْ نقذِفُ بالحقِ على الباطِلِ فيدْمَغُه فإذا هو زاهِق » فكلمة « القَذْف » توحي بهذه القوة التي يهبط بها الحق على الباطل ، وكلمة « يدمغه » توحي بتلك المعركة التي تنشب بين الحق والباطل ، حتى يصيب رأسه ويحطمه ، فلا يلبث أن يموت ، ولنتأمّلْ قوة التعبير بالظلمات والنور يراد بهما الكفر والإيمان ، في قوله تعالى : « آلر ، كتابٌ أنزلناهُ إليك ، لِتُخْرِجَ الناسَ منَ الظلماتِ إلى النور » وجمع « الظلمات » يصوّر لنا إلى أيّ مدى ينبهم الطريقُ أمام الضالّ ، فلا يهتدي إلى الحق ، وسط هذا الظلام المتراكم .

ولْنتأمل جمالَ « أَفْرِغْ » في قوله سبحانه : « ربَّنَا أفرِغْ علينا صَبْراً » وما يثيره في النفس من الطمأنينة التي يحس بها من هَدَأ جسمه بما يُلقى عليه ، وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية ، ينالها من منح هبة الصبر الجميل ، ومن الدقة القرآنية في استخدام الألفاظ المستعارة أنّه استخدم « أفرغ » وهي توحي باللين والرفق

عند حديثه عن الصبر ، وهو من رحمته ، فاذا جاء الى العذاب استخدم كلمة « صَبَّ » فقال : « فصبَّ عليهم ربُّك سَوْطَ عذاب » وهي مُؤْذِنة بالشدة والقوة معاً .

وقد يشتد الأمر المعنوي وضوحاً في النفس ويقوى لديها قوّة تسمح بأن يكون أصلاً يقاس عليه ، كما نرى ذلك في قوله تعالى : « إنّا لمّا طغى الماءُ حَمَلْنَاكم في الجارية » ، فهنا كان الطغيان المُؤذِن بالثورة والفوران أصلاً يشبّه به خروج الماء عن حده ، لما فيه من فورة واضطراب ، وعلى هذا النسق جاء قوله تعالى : « وأمّا عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتيةٍ » فهذه الريح المدمرة ، يشبه خروجها عن حدّها العنف والجبروت .

وقد يجسّم القرآن المعنى ، ويهب للجماد العقل والحياة زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس ، وذلك بعض ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة المكنية ، ومن أروع التجسيم قوله سبحانه : « ولمّا سكَتَ عن موسى الغَضَبُ أخَذَ الألواحَ » ألا نحس بالغضب هنا ، وكأنه إنسان يدفع موسى ويحثه على الانفعال والثورة ،» ثم سكت وكفّ عن دفعه وتحريضه . ومن تعقيل الجماد قوله تعالى : « وللّذينَ كَفَروا بربهم عذابُ جهنَّم وبئسَ المَصير ، اذا أُلقُوا فيها سَمِعوا لها شهيقاً وهي تفور تكادُ تَمَيَّزُ من الغَيْظ ، كلما أُلقِيَ فيها فوجٌ سأَلَهُمْ خزنَتُها : أَلَمْ يأتِكم نذير » فهذا التميّز من الغيظ يُشعر بشدة ما جناه أولئك الكفرة ، حتى لقد شعر به واغتاظ منه هذا الذي لا يحس . هذا وقد كثر الكلام عن قوله سبحانه : « واخفِض لهما جناح الذّل من الرحمة » ورووا ما يفهم منه أن أبا تمام قلّد هذا التعبير ، فقال :

لا تسقِني مـاءَ الملام ، فـإنّـني   صَبٌّ قـد استعذبتُ مـاءَ بكائي

يروى أن أحدهم أرسل إليه زجاجة يطلب منه فيها شيئاً من ماء الملام . فقال أبو تمام : حتى تعطيني ريشة من جناح الذل ، قيل : فاستحسنوا منه ذلك .

الجمال في الاستعارة القرآنية :

من الأمثلة السالفة الذكر ، نرى أن سرّ هذا الجمال الفنيّ في الاستعارة القرآنية ، إنّما يعود الى نهج جديد ترسمته الاستعارة في القرآن ، وأهم العناصر التي جسّدت جمال الاستعارة في القرآن الكريم :

١ ـ **اختيار الألفاظ المتناسقة والمؤتلفة مع بعضها ومع معانيها** ونلمس ذلك في قوله تعالى : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قرية كانت آمنَةً مطمئنةً يأتيها رِزْقُها رَغَداً فكفرتْ

بأنعُم اللهِ فأذاقَها اللهُ لِباسَ الجوعِ والخَوْف ، بما كانوا يصنَعون » ، فعندما نتأمل هذه الآية نجدها قد ضمت استعارات اربعاً منها : استعارة القرية للأهل ، واستعارة الذوق في اللباس ، واستعارة اللباس في الجوع ، والخوف ، وهذه الاستعارات كلها متلائمة متناسبة فالرغبة في الرزق يتبعها ما يلائمها من الخوف والجوع . وقد يحتاج الأمر الى تريّث يدرك به روعة هذا التعبير فقد يبدو أن الحال تقضي أن يقال : فألبسها الله لباس الجوع ، ولأن الجوع يكسو صاحبهبثياب الهزال والضنى والشحوب آثر الذوق هنا لأن الجوع يُشْعَر به ويُذاق ، وصحّ أن يكون للجوع لباس .

٢ ـ استخدام الألفاظ الموضوعة للدلالة على الأمور الحسية في الدلالة على على الأمور المعنوية ، فتصبح بذلك الثانية محسوسة ملموسة كما في قوله سبحانه : « والشعراءُ يتّبِعُهُمُ الغَاوُون ألمْ تَرَ أنَّهم في كلِّ وادٍ يَهيمُون » فقد استعملت لفظة الأودية الموضوعة أصلاً للدلالة على المنخفَض بين مُرتفعين في الدلالة على الأغراض الشعرية التي مقرّها الأفئدة فتحوّلت هذه المعنويات الفكرية المجردة الى أودية سحيقة ، وقد اختار القرآن لفظة الأودية لما بين الفِكْر والوادي من تناسب في العمق والبعد والخفاء والغموض .

وثمة منهج آخر ، نهجته الاستعارة القرآنية حين **خرجت عن أسلوب المدح الذي عرفت به في شتى ضروب الأدب وسلكت « سبيل التهكم »** اذ اقتضتها الحاجة ذلك ونحن نقع على شيء من هذا في معرِضِ الحديث عن المشركين والمنافقين في ألفاظ تدل على المدح في نقيضها من المعاني التي تحمل الذّم والإهانة والسخرية اللاذعة ، كقوله تعالى في معرِض التهكم فبَشِّرْهم بعذابٍ أليم » . فهنا يقول جلّ شأنه « بَشِّرْهم » ونحن نعلم أنَّ البشارة في الأمور المحمودة السارّة للمرء والمراد هنا توعُّدُهم وانذارُهم بالويل وسوء العاقبة .

من خلال هذه السمات استطاع أسلوب القرآن في التشابيه والاستعارات أن يملك على الناس ألبابهم .

وأخيراً لا يمكننا إلاّ أن نقول إنّه أسلوب القرآن الكريم وكفى .

الفصل الرابع

الكنايـة القرآنيّة

« تقوم الكناية القرآنية بنصيبها كاملاً في أداء المعاني وتصويرها خير أداء ، وهي حيناً راسمة مصورة موجبة ، وحيناً مؤدبة مهذبة ، تتجنب ما ينبو عن الأذن سماعه ، وحيناً موجزة تنقل المعنى الكبير في اللفظ القليل . وكثيراً ما تعجز الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدته الكناية ، في المواضع التي وردت فيها الكناية القرآنية .

من الكناية المصوّره الموحية قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » . ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة الى العنق ، فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة في صورة بغيضة منفّرة ؟ فهذه اليد التي غلت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد ، وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطية . والتعبير ببسطها كل البسط يصوّر هذا المبذّر الذي لا يبقي من ماله على شيء كهذا الذي يبسط يده ، فلا يبقى بها شيء . وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قوياً مؤثراً[1] » .

وهذا قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ! اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن اثم ، ولا تجسَّسُوا ، ولا يغتبْ بعضكم بعضاً ؛ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ، فكرهتموه ؟ » وانظر كيف مثلت الآية المغيبة بأكل لحم الانسان ، ولكن أي إنسان هذا ؟ إنه أخ ، وان المغتاب يأكل لحم أخيه ، وأي أخ هذا ؟ إنه الأخ الميت الذي تفسخ لحمه ، وفاحت روائحه ، وكان للدود منه نصيب .. ومن يستطيع أن يقبل على أكل لحم انسان ، أخ ، ميت ، متفسخ ؟

هذا الاغتياب ذكر لمساوىء الناس ، وتمزيق لأعراضهم ، ونهشٌ لسمعتهم ،

---

(١) أحمد أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ص ٢٢٦

وغض لفضائلهم لا في وجوههم ، ولا بين أيديهم ، وانما من وراء ظهورهم .. انه فعل الجبناء ، الضعفاء ، الذين لا يظهرون قوتهم إلا في الخلاء وعند فراغ الساحة من الرجال .. وهؤلاء الذين يغتابون الناس مثلهم كمثل التافهين ، الذين ينتظرون موت الإنسان ، ليكون بلا عقل ، ولا حس ، ولا حياة ، لينهشوا لحمه وان كان نتناً ، ذلك لأنهم لم يعتادوا الأطايب في الحياة ، وانما استساغوا الأقذار والأنتان .

ألا تحسّ بروعة الكناية القرآنية ، وجمال تصويرها ، وحسن أدائها ؟

اقرأ الآن قوله تعالى : « ما المسيحُ ابن مريم إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صِدّيقة ، كانا يأكلان الطعام[1] » .

إن الكناية في قوله : « كانا يأكلان الطعام » تستطيع أن تجد لها معنيين : معنى قريباً هو الذي يتبادر الى ذهنك للوهلة الأولى ، ولكنه معنى غير مراد ، انما المقصود به ما وراء أكل الطعام ، وما يشير اليه ذلك الأكل . وتلك هي الكناية . الروعة في التعبير أن سيد الخلق أراد أن يصف السيد المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالصفات البشرية ، فعبّر عن ذلك بأكل الطعام . وفي هذا التعبير أدب ، وذوق رفيع ، ورقة ما بعدها مزيد . وان أكل الطعام يحتاج الى هضم ، والمهضوم يسري في الجسد منه شيء ، ويزيد منه شيء ، وهذا المتبقي يخرج من سبيله المعلوم ...

أرأيت إلى الكناية ، وروعة استعمالها . وتستطيع أن تجد في القرآن من هذا الشيء الكثير .

---

(١) المائدة ، ٧٥

الفصل الخامس

الفاصلة القرآنيّة

نعني بالفاصلة القرآنية تلك النهاية التي تذيِّل الآيات القرآنية . ولولا ما ثار حولها من أسئلة ما كنا بحاجة الى الحديث عنها حديثاً خاصاً منفرداً .

لقد تساءل بعض الدارسين : ما العلاقة بين الآية القرآنية ، ونهايتها ، إننا لا نرى كبير ارتباط بينهما ، فقد يكون الحديث في الآية حول فكرة وتأتي الفاصلة بفكرة أخرى ، لا نجد ارتباطاً بين الأولى والثانية ، أو بين المقدمة والنتيجة . وإنا نسوق هذا البحث لهذه الفئة المتسائلة .

نقول : إن موقع الفاصلة في الآية يشبه موقع القافية في البيت الشعري ، وكما أن القافية في البيت عنصر متميّز ، فان الفاصلة كذلك في الآية عنصر متميّز ؛ ولكنها ـ كالقافية ـ تبقى جزءاً أصيلاً من الآية ، غير منفصل عنها .

ان الفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد : شحنة من الوقع الموسيقي ، وشحنة من المعنى المتمم للآية .

ولو أمعنا النظر في فواصل القرآن ، ودرسنا الحروف التي يكثر ورودها فيها ، ولا سيما في خاتمتها ، لوجدنا حرف النون ، والميم ، والألف ، والواو ، والياء .

هذه الحروف جميعها تحمل لحناً إيقاعياً لا يتوافر في الحروف الأخرى ، ثلاثة منها تستعمل للمدود ، وتقابل تسمية « الاطلاق » في البيت الشعري ؛ وحرفان سهلا المخرج ، فيهما غنة محببة ، تساعد على اخراج صوت محبب من الأنف . تلك هي شحنة النغم .

أما شحنة المعنى فتتجلى بارزة عند إمعان النظر في الآية وما حملت من فكر ، والخاتمة دائماً منسجمة كل الانسجام وتلك المعاني . ويبدو لنا أن تحقيق هـذا الكلام لا يكون إلا بضرب الأمثلة العملية .

هناك واقعان يعيش فيهما الناس ، واقع الايمان بالله والعمل الصالح عند فريق ، وواقع الكفر ، والعمل الطالح عند فريق آخر . وأراد القرآن أن يصوّر كلاً منهما ، ويضع أمام عينيه حصيلة واقعه . فقال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك هلى هدىً من ربّهم ، **وأولئك هم المفلحون** .

« إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ، لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، **ولهم عذاب عظيم** » . ألا ترى أن الفاصلة لدى عرض وضع كل من الفريقين جاءت سبيكة رائعة ، ومحصّلة واضحة لحال كل فريق ؟ .

* * *

اقرأ قوله تعالى : إنْ تُعذبهم فإنهم عبادك ، وإنْ تغفر لهم ، فإنك أنت العزيز الحكيم » . انك تتساءل سراً : لماذا لم تنته الآية « بأنك أنت الغفور الرحيم » مع أن السياق يوحي بالغفران ؟ . ولكن إذا أمعنت النظر في الآية وجدت أن الذي استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلاّ من كانت سلطته أعلى السلطات ، وقوته أعظم القوى ، وعزته فوق كل عزة . ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفاً بالحكمة التي يرفدها العقل والمنطق السليم ، وينأى عنها الحمق والتسرع والظلم والتهور . واذا وجدت الفاصلة جاءت بالعزة مقرونة بالحكمة ، فاعلم أن القادر على العقاب عزيز دائماً ، ولكن ليس كل عزيز عادلاً ، فكم من ملوك ، وحكام ، ورؤساء ، ومن بيدهم سلطان على الناس في هذه الدنيا ملكوا العزة إلا أنهم فقدوا الحكمة التي يسندها العدل والعقل والسلوك المستقيم . أفلا تجد الآن أن ربط الحكمة بالعزة تعبير رائع ، وتصوير جامع ، وبيان قاطع ، لخالق عزيز حكيم ؟

نريد أن نقول : ما انتهت آية قرآنية إلا بفاصلة ملائمة كل الملاءمة لمعناها ، مستقرة في قرارها ، مطمئنة في مكانها ، غير نافرة ولا قلقة ، ولكن الأفهام قد تتضاءل عن إدراك سرها .

وتروي الأخبار أن زيد بن ثابت كان يكتب ما يُملي عليه الرسول ـ ص ـ فأملى عليه الآية التالية : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً » وهنا نهض صحابي آخر هو معاذ بن جبل فقال : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، فضحك الرسول العظيم ، فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : « بها ختمت » . وفعلاً فان تلك الآية ختمت بقوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ألا تجد معي أن العربي الصميم ، والذوّاقة المرهف ، يدرك مكانة الفاصلة ، وموقعها ، وما تتركب منه ، بل وما ينبغي أن تكون عليه .

وتروي الأخبار أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : « فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » وكان الأعرابي جاهلاً ، لا يعرف القرآن ، ولكنه عربي صاف ، يدرك اللغة ، وما يجب أن تكون عليه أساليبها . فقال : ان كان هذا كلام الله فلا . إن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لإنه إغراء عليه . وعاد القارئ الى القرآن لينظر أكان مصيباً أم مخطئاً ، فوجد نفسه على خطأ ، فالآية انتهت بقوله تعالى « فاعلموا أن الله عزيز حكيم » .

* * *

هناك أمر آخر نلحظه بالفواصل ، هو أن تختلف الفاصلتان ، مع أن المتحدث عنه في الآيتين واحد . مثال ذلك قوله تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإنْ تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الإنسان لظلوم كفار » .

وقوله تعالى : « أفمن يخلقُ كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ وإنْ تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم » .

ولو تأملنا سبب الاختلاف في الفاصلتين وجدنا القرآن راعى مرة موقف الإنسان من نعم الله ، فهو ظلوم كفار . وأخرى مقابلة الله سبحانه نكران الجميل والظلم وكفران النعم بالغفران والرحمة . وكان ختام الآية الأولى متفقة مع الحديث عن صلة الانسان بالله ، والثانية متفقة مع الحديث عن الله جل جلاله .

ونظير ذلك قوله تعالى : « قل للذين آمنوا : يغفروا لِلَّذين لا يرجون أيام الله ، ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ، من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » .

وقوله تعالى : « ... من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلاّم للعبيد » .

لعل سر الفاصلة الأولى أن ما سبقها كان حديثاً عن منكري البعث ، فناسب ختم الآية بالحديث عنه . أما الثانية فناسب ختمُها معناها : من جزاء كلٍّ بما يستحق .

* * *

وقد تكون المخالفة في الفواصل ، مع تماثل ما سبقها بغية تعديد الأوصاف واثباتها ، حتى تستقر في النفس كقوله تعالى :

أ ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون

ب ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون

ج ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون

إنه يريد أن يبين أن من لم يحكم بما أنزل الله ساتر لما أنزله الله ، ظالم لنفسه ، فاسق بهذا الستر . او ان من لم يحكم بشرع الله فقد كفر به ، وظلم نفسه وغيره ، وخرج عن حدود الاستقامة والعدالة .

* * *

وقد تحدث العلماءعما يكون في الآية مما يشير الى الفاصلة ، ويسمّون ذلك تصديراً وتوشيحاً .

فالتصدير : فيه تكون اللفظة قد تقدمت مادتها في الآية ، وهي تشبه « رد العجز على الصدر » . ومثّلوا له بقوله تعالى : « أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً » وقوله تعالى : « هَبْ لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهّاب » ، وقوله تعالى : « ولقد استهزِىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » ، وقوله تعالى : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وَلَلآخرة أكبر درجات ، وأكبر تفضيلاً » وغير ذلك كثير .

ان ذلك يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاماً تاماً ، يستقر في النفس ، وتتقبله أعظم قبول .

أما **التوشيح** فهو أن يكون معنى الآية مشيراً إلى هذه الفاصلة ، كما أوردنا في خبر معاذ بن جبل مع الرسول العظيم ، وكما في قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ، ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران ، على العالمين » . إن الاصطفاء يكون من الجنس ، وجنس هؤلاء المصطفين ، هو العالمون .

وكقوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون » .

هذه الفواصل لها قيمتها في إتمام المعنى ؛ وهي مرتبطة بآياتها كل الارتباط ، ولها أثرها الموسيقي في نظم الكلام . ولهذه الموسيقية أثرها في النفس .

وقد يستعمل القرآن في الفاصلة كلمة غريبة ، مع وجود غيرها القريب المعنى ؛ والسبب في ذلك رعاية الموسيقى والنغمة . مثال ذلك قوله تعالى : « .. ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذاً قسمة ضيزى » . لقد قال ابن الأثير عن هذا الموضوع : انها في موضعها لا يسد غيرها مسدّها ، ألا ترى أن السورة كلها ـ وهي سورة النجم ـ مجموعة على حرف الياء ، فقال تعالى : « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ... » وكذلك الى آخر السورة . فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد ، وما كان يزعمه الكفار قال : « ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذاً قسمة ضيزى » فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسدّ مسدّها في مكانها .

ثم تابع ابن الأثير قوله : واذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا : إن غير هذه اللفظة أحسن منها ، ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ، ولا مناسبة ، لأنها تكون خارجة عن حروف السورة . وسأبيّن ذلك فأقول : اذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة ، قلنا : « قسمة جائرة ، أو ظالمة » ولا شك أن « جائرة أو ظالمة » أحسن من « ضيزى » إلا أنّا اذا نظمنا الكلام ، فقلنا : ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة جائرة ، لم يكن النظم كالنظم الأول ، وصار الكلام كالشيء المعوز ، الذي يحتاج الى تمام ، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بذوق الكلام[1] » .

وقد يشتد التقارب الموسيقي في الفواصل ، حتى تتحد الفاصلتان في الوزن والقافية كقوله تعالى : « فيها سُرُرٌ مرفوعة ، وأكواب موضوعة » وكقوله : « إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم » .

وقد تختلفان في الوزن ، ولكنهما تتقاربان في حروف السجع . كقوله تعالى : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً » .

وقد تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية كقوله تعالى : « ونمارق مصفوفة ،

---

(١) المثل السائر ، ٦٢ ؛ احمد بدوي من بلاغة القرآن ص ٨٧

وزرابيّ مبثوثة » .

وقد تختلفان وزناً وتقفية ، ولكنهما تتقاربان كقوله تعالى : « الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » .

وقد تنتهي السورة بفاصلة منفردة الايقاع تكون كالمقطع الأخير ، المومىء الى انتهاء . كقوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » .

* * *

وبعد ، فإنك لتجد أن الفاصلة القرآنية كالقافية الشعرية ، وتزيد الفاصلة على نظيرتها بشحنة المعنى ، ووفرة النغم ، والسعة في الحركة الحرة[1] » .

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٨٩

الفصل السادس

هيكل السورة القرآنية

المطلع ـ الجسم ـ الخاتمة

يتألف القرآن من سور مختلفة ، لكل منها اسم خاص ، أُخذ مما عالجته السورة من المعاني ، أو مما تحدثت عنه من إنسان ، وحيوان ، أو غيرهما ، أو من بعض كلماتها .

وتنقسم السور إلى قسمين : قسم تكوّن من موضوع واحد ، وهو غالب في السور القصيرة ، كسورة النبأ ، والنازعات ، والانشقاق ، والفيل ، وقريش وغيرها . وقسم تكوّن من موضوعات شتى ـ وهو القسم الغالب على السور ـ كالبقرة ، وآل عمران ، والمائدة وغيرها .

ونقف هنا لنتساءل : هل الأجدى أن يُرتّب القرآن ـ لو كان ذلك جائزاً ـ بحسب موضوعاته ، فتوضع آيات الأحكام معاً ، وآيات العقيدة معاً ، وهكذا أو أن تبقى أحكامه ، وقصصه ، وهداياته على الصورة الحالية التي هو عليها الآن والتي رتبها الوحي ؟

إن الذي يبدو لضعيف البصر أن العلاقة بين آيات السورة الواحدة واهية واهنة ، وأن الواجب يقضي أن يعاد النظر في هذا الترتيب ، فيؤلف القرآن تأليفاً إنسانياً متماسكاً .

مثل هذا القول جاء به عدد من القدماء ، ورجال من المعاصرين ، منهم المسلم ومنهم غير المسلم .

وأمام هذا التساؤل نقف لنقول : إن الهدف الذي رمى إليه القرآن هو غرس عقيدة التوحيد في نفس الإنسان ، وانتزاع ما يخالف هذه العقيدة من الضمير ، ثم دعا الى العمل الصالح وأعان على ذلك بسنّ القوانين المهذبة للفرد ، وللجماعة .

واذا كان ذلك هدف القرآن ، فإن المنهج القرآنيّ هو الذي يحقق هذا الهدف ، في أكمل صورة ، ذلك أنه لكي يحمل الإنسان على اتباع ما يدعو إليه ، يمزج دعوته بالحثّ على اتباعها ، ويضرب المثل بمن اتبع فنجح ، أو ضل فهوى ، ويُتْبِعُ الحديثَ عن المؤمنين بذكر بعض الأحكام التي يجب أن يتبعها هؤلاء المؤمنون ، ويعقب ذلك بالترغيب حيناً ، والترهيب حيناً آخر ،ثم يورد ذكر الجنة ولذاتها ، وجهنم وعذابها ، وهو في كل ذلك يراعي الغريزة الانسانية ، والنفس البشرية في مختلف ظروفها وأحوالها .

وقد يستعين القرآن على الوصول الى هدفه بالأمثلة التاريخية ، وبالقصص الغابرة لتكون معيناً على الايمان أولاً ، والعمل الصالح ثانياً وأخيراً .

ذلك هو منهج القرآن ، يتنقل بين الأغراض المختلفة ، لا اعتباطاً ، ولا خبط عشواء ، ولكن لصلات وثيقة تربط بين هذه الأغراض ، بحيث تتضافر جميعها في الوصول الى الغاية القصوى وتحقيقها .

واذا أنعمنا النظر في الآيات وقفنا على الأمور التالية :

١ ـ قد تكون الآية الثانية صفة لكلمة في الآية الأولى . كقوله تعالى : « ... وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ يُضِلُّ به كثيراً ، ويهدي به كثيراً ، وما يضل به الا الفاسقين . **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَل ، ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون** »

٢ ـ وقد تكون الآية الثانية توكيداً لفكرة الآية الأولى . كقوله تعالى : « قل : إنْ كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنّوا الموت ، إن كنتم صادقين ؛ ولن يتمنّوه أبداً بما قدمت أيديهم ، والله عليم بالظالمين . **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعَمّر ، والله بصير بما يعملون** » .

٣ ـ وقد تكون الآية الثانية ردّاً على ما في الآية الأولى . كقوله تعالى : « وقالوا : لن تمسّنا النار ، إلا أياماً معدودة . قل : أتّخَذْتُم عند الله عهداً ، فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله مالا تعلمون ؟ **بلى ، من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ،**

فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

٤ ــ وقد تحمل الآية الثانية فكرةً مضادة لفكرة سابقتها . كقوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين . **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً ، قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون** » .

٥ ــ وقد تكون الآية الثانية تعليلاً لحكم ورد في الآية الأولى . كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمَن عفي له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . **ولكم في القصاص حياة يا أُولي الألباب ، لعلكم تتقون** »

٦ ــ وقد تكون الآية الثانية تحبيباً أو تبغيضاً لفكرة وردت في الآية الأولى . كقوله تعالى : « ذلك الكتاب ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** » .

« ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ، أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، **ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم** » .

٧ ــ وقد تكون الآية الثانية دليلاً على صحة ما ورد في الآية الأولى ، وشاهداً داعماً لها . كقوله تعالى : « وإلـهكم آله واحد ،لا آله الا هو ، الرحمن الرحيم . **ان في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون** » .

وبعد ، فإن الصلة وثيقة بين الآية والآية ، لكن إدراك هذه الصلة يتطلب في بعض الأحيان تريّثاً وتدبراً .

انظر قوله تعالى : « وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . ومن أظلم ممن منع

مساجد الله : أن يذكر فيها اسمه ، وسعى في خرابها ، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ، لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثمَّ وجه الله ، ان الله واسع عليم » .

ما الصلة بين الآية الأولى والثانية ؟ إذا أمعنت النظر في الآية الأولى وجدت فيها حديثاً عن الذين لا يعلمون ، ولا يتلون الكتاب ، وهؤلاء لا يعترفون بشيء مما أنزل الله ، فهم يسعون في تقويض أسس الأديان جميعاً ، لا فرق عندهم بين دين ودين ، وهم لذلك يعملون على أن يحولوا بين المسلمين وعبادة الله ، ويسعون في تخريب بيوت عبادته ، ومن هنا صحّ هذا الاستفهام الذي يدلّ على أنه لا أظلم من هؤلاء الذين لا يعلمون ،وارتباط الثالثة بما قبلها لدلالتها على أن عبادة الله ليست في حاجة الى مسجد يقام ، بل لله المشرق والمغرب ، فحيثما كنتم ففي استطاعتكم عبادة الله ، لأن ثمة وجه الله .

بعد هذا نستطيع أن نقول مطمئنين : لو جمعنا آيات الأحكام في سورة أو عدة سور ، وجمعنا القصص في سورة أو عدة سور ، وجمعنا حوادث التاريخ في سورة أو عدة سور ، ضاع هدف القرآن ، وتجمع بين أيدينا جذاذات لا هي بالتاريخ ، ولا بالقصص ولا بالأحكام ، وضاع التأثير النفسي والنكهة القرآنية ، والجمال الأخّاذ الذي سحر نفوس العرب ، وملك عليهم قلوبهم ، وأبكى عمر حين قرأ بعض آيات ودفعه دفعاً الى الإسلام .

وبعد ، فماذا نقول لو فعلنا ذلك عن عمل جبريل ، وترتيبه القرآن ، وتعليمه محمداً ذلك ، وماذا نفعل أمام أمر مقدس موقوف ، لا نملك في الشرع حِلّ ذلك ولا جوازه ؟؟ .

* * *

أما افتتاحيات السور فهي على أنواع ، واذا ما استثنينا البحث الذي قدمناه حول الحروف المقطعة وعنوناه بفواتح السور ، وما دار حولها من تفسيرات وجدنا مقدمات السور القرآنية تبدأ بالثناء على الله ، وتعداد فعاله من صفات العظمة والجلال كقوله في أول سورة الحديد ، والصف ، والحشر : « سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض ، وهو العزيز الحكيم » .

أو تبدأ السورة بتعظيم كتاب الله وتقديره كقوله في أول سورة الكهف « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له حِوَلاً ، وأول سورة القدر « أنا أنزلناه

في ليلة القدر » وأول سورة النور « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات » ، وأول سورة السجدة ، والزُّمَر ، وغافر ، وفصلت ..

أو تبدأ السورة بقسم يدفع الى التطلع لمعرفة المقسم عليه ولقد أتينا بتفصيلات عدة لهذا الموضوع في بحث القسم .

أو تبدأ باستفهام أو شرط للغرض نفسه . كقوله تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا سدى » في أول سورة العنكبوت ، وقوله : « اذا السماء انفطرت» في أول الانفطار وهكذا .

وقد تبدأ بنداء الرسول ، أو نداء المؤمنين للأمر بشيء ذي بال ، أو النهي عن أمر شديد النكر . كابتداء سورة النساء ، والمائدة ، والحج ، والأحزاب ، والحجرات ، والممتحنة ، والطلاق ، والتحريم ، والمزمل وهكذا .

وقد يكون مطلع السورة موحياً بفكرتها ، ومتصلاً بها شديد الاتصال . من ذلك سورة آل عمران التي افتتحت بقوله تعالى : الله لا آله الا هو الحي القيوم » وقد عالجت السورة أمر عيسى ـعليه السلام ـ ونزهت الله عن الولد . وذلك ما يشبه ما نسميه بالبديع « براعة الاستهلال » .

* * *

أما خواتم السور فتكون ـ في الغالب ـ تركيزاً لما ورد في السورة كلها ، فهي حيناً دعاء وابتهال الى الله كما في خاتمة البقرة « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » .

وقد تختم بتوحيد الله ، وتقديسه ، وحمده ، واجلاله ، وتعداد صفاته ، كما في المائدة « لله ملك السماوات والأرض ، وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير » أو في الإسراء « وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، وكبّره تكبيراً » .

وقد تختم بما يشعر أن هذا الرسول أدى رسالته ، وأن على الانسان أن يطيعه ، ويؤمن بالله ، ويتّبع هداه . كما في براءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا ، فقل :حسبي الله ، لا آله الا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .

أو تختم بانذار ، أو وعد ، أو أمر بركن من أركان الحياة الصالحة كما في آل عمران « يا أيها الذين آمنوا ، اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتّقوا الله ، لعلكم تفلحون » .

وقليلاً ما تنتهي السورة بحكم تشريعي جديد كما جاء في آخر سورة النساء حين تحدثت عن الكلالة .

ان في النهاية شعوراً بالراحة ، وطمأنينة للنفس وفرحة عند المؤمن ، واحساساً بالعذاب ، وقلقاً في الضمير عند الكافر ، .. شأن ذلك شأن حياة المؤمنين تنتهي الى جنة عرضها السماوات والأرض ، وحياة الكافرين تنتهي الى جهنم خالدين فيها وبئس المصير [1] .

الخلاصة ، إن ما يزعمه الزاعمون من أن السور القرآنية فيها فوضى التأليف ، وأنها غير متجانسة المعاني كلام مرجف ، لم يدفع اليه العقل المستنير ، ولا القلب الواعي ، ولا الإيمان المخلص ، ولا البحث عن الحقيقة ، وانما جرّ إليه فساد في الطبع ، ونتن في الضمير ، وعداوة لكل شيء جميل ، وعلى رأس الجميل هذا القرآن العظيم .

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٢٣٩ – ٢٤٣

الفصل السابع

القصة في القرآن

يُعَرِّف بعض المؤلفين القصة الفنية بقوله « هي عَرْضٌ لفكرة مرت بخاطر الكاتب ، أو تسجيل لصورة تأثرت بها مُخَيِّلتُه ، أو بَسْطٌ لعاطفة اختلجت في صدره ، فأراد أن يعبر عنها بالكلام ، ليصل بها الى أذهان القُرَّاء ، محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه[1] » .

ويقسم الفن القصصي من ناحية القالب والمظهر ، الى أربعة أقسام :

١ ــ الأقصوصة . وهي قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانباً من حياة ، لا كل جوانب هذه الحياة . فهو يقتصر على سرد حادثة ، أو بضع حوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخصياته ومقوماته . على أن هذا الموضوع ، مع قِصَره ، يجب أن يكون تاماً ناضجاً من وجهة التحليل والمعالجة ، ولا يتهيأ هذا الا ببراعة يمتاز بها الكاتب الأقصوصي ، اذ أن المجال أمامه ضيق محدود ، يتطلب التركيز الفني .

٢ ــ القصة : وتتوسط بين الأقصوصة والرواية ، وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج في الأولى ، فلا بأس هنا أن يطول الزمن ، وتمتد الحوادث ، ويتوالى تطورها في شيء من التشابك .

٣ ــ الرواية : وفيها يعالج المؤلف موضوعاً كاملاً أو أكثر . زاخراًبحياة تامة أو أكثر ، فلا يفرغ القارئ منها إلا وقد أَلَمّ بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة .

٤ ــ أما الحكاية فهي سَرْدُ واقعةٍ أو وقائع حقيقية أو خيالية ، لا يلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة ، بل يُرسِل الكلام كما يواتيه طبعه .

---

(١) محمود تيمور ، فن القصص ص ٤٢

ويفرض العلماء في القصة الفنية بمعناها العام وجود ثلاثة عناصر رئيسية هي : الموضوع ، والشخصيات ، والحوار . ثم يصفون بدقة شروط كلٍّ من هذه العناصر ، ويبيّنون أنواع الخلل التي تطرأ عليها فتحيلها من قصة فنية الى غير فنية .

ومن القواعد التي يقررونها :

١ ـ أن تكون للقصة وحدة فنية .
٢ ـ أن يُراعَى في عرضها جانب التلميح ما أمكن .
٣ ـ أن يُعنى كاتبها برسم شخوصه .
٤ ـ أن يكون للقصة هدف ومغزى .
٥ ـ ألا تظهر فيها الموعظة أو الحكمة ظهوراً مباشراً .
٦ ـ ألا تخلو من عنصر التشويق .
٧ ـ أن يكون أسلوبها طبيعياً لا هو بالمتهافت ولا بالبالغ الصعوبة .

تلك هي الأقسام ، والعناصر الأساسية في كل قصة فنية ، كما اتفق عليها معظم النقاد ، وجهابذة هذا الفن .

وإن جئنا نستعرض ما ورد في القرآن الكريم من قصص وجدنا معظمها ـ إن لم نقل جميعَها ـ يَخرجُ عن الحدود التي رسمها النقاد للقصة الفنية ، وتتمرد عليها ، ولا تندرج تحت لوائها .

انّ تعريف القصة ـ كما تواضع عليها كثير من رجال فنها ـ لا ينطبق كل الانطباق على مفهوم القصة القرآنية ، فهي أولاً ليست خاطرة في ذهن الله ، ولا هي ثانياً تسجيلٌ تأثرت بها مخيِّلته ، ولا هي ثالثاً بَسْطٌ لعاطفة اختلجت في صدره فأراد أن يعبّر عنها بكلام ليُحدثَ أثراً في نفوس القارئين مثل أثرها في نفسه .

وليست القصة القرآنية لوناً من ألوان الأقصوصة أو القصة ، أو الرواية أو الحكاية بالمعنى المتواضع عليه . كذلك فهي لا تحمل من العناصر الفنية ما حَمَّلَها نُقَّاد العصر الحديث .

نعم ، قد تتفق بعض القصص في جملتها ، أو في بعض أجزائها وما قرره العلماء . لكن ذلك لا يعني أن هذه القصة ، أو هذا الجزء هو القسم الناجح ، وما عداه يقع دونه مرتبة ، وفنية .

والعجيب أن نفراً من الباحثين في القصة القرآنية أراد أن يطبق على قصة القرآن

ما يطبقه النقاد على القصة الفنية ، فراح يبحث في مصادرها ، ويفتش عن منابعها فيعيدها مرة الى الأسطورة ، ومرة الى التاريخ ، ومرة الى البيئة ، ومرة إلى الكتب السماوية السابقة من توراة وإنجيل وزُبور ، ومرة الى العقلية العربية ، وهكذا ، كأنهم يريدون أن يحققوا تلك القصص ، ويعرفوا أصلها ، ويقارنوا بين واقعها الذي كانت عليه في المصادر التي زعموها وبين الصورة التي وردت عليها في القرآن . واذا سألتهم عن مثيل ذلك في قصص الناس ، ولماذا لا يبحثون في صحة الوقائع التي يوردها القَصَّاصُون تَلَجْلَجوا في القول ، وغمغموا في الجواب ، ثم زعموا أنهم يريدون أن يثبتوا صحة ما أورد القرآن فيها من أحداث ، وهم لا شك كاذبون ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .

ونريد أن نقول : إن القرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء ، ولم يكن في قليل أو كثير منه كتاب قصص فني ، كما لم يكن ـ كما بينا من قبل ـ كتاب علوم ، أو تشريح ، أو فلسفة ، أو منطق ، أو نحو ، أو صرف ، أو بلاغة ، أو غير ذلك . إنه كتاب تشريع وعقيدة ، كتاب أنزل لِيُخرِجَ الناسَ من الظلمات الى النور بإذن ربهم ، ودستور للحياة الانسانية في مختلف علاقاتها الروحية والجسدية الفردية والجماعية .

لهذا وحده ، فإنا نرد قول كل من زعم أن قصص القرآن فنيّ ، أو زعم أنه غير فني ، ونردّ قول كل من افترى قولاً في أصوله ومصادره .

نقول بملء قوتنا : إن القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه ، وطريقة عرضه ، وسير حوادثه ، كما هي الحال في القصص الفني ، إنما القصة فيه وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل وهو التشريع وبناء الفرد والمجتمع ، وان القصة التي تَرِدُ فيه لا تختلف في غايتها عن المَثَل الذي يضربه للناس .

لم يكن غرض الأقاصيص سردَ تواريخ الماضين ، وذكرَ شؤونهم وأطوارهم ، ولكنها للعظة والاعتبار .

لهذا فليس غريباً أن تتكرر بعض الأقاصيص في كل مناسبة تستدعي الاستشهاد بها ، وإيرادها ، كما ليس من الغريب معها الإطناب بعد الايجاز ، أو الإيجاز بعد الإطناب ، وليس غريباً أن تسرد الوقائع غيرَ مراعىً فيها ترتيب الأحداث .

ان القرآن يذكر القصة في مواطنها بأساليب متغايرة ، أو في صور متقاربة ،

ولكل منها مغزى لا يؤديه غيره ، ومرمى لا يصيبه سواه . والى هذا يشير قوله تعالى : « لقد كان في قَصَصِهم عِبرةٌ لأولي الألباب » وقوله تعالى : « وكلاً نقُصُّ عليك من أنباءِ الرسُلِ ما نُثبّتُ به فؤادَك ، وجاءَك في هذا الحقُ ، وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين » .

لقد ذكر الله في سورة الأنعام قصة ثمانية عشر نبياً ، ثم أتبع ذكرهم بقوله : « أولئك الذين هدى الله فبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » . ونفهم من هذا التعداد أولاً ، ومن التعقيب بعده ، أن الغرض كان اقتداء محمد بهم في التبليغ ، واقامة الحجة ، والصبر على التكذيب ، والصبر على أهل العناد والأقارب والأباعد ، والتأسي بهم ، دون أن يكون الغرض عرض قصص يراد به التسلية والتلهي .

نقول ونؤكد : إن القصة القرآنية ليست عملاً فنياًمقصوداً لذاته ، وإنما هي وسيلة للإرشاد والإيمان والعظة وشرح الأوامر والنواهي الشرعية ، ونشرِ فكر الحق والخير والتعاون بين الناس ، وكانت القصة إحدى وسائل القرآن الى غايته .

ولو استعرضناموضوعاتالقصص القرآني لوجدناها تتحدث عن أحوال الكفار ، والفجار ، واللوطية ، والفراعنة ، والظالمين ، والشرك بأنواعه ، والكفر بأسبابه ، وسائر ضروب الفسق ، والحسد ، وقطع الرحم ، والعقوق ، والكذب ، والاحتيال ، ونقض العهود ، وخلف الوعود ، الى غير ذلك بما فيه ذكر معاصي الله ، والصد عن سبيله ، والشبهات ، والشهوات ، والترغيب والترهيب ، وبيان سوء العاقبة ، وقبح السمعة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

أفليست هذه الأمور جزءاً من الشرع رغَّب فيه ، أو رغَّب عنه ، بأساليب مختلفة ، وصور متباينة ، وتعابير شتّى ؟؟ وكانت القصة إحدى وسائل الوعظ والتبليغ والارشاد ؟؟ .

مخطئون أولئك الذين يدرسون القصة القرآنية كما يدرسون القصة البشرية ، ومخطئون أولئك الذين يريدون تعلم التاريخ من القرآن ، ويفتشون عن المصادر التي استقى منها أخباره وقصصه ؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ ، وما ذكر الأنبياء وبعض حوادثهم الا للعبرة والموعظة ، وتغذية النفوس بالصلاح والاستقامة وتحصين الأخلاق والآداب ، بسياج الفضيلة . ولهذا فقد أعرض القرآن عن وقائع تاريخية لا تفيد عظة ، ولا تقدم فائدة .

ويبدو لنا أن أولئك النفر الذين يحاسبون القرآن على قصصه الخارج على

حدود ما رسموه من فن ، ويسألون عن مصادره ، يعتقدون أن محمداً هو الذي أنشأ القرآن وهو الذي افتراه ، وليس منزلاً من عند الله ، ولا وحيا أوحي اليه ، فهم في مناقشاتهم وأحابيلهم يتسلحون ظاهراً بالفنية والموضوعية والعلمية ويبطنون عداوة شنعاء للقرآن ومن أنزله ، ومن نزل عليه ، ومن آمن به ، ويقولون بألسنتهم شيئاً ويضمرون أشياء . إن القرآن « ما كان حديثاً يُفْتَرَىَ » .

قد يقولون : ان كثيراً مما ورد من قصص الأنبياء في القرآن قد ورد كذلك في الكتب الأخرى ، فما بال هذه الفروق بين هذه الكتب في هذه القصص ؟ ونجيب عن هذه الشبهة بأن وجود قصص القرآن في كتب أخرى لا يضعف حجته ، بل هو من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، ولذلك ترى القرآن نفسه ، يستدل بذلك على كونه من عند الله ، لأن النبي لم يطلع على كتب أهل الكتاب .

ويجب ألا نستنتج من هذا أن قصص القرآن ينبغي ألا يختلف عن قصص الكتب الأخرى في شيء ما ، لأن الاستنتاج لو كان صحيحاً لما قال الله تعالى : « إنّ هذا القرآنَ يقص على بني اسرائيل أكثر الذي همْ فيه يَخْتَلِفُونَ » . إن قصصه قد تختلف عما عندهم ، فيبيّن لهم حقه من باطله ، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، وبين مخالفته لها في بعض الجزئيات .

مع هاتين الملاحظتين اللتين ذكرناهما وهما :

أولاً ـ أن قصة القرآن ليست عملاً فنياً مقصوداً لذاته .

ثانياً ـ قصص القرآن يهدف الى أغراض دينية محض .

نقول : **ان للقصص القرآني عدداً من الخصائص أبرزها[1]** :

١ ـ تكرار القصة الواحدة :

ونعني بالتكرار أن ترد القصة الواحدة مكررة في مواضع شتى ، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها ـ غالباً ـ انما هو تكرار لبعض حلقاتها ، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها . أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادراً ، ولمناسبات خاصة في السياق .

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحِظاً السياق الذي وردت فيه ،

(١) سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ص ١٢٨

يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً ، في اختيار الحلقة التي تعرض هنا ، أو تعرض هناك ، وفي طريقة عرضها كذلك . ويجب أن نذكر دائماً أن القرآن كتاب دعوة دينية ، وأن التناسق بين حلقة القصة التي تعرض ، والسياق الذي تعرض فيه هو الغرض المقدَّم .

على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقرراً في عرض الحلقات المكرورة من القصة الواحدة ـ يتضح حين تقرأ بحسب ترتيب نزولها ـ فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ، ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً ، ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعها جسم القصة . وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات ـ حتى إذا استوفت القصة حلقاتها ، عادت هذه الإشارات هي كل ما يُعَرَضُ منها .

ونضرب مثالاً على هذا النظام قصة موسى ؛ إذ أنها أشد القصص في القرآن تكراراً ، فهي من هذه الوجهة تعطي فكرة كاملة على هذا التكرار[1] .

وردت هذه القصة في حوالي ثلاثين موضعاً ، انتهينا من استقصائها الى نتيجة واحدة هي أنه ليس في القصص القرآني تكرار مطلق ، وإنما فيه تكرار نسبي بمعنى أن الغرض الديني هو الذي يملي إعادة القصة ، ولكنها في هذه الإعادة تلبس أسلوباً جديداً ، وتخرج إخراجاً جديداً يناسب السياق الذي وردت فيه ، وتهدف الى هدف خاص ، لم يذكر في مكان آخر ، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل .

٢ ـ انتخاب أجزاء من القصة :

وكان من خضوع القصةالقرآنية للغرض الديني ـ غير التكرار ـ أن تعرض بالقَدْر الذي يكفي لأداء هذه الغرض ، ومن الحلقة التي تتفق معه . فمرة تعرض القصة من أولها . ومرة من وسطها ، ومرة من آخرها ، وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك ، حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك . ذلك أن الهدف التاريخي لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية كالهدف القصصي سواء ، فسارت القصة وهدفها الأول هو الهدف الديني .

---

(١) التصوير الفني ص ١٢٩

نجد قصصاً تعرض منذ الحلقة الأولى حلقة ميلاد بطلها كقصة آدم ـ منذ خلقه ـ وفيها مظهر لقدرة الله ، وكمال نعمته على آدم وبنيه .

ونجد قصصاً تعرض من حلقة متأخرة نسبياً ، كقصة يوسف حيث تبدأ وهو صبيّ ، فيرى رؤيا ، ويقصها على أبيه ، وهكذا تمضي القصة في طريقها المرسوم بعد هذه الرؤيا .

ونجد قصصاً لا تعرض الا في حلقة متأخرة جداً كقصة نوح وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وغيرهم ، فلا تعرض قصصهم الا عند حلقة الرسالة ، وهي الحلقة الوحيدة التي تعرض من حياتهم ؛ لأنها أهم حلقة منها ، والعبرة كامنة فيها[1] .

٣ ـ الموعظـة :

ولقد ذكرنا بما فيه الكفاية عن هذه الغاية ، وكدنا نقول : إن القصص القرآني بمختلف ألوانه وضروبه وموضوعاته كان موجهاً لهذه الغاية الوعظية ، أكثر مما هو موجه للغاية القصصية الفنية ، أو سرد الحوادث التاريخية . وكل قصة في القرآن شاهد على ما نقول .

عناصر القصة في القرآن

على الرغم من أن غرض القصة القرآنية ديني محض ، فإنا نستطيع أن نجد بعض العناصر البارزة قائمة في معظم القصص التي وردت في الكتاب الكريم . منها : عنصر الشخصية ، والحوار ، والصراع ، والمفاجأة ، والتصميم .

ولو حاولنا تحليل كل من هذه العناصر لألفينا تنوعاً في رسم كل منها ، وقد يصل هذا التنوع الى حد التباين البعيد .

فالشخصية :

قد ترد بصورة إنسانية عادية ، وقد تكون شخصية مثالية ، وقد تحمل الوجهين الانساني العادي والمثالي في آن واحد .

ومهما تكن صورة هذه الشخصية فانها بطبيعة الحال هي التي تحرك الأحداث ، وتضطرب بها ، أو تقوم الأحداث نفسها بتحريك الشخصيات ، أو تتساوق وتتوازن ، فلا تطغى الشخصية على الحدث ، ولا يطغى الحَدَث على الشخصية .

من نماذج الشخصية المثالية صورة إبراهيم الخليل عليه السلام . فلقد صوّرته

صبياً يخلو الى تأملاته ، ويبحث عن « فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً ، قال : هذا ربي . فلما أَفَلَ قال : لا أحبُ الآفلين . فلما رأى القمرَ بازغاً قالَ : هذا ربي . فلما أَفَلَ قال : لَئِنْ لم يهدني ربي لأَكونَنَّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمسَ بازغةً قال : هذا ربي ، هذا أكبرُ . فلما أفلتْ قال : يا قوم إني بريءٌ مما تُشْرِكون . اني وَجَّهتُ وجهيَ لِلَّذي فَطَر السماواتِ والأرضِ حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجَّهُ قومُه ، قال : أَتُحَاجّونّي في الله وقد هَدانِ ؟ ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاءَ ربي شيئاً ، وَسِعَ ربي كلَّ شيء عِلماً . أفلا تتذكرون[1] » .

وصورته لنا وهو يحاور أباه في معبوده ، ويقنعه أن يهجر عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً ، وينهاه عن عبادة الشيطان ، لأنه يخاف عليه أن يمسه عذاب من الرحمن ، ويكون للشيطان ولياً . ويقف الأب من ابنه موقفاً غليظاً صلباً ويأمره أن ينتهي عن آرائه ومعتقداته ، ويعجب منه كيف يرغب عن آلهة أبيه ، ثم يهدده بالرجم ، أوالطرد إنْ لم ينته ويتراجع . ويبقى الفتى أديباً ، باراً ، محباً لأبيه ، فلا يتفوه أمامه بكلمة جارحة أو نابية ، ولم يجبه الا بقوله : « سلامٌ عليكَ ، سأستغفر لكَ ربي ، إنه كان بي حَفِيّاً ، وأعتزِلُكُمْ وما تَدْعُون من دونِ الله وأدعو ربي ، عسى ألا أكونَ بدعاءِ ربي شقياً[2] » .

وابراهيمُ الهادىء الرزين الوقور في صباه ، وشبابه يبقى هو هو في شيخوخته ، بل تزيده الشيخوخة وقاراً ورزانة ، وعقلاً . ذلك أنه حين ينزل في مكة مع أهله وأسرته يجد الأرض قفراً ، والدنيا مَحْلا ، والمكانَ جديبا ، فيرفع يديه الى السماء ضارعاً إلى من آمن به ويجأر داعياً : « ربَّنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عند بيتِك المحرَّمِ . ربَّنا لِيقيموا الصلاةَ ، فاجعلْ أفئدةً من الناس تَهْوِي اليهم ، وارزقهم من الثمراتِ ، لعلهم يشكرون[3] » . ومثل هذا الهدوء والايمان ، وطاعة الله تتجلى حين يرى في المنام أنه يذبح ابنه ، فيلبّي ، ويطيع ، وتكون معجزة الفداء بِذِبْحٍ عظيم .

كذلك لو حللنا شخصية يوسف عليه السلام ، وما كان فيها من سمات تترجح بين الانسانية والمثالية بين مطلع حياته ، وفي كنف أبيه يعقوب عليه السلام ، وفي بيت عزيز مصر ، ثم في جلوسه أميناً على خزائن الأرض وحاكماً .

---

(١) الأنعام ، ٧٦   (٢) مريم ، ٤٧   (٣) إبراهيم ، ٣٧

ومثل شخصية يوسف المترجحة بين الانسانية والمثالية شخصية سليمان عليه السلام ، وقصته مع بلقيس ملكة سبأ ، انها تعكس مرة صورة الانسان ، وأخرى صورة النبي ، وثالثة هذه وتلك ، دون أن تطغى واحدة على أخرى .

هذا جانب من جوانب الشخصية في القصة القرآنية على اختلاف ألوانها واتجاهاتها ومنازعها . على أننا لو حللنا جميع نماذج الشخصيات في مختلف القصص لوجدنا فيها الرسم الواضح لكل منها ، وقد صورت بأسلوب تحليلي أو بأسلوب تمثيلي ـ على حد تعبير رجال القصة الفنية ـ .

أما الحوار :

فانه محرك للأحداث ، ومصور للشخصيات ، ومُبْلِغٌ الى الصراع ، ومُؤَدٍّ إلى الهدف ، ومظهر للمغزى . ولقد كان في القصة القرآنية على صور وأشكال . فقد يكون على صورة حوار ذاتي بين الشخص وعقله أو قلبه كما في قصة ابراهيم ، وهو ينظر الى الكوكب والقمر والشمس ويفتش عن إلَه ، وقد يكون بين شخصيتين كما في حوار ابراهيم مع أبيه ، أو قومه . وقد يكون بين الشخصية وعنصر آخر كالجن ، أو الطير ، أو الشيطان . وقد يكون بين الخالق والمخلوق ، أو بين النبي وقومه وهكذا .

وبالحوار المباشر حيناً ، وغير المباشر أحياناً ، والمتسلسل المتساوق الذي لا يترك أمراً الا وتحدث به ، والمنقطع الذي يترك بعض الفجوات للقارئ أو السامع ليملأها من طبيعة تفكيره كانت تجري القصة القرآنية .

على أن هناك ملاحظة أساسية في طبيعة الحوار بمجمله وعلى مختلف ضروبه هي أنه لا يوضع على ألسنة الشخصيات ، وانما ينطلق منها انطلاقاً طبيعياً أو تلقائياً دون أن يحس القارىء بشيء من آثار الصنعة أو التكلف .

أما أسلوب الحوار . فهو أسلوب القرآن ذاته ، اذ لا يهبط في ناحية ، ويسمو في أخرى ، تبعاً لاختلاف الظروف ، والشخصيات ، ومستوى الأداء عند الكُتّاب من البشر العاديين .

أما الصراع :

فهو غالباً ما يكون في القصة القرآنية منسجماً مع المغزى العام للقصة ، وهو الهداية والدعوة الى الايمان . وانه لصراع ـ دائماً ـ بين عنصر الخير والشر ، أو

الحق والباطل ، أو الايمان والكفر ، أو الفطرة السليمة والطوارئ التي تجنح بها ذات اليمين وذات الشمال .

ويكاد الصراع أن يكونواحداً ، ان لم يكن في صورته الخارجية فهو في هدفه وغايته ، في جميع القصص .

هذا الصراع يكون حيناً صراعاً مادياً وحيناً آخر صراعاً نفسياً . وتتضح صورة اللون الأول بموقف موسى عليه السلام مع السحرة ، فقد رموا أقلامهم أو عصيهم فاستحالت إلى أفاع تتلوى وتتحرك ، ورمى هو عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون . كذلك تتضح صورة اللون الثاني بموقف ابراهيم من الشمس والقمر والكوكب وعقله الباطني حيث يعتقد بهذا فيتضح له بعد حين خطأ معتقده ، ثم يعتقد بذاك فيرى أنه على خطأ وهكذا .

واذا كان للصراع في القصة القرآنية من أثر فانه يظهر في ربطه الأحداث من جهة ، والشخصيات من جهة أخرى ، والحوار من جهة ثالثة من جميع جهاتها ويستولي عليها ، ثم يمضي بها الى غايته المرسومة .

خذ مثلاًقصة يوسف عليه السلام . وانظر الى الصراع القائم بين نفس يعقوب وأبنائه ، وبين يوسف وزوجة العزيز ، وبين يوسف واخوته بعد تسلمه مقاليد مصر تجده قد أمسك زمام القصة من جميع أطرافها ، وهو الذي قادها ، ووجّه أحداثها ، وهو الذي كان الجاذب الكبير في مختلف أجزائها ، على أنه لم يزد على طبيعته الأصلية التي هي صراع الخير والشر ، والحق والباطل ، والايمان والضلال .

أما المفاجأة :

فانها لتتنوع وتكون على صور مختلفة :

١ ــ فقد يكتم سر المفاجأة عن البطل والنظارة ، حتى يكشف لهم معاً في آن واحد ،كما في قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف ، فهي تجرى على الشكل التالي :

« واذ قال موسى لفتاه : لا أبرحُ حتى أبلغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ ، أو أمضيَ حُقُباً . فلما بلغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حوتَهما ، فاتخذَ سبيلَه في البحر سَرَباً . فلما جاوزا قالَ لفتاه : آتِنا غداءَنَا ، لقد لقينا من سَفَرِنا هذا نَصَبا . قال : أرأيتَ اذْ أوَيْنا الى الصخرةِ ؟ فاني نسيتُ الحوتَ وما أنسانِيهُ الا الشيطانُ أن أذكرَهُ ، واتخذَ سبيلَه في البحر عَجَبا . قال : ذلك ما كنا نَبْغ . فارتدّا على آثارِهما قَصَصا ، فوجدا

عبداً من عِبادنا آتيناه رحمةً مِنْ عِندِنا ، وعلَّمْناه مِن لَدُنَّا عِلماً . قال له موسى : هل أَتَّبِعُكَ على أنْ تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً ، قال : إنك لن تستطيعَ مَعيَ صبراً ، وكيف تَصْبِرُ على ما لم تُحِطْ به خُبْراً ؟ قال : ستجدني ـ إن شاءَ الله ـ صابراً ، ولا أعصي لك أمراً . قال : فإنِ اتبعتَني فلا تسألْني عَنْ شيءٍ حتى أُحْدِثَ لك منه ذِكْراً .

فانطلقا . حتى اذا ركبا في السفينةِ خَرَقَها . قال : أَخَرَقْتَها لِتغْرِقَ أهلَها ؟ لقد جئتَ شيئاً إمراً . قال : ألم أقلْ : إنكَ لن تستطيعَ معيَ صَبْرا ؟ قال : لا تؤاخذْني بما نسيتُ . ولا ترهقْني من أمري عُسْراً .

فانطلقا . حتى اذا لقيا غلاماً فقتله . قال : أقتلتَ نفساً زكيةًبغير نَفْس ؟ لقد جئتَ شيئاً نُكْرا . قال : ألم أقلْ لك : إنك لنْ تستطيعَ مَعِيَ صَبْرا ؟ قال ؟ إنْ سألْتُكَ عن شيء بعدَها فلا تصاحِبْني . قد بلغتَ من لَدُنّي عُذْراً .

فانطلقا . حتى اذا أَتَيا أهلَ قريةٍ استطعَما أهلَها ، فأَبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُما ، فوجدا فيها جِداراً يريدُ أن ينقَضَّ فأقامه . قال : لو شئتَ لاتخذْتَ عليه أجْرا . قال : هذا فِراقُ بيني وبينِك سأنبئك بتأويلِ ما لم تَسْتَطِعْ عليه صَبْرا[1] » .

فالى هنا نحن أمام مفاجآت متوالية ، لا نعلم لها سراً ، وموقفنا منها كموقف بطلها موسى . بل نحن لا نعرف من هو الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة ، ولا ينبئنا القرآن باسمه ، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا .

ثم يأخذُ السر في التجلي ، فيعلمه النظارة حين يعلمه موسى .

« أما السفينةُ فكانتْ لمساكينَ يعملونَ في البحر ، فأردتُ أن أعيبها ، وكان وراءَهم مَلِكُ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غَصْباً . وأما الغلامُ فكان أبواهُ مؤمِنَيْن ، فخَشينا أن يرهِقَهما طغياناً وكفرا ، فأردْنا أن يبدلَهما ربُّهما خيراً منهُ زكاةً وأقربَ رُحماً وأما الجدار فكان لغلامينِ يتيمينِ في المدينةِ ، وكان تحته كنزٌ لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأرادَ ربُّك أنْ يبلغا أَشدَّهما ، ويستخرجا كنزَهما ، رحمةً من ربِك ، وما فعلتُه عن أمري ، ذلك تأويلُ ما لم تَسْطِعْ عليه صبرا[2] » .

وفي دهشة السر المكشوف يختفي الرجل كما بدا . لقد يخطر للأذهان الدّهشة بعد أن تصحو أن تسأل : من هذا ؟ ولكنها لن تتلقى جواباً . لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول ، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى ، وهذه الحكمة لا تكشف

---

(١) الكهف ، ٦٠ (٢) الكهف ، ٧٩

عن نفسها الا بمقدار ، ثم تبقى مجهولة أبداً .

٢ ــ ومرة يكشف السر للنظارة ، ويترك أبطال القصة عنه في عماية ، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر ، أولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين . وأغلب ما يكون ذلك في موضع السخرية ، ليشترك النظارة فيها ، منذ أول لحظة ، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين .

مَثَل ذلك ما وقع لأصحاب الجنة الذين أقسموا لَيَصْرِمُنَّ جنتهم مُصْبِحين ، لئلا يستفيد منها محروم أو مسكين ، فطاف عليها طائف من ربك فأحرقها . وانطلق أصحابها في الصباح دون أن يعلموا ما أصابها[1] ..

وقد ظَلِلْنا نحن النظارة نسخر منهم ، وهم يتنادون ، ويتخافتون ، والجنة خاوية كالصريم ، حتى انكشف لهم السر أخيراً بعد أن شبعنا تهكما وسخرا قالوا : « إنا لضالّون . بل نحن محرومون[2] » .

فهذا لون من التناسق ، يضاف الى نظائره كذلك .

٣ ــ ومرة يكشف بعض السر للنظارة . وهو خاف على البطل في موضع ، وخاف على النظارة وعن البطل في موضع آخر ، في القصة الواحدة .

مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي جيء به في غمضة ، وعرفنا نحن أنه بين يدي سليمان ، في حين أن بلقيس ظلت تجهل ما نعلم : « فلما جاءت قالَتْ : أهكذا عرشُكِ ، قالت : كأنهُ هُوَ[3] » . فهذه مفاجأة عرفنا نحن سرها سلفاً . ولكن مفاجأة الصرح الممرد من قوارير ، ظلت خافية علينا وعليها حتى فوجئنا بسرها معها ، حينما « قيل لها : ادخلي الصَّرْحَ ، فلما رأتْهُ حَسِبتْهُ لُجَّةً وكَشَفَتْ عن ساقَيْها ، قال : إنهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قوارير[4] » .

٤ ــ ومرة لا يكون هناك سر ، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد ، ويعلمان سرها في الوقت ذاته : وذلك كمفاجآت قصة مريم ، حين تتخذ من دون أهلها حجاباً ، فتفاجأ هناك بالروح الأمين في هيئة رجل ، فتقول : « اني

---

(١) انظر القصة في سورة القلم .
(٢) القلم ، ٢٧
(٣) النمل ، ٤٢
(٤) النمل ، ٤٤

أعوذُ بالرحمنِ منكَ إنْ كنتَ تقيا[1] » . نعم اننا عرفنا قبلها بلحظة أنه « الروح » ولكن الموقف لم يطل فقد أخبرها : « قال : إنما أنا رسولُ رَبِّكِ لأهَبَ لكِ غلاماً زكياً[2] » . وقد فوجئنا كذلك معها اذ أجَاءَهَا المخاض الى جذع النخلة « قالت : يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نَسْياً مَنْسِيّاً ، فناداها من تحتها ألّا تحزَني قد جَعَل ربُّك[3] من تحتِك سَرِيّاً[4] » .

أما التصميم :

فانا نلاحظ أن قصص القرآن سارت في اتجاهات أربعة من حيث تصميم العرض ، أو مخطط عرض الحوادث .

١ ـ فمرة يأتي في مطلعها ملخص يسبقها ، ثم تأتي التفصيلات بعد ذلك من مبدئها الى نهايتها . وذلك كطريقة قصة « أهل الكهف » . فهي تبدأ على الشكل التالي : « أم حَسِبْتَ أن أصحابَ الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عَجَبا ؟ اذْ آوى الفتيةُ الى الكهف ، فقالوا : ربَّنا آتِنا من لَدُنْكَ رحمةً ، وهَيِّىءْ لنا مِن أمرِنَا رَشَدا ، فضَرَبْنا على آذانِهم في الكهفِ سنينَ عَدَداً . ثم بعثناهم لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزبَيْنِ أحصى بما لَبِثوا أمَداً[5] » .

ثم تأتي التفصيلات ، فتذكر تشاورهم قبل دخولهم الكهف ، وحالتهم بعد دخوله ، ونومهم ، ويقظتهم ، وارسالهم واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً ، وكشفه في المدينة ، وعودته ، وموتهم ، وبناء المعبد عليهم ، واختلاف القوم في أمرهم . فكأنّ هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة للتفصيلات .

٢ ـ ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها ، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها ، وتسير بتفصيل خطواتها . وذلك كقصة موسى في سورة القصص . وهي تبدأ هكذا : « نتلو عليكَ من نَبَأ موسى وفرعون بالحقِ لقومٍ يؤمنون . انَّ فرعونَ علا في الأرض ، وجعل أهلَها شِيَعاً : يستضعِفُ طائفةً منهم يُذَبِّحُ أبناءهَم ، وَيَستَحْيِي نساءَهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفُوا في الأرضِ ، ونجعلَهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونُمَكِّنَ لهم في الأرض ، ونُرِى

(١) مريم ، ١٨ (٢) مريم ، ١٩ (٣) مريم ، ٢٣
(٤) سيد قطب ، التصوير الفني ص ١٥١ ـ ١٥٤
(٥) الكهف ، ٩

فرعونَ وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون[1] » .

ثم تمضي في تفصيلات قصة موسى : مولده ونشأته ورضاعه وكبره وقتله المصري وخروجه وغير ذلك . فكأنَّ هذه المقدمة ، التي تكشف الغاية من القصة كانت تمهيداً مشوّقاً لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها الغاية المرسومة المعلومة .

٣ ـ ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ، ويكون في مفاجآتها الخاصة ما يُغْني . مثل ذلك قصة مريم عند مولد عيسى ، ومفاجآتها[2] ، وقصة سليمان مع النمل والهدهد[3] وبلقيس[4] .

٤ ـ ومرة تكون القصة على شكل تمثيلية . فتكون ألفاظها نفسها هي المنبهة الى ابتداء العرض ، ثم تنساب القصة تتحدث عن نفسها بوساطة أبطالها ، كما في قصة ابراهيمْ وحواره مع ربه ، وأولاده ، في حوار طويل[6] .

تلك هي بعض عناصر القصة في القرآن قد تنسجم بعض الأحيان وعناصرَ القصة الفنية الحديثة ـ كما تواضع عليها نقاد القصة ـ وقد لا تنسجم . لكنها تبقى ـ كما ذكرنا ـ قصة قرآنية لها سماتها وخصائصها وميزاتها الخاصة دون أن تكون عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وادارة حوادثه ، ويبقى هدفها الأول والأخير هو هدف القرآن ذاته .

(١) القصص ، ٣
(٢) آل عمران ، ٤٥
(٣) النمل ، ٢٠
(٤) سورة النمل ، ٤٤
(٥) البقرة ، ١٢٧ وما بعدها .
(٦) التصوير الفني ص ١٥٠

الفصل الثامن

المَثَل في القرآن

تقول المعاجم : المَثَل ، والمِثْل ، والمثيل : كالشَّبه ، والشِبْه ، والشبيه لفظاً ومعنى . كذلك يطلق المَثَل على القصة العجيبة الشأن ، أو الحال كقوله تعالى : « مَثَلُ الجنةِ التي وُعِد المتقون[1] ... » أي قصتها وصفتها .

والمَثَل في الأدب : قول محكيّ سائر ، يقصد منه تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله ، كقول العرب : « رُبَّ رَمْيَة من غير رام » أي رب إصابة هدف حصلت من رام شأنه أن يخطىء . فهذا المثل وضع في أصله لمعنى معيّن ، ويجوز أن يقال ويتمثل به في كل حال تشبه الحال الأصيلة الأولى . وكذلك قول العرب : « الصيفَ ضيّعتِ اللَّبَنَ » فقد قيل في أول الأمر لامرأة كرهت زوجها العجوز الغني فطلبت طلاقها منه فطلقها ، ثم تزوجت بشاب فقير ؛ واضطرتها الحاجة أن تلجأ إلى رجلها السابق في شتاء قارس تطلب معونته ، فقال لها : الصيف ضيعت اللبن . فذهب قوله مثلاً . وهو الى اليوم يقال في كل أمر مماثل حين يطلب الإنسان حاجة في غير أوانها ، أو فرصة سبق أن ضيّعها .

ولا تختلف صيغة المثل في كل استعمالاته ، فاذا خوطب رجل ، أو اثنان ، أو أكثر ، أو أقل ، أو امرأة ، أو اثنتان أو أكثر قيل : « الصيف ضيعتِ اللبن » دون زيادة أو نقصان .

* * *

ذلك أمر المثل في اللغة العربية . أما أمره في اللغات السامية فيشترك فيما ذكرنا ، ويزيد عليه أنه يستعمل في الكلمة الجامعة المركزة الدّالّة على الصنعة والقدرة على الإلغاز والتعمية ، كذلك يستخدم في التعبير عن القطعة الأدبية التي لا تتجاوز

(١) محمد ، ١٥

الفقرة والفقرتين ، والتي تقص نبوءة من النبوءات ، أو تنزع منزع الأنشودة الشعرية ، أو تفسر قصة ، أو توضح عبارة ، أو تحكي خرافة ذات مغزى[1] .

ويشترط الدارسون العرب في المثل السائر شروطاً أربعة :

١ ـ ايجاز اللفظ

٢ ـ إصابة المعنى

٣ ـ حسن التشبيه

٤ ـ جودة الكناية

* * *

قد لا نكون بحاجة إلى ذكر فوائد الأمثال في أنها تبرز المعقول في صورة المحسوس ، وتكشف عن الحقائق ، وتقرب المعاني الى الأفهام ، وتعرض الغائب في معرض الحاضر ، وتجمع المعنى الرائع في العبارة الموجزة السهلة ، وتثبت المعنى في الذهن ، وتسهل طريق الوعظ والتأسّي ، وتدفع الى الاقناع بأوجز سبيل . فذلك أمره واضح لا يخفى على كل أديب ومتأدب .

انما نريد أن نذكر أن القرآن الكريم قد استخدم الأمثال في مدلولها العربي ، وكما يفهمها الساميون عامة . وكانت تلك الأمثال القرآنية سبيلاً من سبل القرآن الى العظة والهداية ، ووسيلة من الوسائل الكثيرة الهادفة الى هذا المثل الأعلى .

ويرى بعض الدارسين أن الأمثال في القرآن أنواع . منها :

١ ـ الأمثلة الكامنة .

ويقصدون بها أن القرآن لا يصرّح بأنها أمثال ضربت لحادثة معينة ، وانما دلّ مضمونها على معنى يشبه مثلاً من أمثال العرب المعروفة . أي : إنها أمثال بمعانيها لا بألفاظها ؛ ومن هنا جاءت تسميتهم لها : أمثالاً كامنة .

نضرب على ذلك الحادثة التالية : قال أحد العلماء : ما تكلم العرب بمثال إلا وفي القرآن نظيره . فقال له أحد الناس : قالت العرب : « خير الأمور أوساطها » فأين أجده في القرآن ؟ فأجاب : تجده في أقواله تعالى :

١ ـ لا فارضٌ ولا بِكرٌ عَوانٌ بين ذلك[2]

---

(١) Encyclopedia of Religions and Ethics 9/629

(٢) البقرة ، ٦٨

٢ ــ والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقْتُروا ، وكان بين ذلك قواماً[١]
٣ ــ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنُقك ، ولا تبسطها كل البسط[٢]
٤ ــ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً[٣]

فسأله : وأين أجد قول العرب : مَنْ جهل شيئاً عاداه ؟ فقال : تجده في أقواله تعالى :

١ ــ بل كذّبوا بما لم يحيطوا به[٤]
٢ ــ وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم[٥] .
وأورد السيوطي أحد عشر مثالاً من هذا القبيل .

ويبدو لنا أن ذلك تنطع وتكلف لا حدّ لهما ، وأنه لا يكفي لإطلاق كلمة « المثل » على تلك العبارات ، وان حملت معنى مثل سائر دارج ، لأن الصيغة التي تشترط في المثل لا تتوافر فيها . لذلك فنحن نرفض ما جاء به السيوطي ، ومن تبعه ، ولا نعتبر الأمثال الكامنة شيئاً يستحق أن يدرج في بحث الأمثال .

٢ ــ الأمثلة المصرحة أو القياسية

ويقصد بها أن الصيغة التي وردت فيها العبارة قد تخللها لفظة « المثل » المكونة من الميم والثاء واللام . مثال ذلك قوله تعالى : « واضرِبْ لهم مثلاً أصحاب القرية إذْ جاءها المرسلون . إذا أرسَلْنا إليهم اثنين ، فكذ بوهما ، فعززنا بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسَلُون . قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيءٍ ، إنْ أنتم إلا تكذبون . قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا : إنا تطيّرنا بكم ، لَئِنْ لم تنتهوا لَنَرْجُمَنَّكمْ ، وليمسّنكم منا عذاب أليم . قالوا : طائركم معكم ، أئن ذُكِّرتم ، بل أنتم قوم مسرفون[٦] » .

ألا تلاحظ أن كلمة « مثلاً » وردت في صدر الآيات ؟ وأن الغاية من ضرب المثل تصوير حادثة من الحوادث يقصد منها التأديب ، أو التحذير ، أو تبيان طريقة السلوك ؟ ألا تلاحظ ــ كذلك ــ أن ما دعوناه بالمثل المصرح أو القياسيّ كلام مطنب إذا قورن بالمثل السائر ؟ كذلك ألا تلاحظ أنه يجمع بين عمق الفكرة

---

(١) الفرقان ، ٦٧ — (٢) الإسراء ، ٢٩ — (٣) الإسراء ، ١١٠
(٤) يونس ، ٣٩ — (٥) الأحقاف ، ١١ — (٦) يس ، ١٣ وما بعدها

وجمال التصوير ، وأنه ليس تلخيصاً لقصة ، ولا إشارة لها ، ولا اقتباساً ، ولا اقتضاباً ، وانما هو قصة بأكملها جاءت على صورة مثل وقصد بها التأديب والإرشاد ؟ ..

من مجموعة هذه الملاحظات تستطيع أن تعرف المقصود بالمثل المصرّح أو القياسيّ .

واليك نموذجاً آخر : قال تعالى : « مَثَلُ الذين حُمّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسْفَاراً[1] » . لقد شبه اليهود وقد حُمّلوا التوراة ، وقرأوها ، وحفظوا ما فيها ، ثم لم يعملوا بما جاء فيها بحال حمار ، يحمل أسفاراً من الكتب النافعة ، وهو جاهل بمضمونها . ووجه الشبه بين الطرفين (المشبه وهو اليهود ، والمشبه به وهو الحمار) شقاء كلٍّ باستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة ، من غير أن يحصل على شيء منها . وغرض التشبيه أو التمثيل هو ذم اليهود بتلك الحال وتقبيح أمرهم .

وهذا نموذج ثالث : قوله تعالى في حق المنافقين : « ... أو كصيِّب من السماء ، فيه ظلمات ، ورعد ، وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت ، والله محيطٌ بالكافرين . يكادُ البرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء اللهُ لذَهَبَ بسمعهم وأبصارهم ، ان اللهَ على كلِ شيءٍ قدير[2] » . نجد في هذه الآية صورة مجازية مسهبة هي مَثَل قياسي مصرَّح ، يصف حياة هؤلاء الكفار الذين آثروا الضلالة على الهدى ، أشبه بمن انقض عليهم الوابل المنهمر ، فجرفهم فيما جرف ، لا يستطيعون الخلاص ، وصكت أصوات الرعد آذانهم ، فألقت في نفوسهم الرعب الشديد ، وبغتتهم البروق الخاطفة ، فهم يذودون عن أعينهم بأيديهم ، وخشوا أن تنقض عليهم الصواعق ، فوضعوا أناملهم في آذانهم . فهم بين هذه المشاهد المتتابعة ، والأحداث المتلاحقة ، والحركات العنيفة ، مفزّعون حيارى ، قد أخذ منهم الخوف والوجل كل مأخذ .

على أن المفسرين والبلاغيين لم يقتصروا على هذه الأمثال حين تحدثوا عن التمثيل في القرآن ، بل أضافوا اليها قصصا وصوراً مجازية أخرى ، وعدّوها من

---

(١) الجمعة ، ٥

(٢) البقرة ، ١٩ ــ ٢٠

من قبيل التمثيل ، على الرغم من أن لفظ المثل لم يرد فيها صراحة . فمن ذلك قول الأستاذ محمد عبده في تفسير قوله تعالى : « أَوْ كالذي مَرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشِها ، قال : أنَّى يُحْيِي هذه اللهُ بعدَ موتِها ؟ . فأماته اللهُ مائةً عام ثم بَعَثه . قال : كم لبثتَ ؟ قال : لَبِثْتُ يوماً أو بعضَ يوم . قال : بل لَبِثْتَ مائةَ عام . فانظرْ الى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّهْ ، وانظرْ الى حمارِك ، ولنجْعَلَكَ آيةً للناس ، وانظرْ الى العظام كيف نُنْشِزُهَا ثم نكسُوها لحما ، فلما تبينَ له قال : أعلمُ أن اللهَ على كل شيء قدير [1] » . قال الشيخ محمد عبده : « ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم [2] » .

ومن ذلك قول ابن القيّم في قوله تعالى : « ولا يَغْتَبْ بعضُكمْ بعضاً ، أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ مَيْتاً فكرِهْتُموه [3] » قال ابن القيّم : وهذا من أحسن القياس التمثيلي ، فانه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه [4] .

واذا بحثنا في مادة المثل القياسي ـ المصرح بوجه عام ، استطعنا أن نميز بين طائفتين : احداهما تتجه في موضوعها الى السلوك الإنساني ازاء رسالة الله ودعوته ، والثانية تتجه الى ملكوت الله ومخلوقاته . ومعظم الأمثال القياسية المصرحة في القرآن من الطائفة الأولى (٢٢ مثلا) ، والباقي من الطائفة الثانية (ثمانية أمثال) .

ومثال الأولى ـ السلوك الإنساني ازاء رسالة الله ودعوته ـ : قوله تعالى : « أولئك الذين اشْتَروا الضلالَةَ بالهدى ، فما ربحَتْ تجارتُهم وما كانوا مهتدين . مَثَلُهم كَمَثَلِ الذي استوقَدَ ناراً ، فلما أضاءَتْ ما حوله ذَهَبَ اللهُ بنورهم ، وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون [5] » . فهذا بيان لحالة الكفار ، وقد كانوا يترقبون الدعوة ، ويتطلعون إلى نور يهديهم الى الحق ، فلما أشرق هذا النور صدوا عنه ، وسلكوا سلوكاً معيباً ازاء الدعوة . وكذلك سائر الأمثال التي تندرج في هذه الطائفة . فالكفار في دعواهم وعنادهم « كالذي ينعَق بما لا يسمعُ الا دعاءً ونداءً [6] » . والطيبون الذين ينفقون في سبيل الله ، يضاعف لهم الأجر كـ « حبة أنبتتْ سبع سنابلَ في

---

(١) البقرة ، ٢٥٩
(٢) تفسير المنار للشيخ محمد عبده ٣/٥٢
(٣) الحجرات ، ١٢
(٤) الموقعين ١/١٤٦
(٥) البقرة ، ١٦ ـ ١٧
(٦) البقرة ، ١٧١

كلِ سنبلةٍ مائةُ حَبّةٍ[1] ». أو كـ « جنةٍ بربوةٍ أصابها وابلٌ فآتت أُكُلَهَا ضِعفين[2] » .
أما الذين ينفقون أموالهم رياء ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر « فمثلهم كمثل صَفْوانٍ عليه تراب ، فأصابه وابلٌ فتركه صَلْداً[3] » . أما هذا الذي وهبه الله آياته فانصرف عنها « فَمَثَلُه كَمَثَلِ الكلب إنْ تحمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركْهُ يَلْهَثْ[4] » .
« والذين كفروا بربهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدتْ به الريحُ في يومٍ عاصف ، لا يقدِرون مما كَسَبَوا على شيء[5] » .

ومثال الطائفة الثانية ـ الاتجاه إلى ملكوت الله ومخلوقاته ـ والتي لا تتعرض بصفة مباشرة لسلوك الناس وتصرفاتهم إزاء الله ورسالته ، كمثال الحياة الدنيا بماءٍ أنزلهُ اللهُ من السماء « فاختلط به نباتُ الأرض ، مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ ، حتى إذا أخذتِ الأرضُ زخرُفَها وازَّيَنتْ ، وظن أهلُها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حَصِيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس[6] » . أو « أصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوه الرياحُ[7] » . أما نورُ الله فمثله « كمِشْكاةٍ فيها مِصباحٌ ، المِصبَاحُ في زجاجةٍ ، الزجاجة كأنها كوكبٌ دريٌّ ، يُوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ ، لا شرقية ولا غربيةٍ ، يكادُ زيتُها يضيءُ ، ولو لم تَمْسَسْه نارٌ ، نورٌ على نور ، يهدي الله لنورِه من يشاءُ[8] » . وهذا المال الذي يعتز به الكفار لا يغني عنهم من الله شيئاً ، فمثله « كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ[9] ، أصابتْ حَرْثَ قومٍ ظلموا أنفسَهم فأهلكته[10] » .

٣ ـ الأمثلة المرسلة :

وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه . ويصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه . وقد اكتسبت صفة المَثَليَّة بعد نزول القرآن ، وشيوعها في المسلمين ، ولم تكن أمثالاً في وقت نزوله . وهي في جملتها مبادىء خلقية ودينيّة مركزة . نذكر منها على سبيل المثال :

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون[11] .
آلآن حَصْحَصَ الحقُّ[12] .

---

(١) البقرة ، ٢٦١ — (٢) البقرة ، ٢٦٥ — (٣) البقرة ، ٢٦٤
(٤) الأعراف ، ١٧٦ — (٥) إبراهيم ، ١٨ — (٦) يونس ، ٢٤
(٧) الكهف ، ٤٥ — (٨) النور ، ٣٥ — (٩) الصِر : البرد الشديد .
(١٠) آل عمران ، ١١٧ — (١١) آل عمران ، ٩٢ — (١٢) يوسف ، ٥١

ذلك بما قدّمتْ يداك[١] .

أليس الصبحُ بقريب[٢] .

لكل نبأ مستقرّ[٣] .

ولا يَحيقُ المكرُ السّيّئُ إلا بأهله[٤] .

قلْ كلٌّ يعملُ على شاكِلَتِه[٥] .

وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم

كم من فئة قليلة غلبتْ فئةً كثيرة[٧] .

لا يكلفُ اللهنفساً إلا وُسْعَها[٨] .

كلُّ نفسٍ ذائِقةُ الموتِ[٩] .

كلُّ مَن عليها فانٍ[١٠] .

ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا[١١] .

ليسلها من دونِ الله كاشفة[١٢] .

قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان[١٣] .

كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة[١٤] .

هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان[١٥] .

كلُّ حزبٍ بما لَدَيْهم فرحُونَ[١٦] .

ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ[١٧] .

لِمثلِ هذا فلْيَعْمَل العامِلون[١٨] .

لا يستوي الخبيث والطَّيِّب[١٩] .

تحسَبُهُمْ جميعاً وقلوبُهم شتَّى[٢٠] .

---

(١) الحج ، ١٠ (٢) هود ، ٨١ (٣) الأنعام ، ٦٧
(٤) فاطر ، ٤٣ (٥) الإسراء ، ٨٤ (٦) البقرة ، ٢١٦
(٧) البقرة ، ٢٤٩ (٨) البقرة ، ٢٨٦ (٩) آل عمران ، ١٨٥
(١٠) الرحمن ، ٢٦ (١١) القصص . ٧٧ (١٢) النجم ، ٥٨
(١٣) يوسف ، ٤١ (١٤) المدثر ، ٣٨ (١٥) الرحمن ، ٦٠
(١٦) المؤمنون ، ٥٣ (١٧) الحج ، ٧٣
(١٨) الصافات ، ٦١ (١٩) المائدة ، ١٠٠ (٢٠) الحشر ، ١٤

الفصل التاسع

القَسَم في القرآن

يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق وانقياده لنوره ، فالنفس الصافية التي لم تتدنس فطرتها تستجيب للهدى ، وتفتح قلبها لإشعاعه ، ويكفيها في الانصياع إليه اللمحة والاشارة . أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل ، وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها الا بمطارق الزجر ، وصيغ التأكيد ، حتى يتزعزع نكيرها . والقَسَم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم ، والاستدراج بالخصم الى الاعتراف بما يجحد[1] .

ليس أسلوب القسم قاصراً على القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى ، لكنه عام في أسلوب البشر ، مسلمين وغير مسلمين ، في الجاهلية وفي الإسلام ، وعند العرب وغير العرب .

ومن طبيعة الإنسان ـ في كل زمان ومكان ـ الحاجة الى تأكيد خبر سمعه ، أو وعد قطعه ، والرغبة في الاطمئنان الى كلام محدثه ، أو الرغبة في اطمئنان محدثه الى ما يقول هو . وهذا أمر شائع بين البشر ، أفراداً وجماعات ، ولا سيما في الأمور العظيمة كالمعاهدة بين قوم وقوم ، أو بين ملك ورعية ، أو بين أفراد الناس ليكونوا على ثقة من بعض ، فيعلموا الموافق من المخالف ، ويميزوا الولي من العدو .

هذه الحاجة الى التأكيد والاطمئنان دعتهم الى استنباط القسم ، حيث عبروا عنه بمصافحة اليد اليمنى لليد اليمنى ، وهذا ـ كما يبدو ـ أصل كلمة « اليمين » .

أو ربما عبروا عنه بأخذ عطر فاقتسموه بينهم ، ومسحوا به أيديهم ، فراحوا وَعَبَقُهُ يَضُوعُ من أيديهم وثيابهم ، كما كان في الجاهلية . وقصة « عطر مَنْشَم »

---

(١) مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن ص ١٣٧ .

التي وردت في معلقة زهير معروفة .

تداركتما عبساً وذبيان بعـدمـا تفانوا ودقوا بينهم عطـر منشم

أو ربما وصل بعضهم حبله بحبل الآخر فصار من حلفائه حتى صار « الحبل » اسماً لعقد الذمة والجوار ، كما جاء في القرآن الكريم « بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ الناسِ [1] » .

أو ربما حرموا على أنفسهم بعض المشتهيات كشرب الخمرة ، ومسّ الطيب ، وترجيل الشعر الى أن يصلوا الى هدفهم ، فهذا النذر لون من ألوان القسم .

أو ربما كفوا عن شيء من غير شرط ، وسمَّوْه « أَليَّة » كما جاء في القرآن « للذين يُولُون مِن نسائِهم تَربُّصُ أربعةِ أشهر [2] » ثم توسع استعمال « الأليّة » فصارت « آليت » بمعنى : أقسمت .

أو ربما استعملوا « لام التوكيد » دليلا على قسم ، فاذا قال أحدهم : « لأَفْعَلَنَّ » قصد بذلك : والله لأفعلن . ومن هذا القبيل قوله تعالى : « لأَمْلأَنَّ جهَنَمَ [3] » .

أو ربما استعملوا كلمة « أقسمت » يريدون بها التأكيد ، وأصلها من « قَسَم الشيء وقَسَّمه » اذا قطعه . والقطع يستعمل لنفي الريب والشبهة ، وللقول الفصل الذي يفرق بين الحق وضده .

أو ربما استعملوا كلمة « الحَلف » ومعناه القطع والحدة فيشابه كلمة القسم ، ويقال : سنان حليف ، أي قاطع ، ولسان حليف ، أي حديد ذلِق .

أو ربما عبروا بلفظة « أشهد » على القسم والتأكيد ، وقد وردت اللفظة دالة على لون من القسم في القرآن الكريم في قوله : « إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لَرسولُ الله ، والله يعلم أنك لَرسوله . والله يشهد إن المنافقين لكاذبون [4] » فسمى الله الشهادة منهم قسماً [5] .

ليس ــ اذن ــ للقسم لفظ واحد ، وانما له أساليب متنوعة ، ودلالات مختلفة ، وألفاظ عدة .

وفي القسم ثلاثة أمور :

---

(١) آل عمران ، ١١٢ (٢) البقرة ، ٢٢٦

(٣) الأعراف ، ١٨ (٤) المنافقون ، ١

(٥) انظر كتاب : امعان في اقسام القرآن لعبد الحميد الفراهي ص ١٤ – ٢٢

١ ـ أداة القسم
٢ ـ المُقْسَمُ بـه
٣ ـ المُقْسَمُ عليه

١ ـ أما أداة القسم

فالصيغة الأصلية هي : « أقسم » ، أو « أحلف » مع تعدِّي الفعل بالباء الى المقسَم به . كقوله تعالى « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت[1] » .
وهناك صيغ أخرى كثيرة تدل على أنها استعملت استعمال أدوات القسم .

ولما كان القسم يكثر في الكلام اختُصر ، فصار فعل القسم يحذف ، ويكتفى « بالباء » ، ثم عوّض عن الباء « بالواو » في الأسماء الظاهرة ، كقوله تعالى : « والليل إذا يغشى[2] » ، و« بالتاء » في لفظ الجلالة كقوله « وتالله لأَكِيدَنّ أصنامَكم[3] » .

٢ ـ أما المقسم به

فهو أمر جليل دائماً .

أقسم الجاهليون بعمرهم ، فقالوا : « لَعَمْرُكَ ، وَلَعَمْرِي ، وَلَعَمْرُ أَبِيكَ ... » وأقسموا بحياتهم ، فقالوا : « وحياتِك ، وحياةِ أبيك .. » وأقسموا بالجدّ فقالوا : « وجدِّك » . وقال طرفة :

ولولا ثلاث هـنّ منعيشة الـفتى وَجَدِّك ، لم أحفِلْ متى قام عُوَّدي

وأقسموا بالعزة ، والرأس ، فقالوا : « وعِزَّتِك ، ورأسِك ... »

ويبدو لنا أن هذه الألوان من الأقسام تكريم للمقسم به . فعمر الإنسان ، وحياته ، ورأسه ، وشرفه ، وعزته ، وجده ... من الأمور المكرمة الغالية عنده .. فيحلف بها الحالف تكريماً لنفسه أو تكريماً لمن يخاطب .

ونستطيع أن نعدَّ من هذا النوع قَسَمَ الله تعالى بالرسول الكريم في قوله ـ جل جلاله ـ : «لَعَمْرُكَ إنهم في سكرتهم يعْمَهون[4] »، وقوله تعالى : فلاوربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموكَ[5] » .

ونريد أن نشير إلى أن أقسام التكريم الجاهلية والإسلامية لا يحل أن يقسم بها مسلم يخاف الله .

---

(١) النحل ، ٣٨
(٢) الليل ، ١
(٣) الأنبياء ، ٥٧
(٤) الحجر ، ٧٢
(٥) النساء ، ٦٥

لله وحده أن يحلف بما شاء . أما العباد فليس لهم أن يقسموا بغير الله ، وكل حلف بغير الله ضرب من الشرك . ولقد روي عن عمر ـ رض ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من حلف بغير الله فقد كفر ، أو أشرك » .

ومن المقسم به في القرآن : قسم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته .

لقد أقسم الله تعالى بنفسه وصفاته في القرآن في عدة مواضع منها

١ ـ زَعَمَ الذين كفروا أن لن يُبعَثوا ، قل : بلى وربي لَتُبعَثُن[1] .

٢ ـ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة . قلْ : بلى وربي لَتَأْتِيَنَّكُمْ[2] .

٣ ـ وَيَسْتَنْبِئُونك أحَقٌّ هو؟ قل : إي وربي إنه لَحَق[3] .

٤ ـ فلا أُقسم برب المشارق والمغارب[4] .

ويتفق ابن قيم الجوزية في كتابه « التبيان في أقسام القرآن[5] » والسيوطي في كتابه « الإتقان في علوم القرآن[6] » وعبد الحميد الفراهي في كتابه « إمعان في أقسام القرآن[7] » على أن هذه المقسمات بها جاءت على وجه التقديس لها .

ونعتقد أن قَسَم الجاهليين بالكعبة ، والأنصاب ، والدم الذي هريق قرباناً أمام الأوثان ، من هذا القبيل التقديسي .

ومن المُقْسَم به ـ كذلك ـ في القرآن مخلوقات الله تعالى كالشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والفجر ، والنجوم ، والضحى ، والتين ، والزيتون ، وطور سينين ، وغيرها .. كقوله :

١ ـ والشمسِ وضحاها ، والقمرِ إذا تلاها[8] .

٢ ـ والليلِ إذا يَغشى ، والنهارِ إذا تَجَلَّى ، وما خَلَقَ الذكَرَ والأنثى[9]

---

(١) التغابن ، ٧ (٢) سبا ، ٣

(٣) يونس ، ٥٣ (٤) المعارج ، ٤٠

(٥) مطبعة حجازي بالقاهرة ـ تصحيح محمد حامد فقي ـ ص ١

(٦) مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٤٨/٤

(٧) المطبعة السلفية بمدينة أعظم كره بالهند ص ٢٦

(٨) الشمس ، ١ (٩) الليل ، ١ ـ ٣

٣ ـ فلا أقسمُ بالخُنَّس[١] .
٤ ـ والتينِ والزيتونِ وطُورِ سينينَ وهذا البلدِ الأمين[٢] .
٥ ـ والنجمِ إذا هَوَى[٣] .
٦ ـ والفجرِ وليالٍ عَشْرٍ والشَّفْعِ والوَتْر[٤].
٧ ـ ن . والقلمِ وما يَسْطُرونَ[٥] .

لله أن يقسم بما شاء ، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله . ولقد ذهب الإمام الرازي في تفسيره الكبير « مفاتيح الغيب » وابن القيم ، والسيوطي ، أن ما أقسم به الله هو من عظيم خلقه ، وجليل آياته . وراح ابن القيم يفصل في كل قَسَم ، ويحاول أن يستنبط منه وجه العظمة وسر القَسَم . ونضرب على ذلك مثلاً من كلامه في شرح القسم بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين . قال ابن القيم :

« أقسم الله سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي من مظاهر أنبيائه ورسله ، أصحاب الشرائع العظام ، والأمم الكثيرة . فالتين والزيتون المراد بهما نفس الشجرتين المعروفتين . ومنبتهما هو أرض بيته المقدس . فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً . وقد قال جماعة من المفسرين : إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما ، فان التين فاكهة مُخْلَصَةٌ من الشوائب ، لا عَجَم له ، وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأُدْم ، ويدخل في الأدوية ، ومزاجه من أعدل الأمزجة الخ ...[٦] » .

وعلى مذهب الرازي وابن القيم في تقسيم المقسم به سار المفسرون وراحوا يتأولون نواحي العظمة ، وسر هذه المقسم بها ، وجلال قدرها .

ولكن العالم الهندي عبد الرحمن فراهي يذهب مذهباً يخالفهم فيه جميعاً ، ويرى فيها رأياً آخر . ونحن نلخصه بما يلي :

« لما كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات كَثُر القَسَم بها ، ولذلك ظن من قَلَّ التفاته إلى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الإشهاد لا يكون إلا بالمعبود على جهة التعظيم ، ولكنك إذا سَرَّحتَ النظر في كلام العرب وغيرهم وجدت أنهم ربما استشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولم يعظموها ، وإنما أرادوا الاستدلال بجعل المقسم

(١) التكوير ، ١٥
(٢) التين ، ١ ـ ٣
(٣) النجم ، ١
(٤) الفجر ، ١ ـ ٣
(٥) القلم ، ١ ـ ٣
(٦) البيان ص ٤٣

به شاهداً على أقوالهم . وضرب المؤلف على ذلك عدداً من الأمثلة من الشعر العربي كقول أبي العُرْيان الطائي يمدح حاتماً الجواد :

قد عَلِموا والقدورُ تَعْلَمُه ومُسْتَهَلُّ الغرارِ[1] مُطَّرِد
أنْ ليس عند اعترارِ[2] طارقِها لديك الا استلالُها مَدَدُ

وكقول الراعي :

إن السماء وإن الريح شاهدة والأرض تشهد والأيامُ والبلدُ
لقد جزيتَ بني بدرٍ ببغيتها يومَ الهباءَةِ يوماً مَالَهَ قَوَدُ

وكقول عنترة :

والخيل تعلم والفوارس أنني فرقت جمعهم بضربة فَيْصَل

فقد رأيت في هذه الأمثلة أنهم استشهدوا بالقدور ، والمدية ، والسماء ، والريح ، والأرض ، والأيام ، والبلد ، والخيل ، والفوارس ، وليس المراد إلا أنك لو سألتهن ونطقن لشهدن على دعواهم .

ومن هذا الأسلوب ما قال الفضل بن عيسى بن أبان في وعظه : « سل الأرض فقل : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً » .

ويتساوى التعبير بكلمة « يشهد » أو « يعلم » أو ما يشبههما بالألفاظ الصريحة الدالة على القسم كواو القسم ، ولعمر ، أو ما يماثلهما . ومثل ذلك قسم الهِجْرِسِ حين قتل جسّاسا قاتلَ أبيه فقال : « وفرسي وأذنيه ، ورمحي ونصليه ، وسيفي وغِرارَيْه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهوينظر إليه » . فقد أقسم بهذه الأشياء استدلالاً بها ، كأنه قال : فكيف أترك قاتل أبي وأنا قادر على الكر والفر والطعن والضرب . فذكر في قسمه ما يُصَدِّقُ دعواه ويستدل به على وجوب ما أراد به ، كما مثّل الفراهي بشواهد من هذا القبيل من شعر طرفة بن العبد ، والحصين بن حمام في رثاء نعيم بن الحارث خليله ، واستشهد بكلام ديماستنس أعظم بلغاء اليونان ، ويوليوس الشاعر اليوناني على أن هؤلاء الناس من عرب وغير عرب يقسمون

(١) ومستهل الغرار : استلال السيف .
(٢) الأعترار : طلب المعروف

بأشياء عادية لا لغاية تعظيمها ، أو لكونها مقدسة ، بل لتكون شاهداً على ما يقولون ودليلاً على ما يتكلمون .

ثم جاء الكاتب إلى أقسام القرآن فبيّن أنها لا تكون للتعظيم إلا إذا كان المقسم به هو الله تعالى وشعائره ، وما عدا ذلك فهو لمحض الاستدلال .

وفي فصل طويل راح يأتي بالبرهان تلو البرهان على أن بعض ما أقسم به الله لتعظيمه وانما لمحض الاستدلال به ومن جملة ما قال :

« ما نهتدي إليه من حمل النظير على النظير ، وتفسير الآيات بعضها ببعض . فإنك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة على أسلوب القسم بها ، وأخرى على أسلوب الآية والعبرة ، وكلها أشهاد – أي أقسام – لمن يتفكر فيها ، قال تعالى « إنَّ في خَلْقِ السَّمَاوات والأرضِ ، واختلافُ الليلِ والنهارِ ، والفلكِ التي تجري في البحرِ بما يَنْفَعُ الناسَ ، وما أنزلَ اللهُ من السماءِ مِنْ ماءٍ فأَحْيَا به الأرضَ بعد مَوْتِهَا ، وَبَثَّ فيها مِنْ كلِّ دابّةٍ ، وتصريفِ الرياحِ ، والسحابِ المُسَخَّرِ بين السماءِ والأرض لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلُون[1] » . ومثل هذا كثير ، فيذكر الله آياته ويحتج بها . ثم ترى هذه الآياتِ استشهد بها القرآن على أسلوب القسم ، فأقسم بالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والفجر والضحى ، والريح والسحاب ، والجبال ، والبحر ، والبلد ، والإنسان ، والوالد والولد ، والذكر والأنثى ، والشَّفْعِ والوَتْر ، فكونُها آياتٍ دالةً له نظير ، ولا سبيل إلى إرادة تعظيمها .

ومن الأدلة قوله : ان العاقل لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس ، ولا سيما الذي ليس له كبير تقدّس ، كالخيل العادية ، والريح الذارية . وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخّرة مذلّلة طائعة . ففي نفس القسم بها دلالة على أن المراد بها محض القسم بها .

ومن الأدلة قوله : « إنَّ ما يَتْبَعُ المقسَمَ به مِن التنبيه على كون المقسم به دليلاً للعقلاء قوله تعالى : « والفَجْرِ وليالٍ عَشْرٍ ، والشَّفْعِ والوَتْر ، والليلِ إذا يَسْرِ ، هل هل في ذلك قَسَمٌ لِذي حِجْرْ[2] » هذه الجملة الأخيرة « هَلْ في ذلك قَسَمٌ لذي حِجْر » تشبه ما يَرِدُ في القرآن بعد ذكر الدلائل ، كقوله تعالى في سورة النحل « إن في

---

(١) البقرة ، ١٦٤ (٢) الفجر ، ١ – ٤

ذلك لآيات لقوم يعقلون[1] » ، أو كما جاء في سورة طه « إنّ في ذلك لآيات لأُولي النُّهَى[2] » ، أو كما جاء في سورة آل عمران « إنّ في ذلك لَعبرةً لأُولي الأبصَار[3] » وهذا كثير . فهكذا هاهنا بعد ذكر الأقسام نبّه على كونها دلائل لذي عقل وبصيرة . ويشبه ذلك ما جاء من التنبيه بعد القسم في سورة الواقعة حيث قال « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم[4] » أي إنَّ فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة ، فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المُقْسَم به[5] ؛ وفرق كبير بينهما .

٣ ـ أما المُقْسَمُ عَلَيْه

فيراد توكيده وتحقيقه ، ولا سيما إذا كان من الأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها .

وجواب القسم يذكر تارة ـ وهو الغالب ـ وتارة يحذف ، كما يحذف جواب « لو » كثيراً . كقوله « كلا لوْ تعلمون علم اليقين[6] » . وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب ، لأنه يدل على التفخيم والتعظيم ، فالتقدير مثلاً : لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم ما لا يوصف من الخير ، فحذف جواب القسم كقوله « والفجر وليالٍ عَشْر ، والشفعِ والوَتْر ، والليلِ إذا يَسْر ، هل في ذلك قَسَمٌ لذي حِجْر[7] » . فالمراد بالقسم أن الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال جدير أن يقسم الرب عز وجل به[8] ، فلا يحتاج إلى جواب . وقيل : الجواب محذوف . أي : لتعذبن يا كفار مكة . وقيل : مذكور ، وهو قوله « إنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصَادِ[9] » .

وقد يحذف الجواب لدلالة المذكور عليه ، كقوله تعالى : « لا أقسمُ بيوم القيامة ، ولا أقسمُ بالنفسِ اللَّوَّامة[10] » فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد « أيحسَبُ الإنسانُ أنْ لن نَجْمَعَ عظَامَه[11] » والتقدير : لَتُبْعَثُنَّ وَلتُحاسَبُنَّ .

---

(١) النحل ، ١٢

(٢) طه ، ١٢٨

(٣) آل عمران ، ١٣

(٤) الواقعة ، ٧٥

(٥) امعان في اقسام القرآن ص ٣٩

(٦) التكاثر ، ٥

(٧) الفجر ، ١ – ٦

(٨) هذا على رأي ابن الجورية في المقسم به

(٩) الفجر ، ١٤

(١٠) القيامة ، ١ – ٢

(١١) القيامة ، ٣

والماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد ، ولا يجوز الاقتصار على احداهما إلا عند طول الكلام . كقوله تعالى « والشمسِ وضحاها ، والقمرِ إذا تلاها ، والنهارِ إذا جَلاَّها ، والليلِ إذا يَغْشاها ، والسماءِ وما بناها ، والأرضِ وما طحاها ، ونَفْسٍ وما سَوَّاها ، فأَلْهَمَهَا فُجورَها وتقواها ، قد أفلحَ مَنْ زَكَّاها[1] ، فجواب القسم « قد أفلح من زكاها » حذفت منه اللام لطول الكلام .

ولذلك قالوا في قوله تعالى : « والسماءِ ذاتِ البروج ، واليومِ الموعود ، وشاهدٍ وَمَشهودٍ ، قُتِلَ أصحابُ الأُخدود[2] » : إن الأحسنَ أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب ؛ لأن القصد التنبيه على المقسم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة[3] ، وقيل : الجواب محذوف دل عليه « قتل أصحاب الأخدود » أي إنهم ملعونون ، يعني : كفارَمكة كما لُعِنَ أصحابُ الأخدود . وقيل : حُذِفَ صدره ، وتقديره : لقد قُتِلَ . لأن الفعل الماضي إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد ، ولا يجوز الاقتصار على إحداها إلا عند طول الكلام ، كما سبق في قوله تعالى : والشمس وضحاها ... قد أفلح من زكاها .

* * *

وختاماً ، قد ترد « لا » النافية على فعل القسم في بعض المواضع كقوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة[4] » فقيل : « لا » في الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام ، والتقدير مثلاً : لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب ، ثم استأنف فقال : أقسم بيوم القيامة . وبالنفس اللوامة ، إنكم ستُبعثون . وقيل : « لا » لنفي القسم ، كأنه قال : لا ، لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكني أسألك غير مُقْسِمٍ ، أتحسب أنّا لا نجمع عظامك إذا تفرقتْ بالموت ؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قَسَم . وقيل : « لا » زائدة .

---

(١) الشمس ، ١ – ٨ (٢) البروج ، ٤

(٣) على رأس المفسرين القدماء للمقسم به ، لا على رأي الفراهي – كما بيّنّا

(٤) القيامة ، ١ – ٢

وجواب القسم في الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد : أيحسب الإنسان .. الخ والتقدير : لَتُبْعَثُنَّ وَلَتُحَاسَبُنَّ[1] .

. . . .

ولا نظن أننا بحاجة إلى تفصيل فائدة القسم في الأسلوب العادي والقرآني ، أو أن نذكر أنه ينقل الجملة الخبرية الابتدائية الخالية من التوكيد إلى جملة طلبية إذا شعر المتكلم أن مخاطبه متردد في ثبوت الحكم وعدمه ويحتاج إلى لون من التوكيد ليزيل تردده ، كما ينقل القسم الجملة الخبرية إلى ضرب إنكاري حين يلحظ المتكلم أن مخاطبه منكِر ، يحتاج إلى مزيد من التوكيد ليزول إنكاره . والقسم أفضل المؤكدات في هذه السبيل ، وقد كثر في الآيات المكية لأن مقتضى الحال كان يتطلب هذا اللون من الأسلوب البليغ .

(١) مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن ص ١٤٠

الفصل العاشر

تناول الموضوع في القرآن

من المعلوم أن أبحاث القرآن كلها تتجه إلى غاية واحدة ، هي دعوة الناس إلى الإيمان بالله ، واتباع هديه ، والتصديق برسالة محمد ، وسلوك الصراط المستقيم .

والإيمان بالله يقتضي الإيمان بوحدانيته أولاً ، ثم الإيمان بملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وقدره : خيره وشره .

هذه العقيدة عرضت بصور مختلفة ، وبأسلوب يشترك في فهمه سائر أصناف الناس وطبقاتهم . ولذلك تراه ينبه الناس إلى أدلة الكون ، وما يشيع فيه من دقة النظام ، وروعة الخلق ، وجمال التنسيق ، دون أن يعرض لشيء من الأدلة المنطقية أو العلمية التي تختص بفهمها فئة معينة من الناس .

وإذا تأملت في معالجة القرآن لموضوع العقيدة ، فانك قلَّما تجده يعرض للدليل على أصل وجود الله ـ عز وجل ـ ، وانما هو يقرر وحدانيته ، وينبّه العقول إلى الأدلة المختلفة على ذلك . لأن وجود الله أمر مفروغ منه لا نزاع فيه ، ولا حاجة الى البحث عنه ، وانكار وجوده ، أو الشك فيه لا يقع إلا من مختل التفكير ، أو معاند مكابر .

ونريد أن نشير إلى أن الكلام في وجود الله ، والشك فيه ، أو فرض عدم وجوده ، شيء لم يعرف إلا في القرون المتأخرة ، والعصور التي فشا فيها الزيغ والانحلال وأراد الملحدون إيجاد مسوّغ لتحللهم فأنكروا وجود الله ؛ وبذلك تمَّ لهم التحلل من كل فضيلة والسعي إلى هدم كل تراث للعروبة والإسلام . أما ما قبل ذلك فوجوده أمر يؤمن به كل إنسان ، وكل ما كان من كلام أو جدال فهو في تفسير هذا الخالق ، وفي توهم وجود شركاء له ، أو توهم حلوله في الأفلاك

العشرة ، أو العقول العشرة ، كما كان يتخيل بعض فلاسفة اليونان .

وكان القرآن الكريم ـ مع إيراده الأدلة الكونية على وحدانيته ـ يعرض العبر والآيات المختلفة التي مرت في الماضي ، كي يستنير بها العقل ، ويعتبر ، وكي تتجلى مظاهر عظمة الله وقدرته في الماضي والحاضر والمستقبل .

وما القصة القرآنية التي فصّلنا القول فيها ، والأمثال المختلفة إلا وسائل لهذه الغاية الأولى ، غاية العبرة والموعظة والهداية .

* * *

أما عن عرض القرآن لموضوعات التشريع والمعاملات كأمور البيوع ، والإيجار ، والشركات ، والعقود المالية ، وقضايا الأحوال الشخصية من زواج ، وطلاق ، وميراث ، وما يتصل بأمور الأسرة ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض ، والجريمة ، والعقاب ، وصلات الدولة بالدولة أو بالجماعات الأخرى فقد فصلت تفصيلاً كبيراً ، وليس من البعيد أن نقول : إنها كانت قوانين مدنية وجنائية ، ونظماً دستورية ، وإدارية ، ودولية عامة وخاصة ، وقوانين مالية ..

غير أن طريقة عرض القرآن لهذه النظم والأحكام تمت في ثلاث طرق ، وذلك حسب اختلاف متعلقات تلك الأحكام .

١ ـ فمنها ما نص القرآن على حكمه بعبارات حاسمة واضحة مفصلة ، ولا إبهام منها أو إجمال . وذلك مثل فريضة الميراث وبعض العقوبات ونحوها .

٢ ـ ومنها ما اكتفى ببيان حكمه من وجوب أو حرمة أو إباحة ، وعرّف به إجمالاً ، وترك التفصيلات إلى بيان الرسول العظيم .

٣ ـ ومنها ما وضع فيه المبادئ الأساسية ، وقرر بحقه الأحكام الكلية ، ثم أناط تعيين الاحتمالات ، ووجوه التطبيق فيه بأعراف الناس ، وتطورات الزمن والأحوال ، كإقامة العدل ، والأخذ بالشورى .

ومع عرض موضوع العقيدة والمعاملات كان موضوع ثالث ينسرب في كل موضوع سواه ، هو « المبدأ الأخلاقي » الذي يشكل العامل المشترك في سائر الموضوعات الأخرى .

والعنصر الأخلاقي نتيجة للايمان الصحيح بالله ، والمعاملة الحسنة مع الناس . وكل جنوح عن المبدأ الأخلاقي يستلزم أن يكون صاحبه ناقصاً من جهة ما في عقيدته أو في كمال سلوكه مع الناس .

ومعيار الأخلاق في القرآن معيار ديني ، والأمر بالالتزام بالسلوك الحسن أمر ديني ، لأن فيه طاعة الله والانصياع إليه[1] . وهو القائل : « سَأَصْرِفُ عَنْ آياتي الذين يتكبرون في الأرضِ بغير الحقِّ ، وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها[2] » .

(١) البوطي ، من روائع القرآن ص ١٥٦ – ١٦٠
(٢) الأعراف ، ١٤٦

الباب السادس

تحليل أدبيّ من القرآن

سورة النَّبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ عَمَّ يتساءلون ؟ عن النَّبأ العظيمِ ؟ الذي هُمْ فيه مُختَلِفون ؟
٢ ـ كلاَّ سيعلمون . ثم كلا سيعلمون .
٣ ـ ألَمْ نجعلِ الأَرضَ مِهاداً ؟ والجبالَ أوتاداً ؟ وخلقناكم أزواجاً ؟وجعلنا نومَكم سُباتا ؟ وجعلنا الليلَ لِباساً ؟ وجعلنا النهارَ مَعَاشاً ؟ وبنينا فوقكم سَبْعاً شِدَاداً ؟ وجَعَلنا سِرَاجاً وهّاجا ؟ وأنزلنا من المُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً ؟ لِنُخْرِجَ به حَبّاً ونباتاً ؟ وجنات ألفافا ؟
٤ ـ إنَّ يَومَ الفَصْلِ كان مِيقاتاً . يومَ يُنْفَخُ في الصُّور فتأتُونَ أفواجاً . وفُتِحَتِ السماءُ فكانتْ أبوابا . وسُيِّرَتِ الجِبَالُ فكانَتْ سَرَاباً .
٥ ـ إنَّ جَهَنَّمَ كانتْ مِرْصَاداً . لِلطَّاغِينَ مَآباً . لابِثِينَ فيها أحْقاباً . لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شراباً . إلاَّ حَميماً وغَسّاقاً . جَزاءً وِفاقاً .
٦ ـ إنَّهم كانوا لاَ يَرْجُونَ حِساباً . وكَذَّبُوا بآياتِنا كِذَّاباً . وكُلَّ شَيءٍ أحْصَيْناهُ كِتَاباً . فذُوقوا فَلَنْ نَزيدَكم إلاَّ عَذَاباً .
٧ ـ إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً . حدائقَ وأعنابا . وكَواعِبَ أتْراباً . وكأساً دِهَاقاً . لا يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً ولا كِذَّاباً . جَزاءً من رَبِّكَ عَطَاءً حِسابا .
٨ ـ رَبِّ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما الرَّحمنُ ، لا يَمْلكُونَ منهُ خطاباً . يومَ يقومُ الروحُ والملائكَةُ صفّاً ، لا يتكلمونَ إلاَّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وقالَ صَواباً .
٩ ـ ذلكَ اليومُ الحقُّ ، فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ مَآباً .
١٠ ـ إنّا أنْذَرْنَاكُمْ عَذاباً قَرِيباً ، يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، وَيَقولُ الكافِرُ : يَا لَيْتَني كُنْتُ تُرابَاً .

سورة النبأ مكية ، والقرآن الذي نزل بمكة اتخذ أسلوباً مغايراً للأسلوب الذي نزل بالمدينة . ذلك أن الأسلوب المكي يميل إلى اللهجة الخطابية ، والنبرة الثائرة ، والوَقْع الشديد ، والجَرْس العنيف ، والفواصل القصيرة . والتهديد والوعيد ، وتصويرِ جهنمَ وأهوالِها ، والقيامةِ وكروبها ، والجنةِ ونعيمها .

والبداية التي بدأت بها السورة بدايةٌ مُدَوِّية ، لافتةٌ النظرَ ، مسترعية الانتباه ، جاذبة الأذن : بدأت بهذا السؤال الاستنكاريّ « عم يتساءلون » : عن أي شيء يسألُ بعضُهم بعضاً ؟ أو عن أي شيء يتساءلون فيما بينهم وبين أنفسهم ؟ أيتساءلون « عن النبأ العظيم » ؟ وفيه يختلفون ؟ .

والنبأ العظيم قد يكون البعثَ والحَشْرَ ، وقد يكون نُبُوَّةَ محمد ، وقد يكون شيئاً آخر . ولكنا إلى التفسير الأول نميل ، وإياه نرجح .

ذلك أن آيات أخرى كثيرةً وردت تصور إنكارَ المشركينَ لفكرةِ بَعْثِ الناس من مراقدهم بعد أن صاروا تراباً ورفاتا أو عظاما نَخِرَةً ، ذهبت بهم الرياح ، وعوامل البلى كل مذهب .

تساءلوا : أمِنَ المعقولِ أن يعودَ الإنسانُ إلى الحياة كما بدأ بعد أن شبع منه الفناء ، ومرت عليه الدهور ، وكرَّتْ عليه آلاف السنين أو ملايينها ؟ إنه لأَمْر لا يصدقه عقل ، ولا يؤمن به قلب ، ولا يقره عاقل . بل كيف يُقَرّ به ، والآباء والأجداد آمنوا أن الموت هو النهاية ، وأن لا شيء بعده . ألم يقل شاعرهم النابغة من قبل :

فَعَدِّ عَمَّا ترى إذْ لا ارتجاعَ لَهُ   وانْمِ القُتُودَ على عَيْرَانَةٍ أُجُدِ

بل ألم يقل طَرَفَةُ بنُ العَبْد عن نفسه :

كريمٌ يُرَوِّي نفسَه في حياتِه   ستعلمُ إنْ متْنا غَداً أيُّنا الصَّدِي

لأنه لا يؤمن بالبعث والحشر والحياة الأخرى ؟ .

بل ألم يطرق معظم الشعراء والمفكرين في الجاهلية ، ويتفقوا على أن الموت أمر لا بد منه ، وأنهم لم يؤمنوا بشيء يسمى بالحساب والثواب والعقاب ؟ ولهذا فليس من الغريب أن يسدل المشركون أيام محمد ستاراً كثيفاً على عقولهم ، ويرددوا ما قاله آباؤهم وأجدادهم من قبلهم ، ويكتفوا من الإنكار بقولهم : « إنا

وجدْنا آباءَنا على أُمّةٍ ، وإنّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُون[1] » .

وتفجّر الجواب في وجوههم عنيفاً مدوِّياً : « كلا سيعلمون » ثم تأكد من جديد بصيغة أقوى وأشد « ثم كلا سيعلمون » . و« كلا » في هذا السياق أداةٌ للرَّدْع ، والزجر عما تساءلوا عنه واختلفوا ، وحذْفُ مفعولَيْ يعلمون كان لغاية بلاغية رائعة ؛ ليجعل كل شيء يمكن أنْ يعلَمَه الإنسانُ أو يتعلَّمَه في قريب الزمان أو بعيده داخلاً في هذا السياق ومُحْتَملا لأن يكون من مفعولَيْ « يعلمون » .

هذا من حيث المعنى . **أما من حيث السحرُ والإعجاز ، وروعة الأداء** ، فنجده في هذا السؤال المفاجئ المدوّي الذي افتتحت به السورة « عم يتساءلون » ، ثم في هذا التفسير لِكُنْهِ السؤال « النبأ العظيم » . وفي الجواب الذي هو أشبه ما يكون برد الفعل المباشر الذي يسميه علماء النفس بالفعل المنعكس الشرطي Reflex والذي نشبِّهه بوضع سائق سيارة ماهر متدرب ، يقود سيارته براحة ويُسْر دون أن يفكر فيما يقوم به من حركات آلية في القيادة . وقد يكون في أثناء قيادته يستمع إلى نشرة أخبار ، أو قصة مذاعة ، وفجأة يمر أمام سيارته طفل ، أو تفاجئه سيارة من منعطف خفيّ ، فإذا به فجأة وبدون تفكير أو شعور ، يرفع رجلَه عن ضاغِطِ الوقود ويضعُها على الكابح ، ويضع رجله الثانية على آلة السرعة ويضغط عليها ، وفي الوقت ذاته يغيِّر بيده مفتاح الحركة فينزله من الدرجة الأعلى الى الأدنى ليوقف السيارة حالاً . إنه يفعل ذلك كلَّه بحركات آلية ، وبدون تردد أو خطأ ، بل بدون أن يفكر أنه يجب عليه أولاً أن يفعل كذا ، ثم يتبعه بكذا وكذا . وهذا الفعل هو الذي نسميه « بالفعل المنعكس الشرطي « Reflex » .

ولو سألت قائد السيارة : لِمَ فَعَلْتَ ذلك ؟ أجابك : لأن ذلك يعني كذا . ويفصل لك أسباب عمله ، ويشرح لك مغزى كل حركة ، ولا تملك في النهاية إلا أن تقره على ما فعل ، وتؤمن بما جاء به .

ونعود إلى الآيات لنعرف ماذا سيعلمون ، ولماذا كان يجب عليهم أن يؤمنوا بالبعث ، والقيامة ، أو بمحمد ، أو بما جاء به ، فتلقَى الشرح وافياً ، والمنطق حكيماً مسدّداً .

---

(١) الزخرف ، ٢٣

إن الجواب جاء على صورة أسئلة متلاحقة ، كلها تنصَبُّ في جواب واحد ، وهو : « الله » .

بدأت الأسئلة عن صانع الأرض التي يَدِبُّ عليها الإنسان ، والجبال التي تقف شامخة في وجهه وتعترض سبيله ، ثم انثنت إلى الإنسان ذاته ، وعجيبِ خَلْقه ، وكيف توزع الناس الى ذُكران وإناث مع أنهم من ماءٍ واحد ، وزُرعا في أرض واحدة ؛ وانتقل بعدها إلى هذا الفَلَكِ الكبير الذي يجيء بالليل ثم بالنهار بكل انتظام ودقة ، ومكانِ هذا الفلك الذي هو السماوات ، وما ضمت من شمس محرِقة حيناً ، ومدفِئة حيناً ، ولكنها منيرةٌ في حالتَيْها ، ومن غيوم تُعْصَر فينزل منها الماء فيكون بها حياة الإنسان وبهجة فؤاده .

هذه الأسئلة المتوالية ، القصيرة ، شملت الإنسان والأرض والسماء وما بينهما . وكل عنصر منها فيه من إبداع الصنعة ، والقدرة الهائلة ، والسلطان الباهر ما يعجز أكبر المخلوقات ، ويَشْدَهُ أرجَحَ العقول ،ويعيد البصر خاسئاً وهو حسير .

أما من حيث الفن فإنا نجد صورة من التركيب لم نألفها في الشعر الجاهلي والعصور التي تلته أو في النثر في كل عصوره ودهوره . فهذا الفصل الشديد في أوائل السورة بين الفواصل ، ثم هذا الوصل المتوالي في الأسئلة يَلْفِتَان النظر ، ويوجبان الاهتمام . فالافتتاح بـ « عم يتساءلون » لم يعقِبْهُ وَصْلٌ في ثلاث فواصل متتالية ، كأن كلاً منها عالَمٌ مستقل ، لا ارتباطَ به مع سابقه ، وهو في الحقيقة مترابط ، وفيه كما يقول أرباب البلاغة « كمال الاتصال » . والوصل في الأسئلة جاء ليؤدي فكرة الاتصال ، والاشتراك في الحكم ذاته بينها جميعاً .

ولا نريد أن نتحدث عن الإيجاز الذي صيغت به تلك الفكر العميقة ، كما لا نريد أن نتحدث عن روعة ذلك الإيجاز ، فأمره بَيِّنٌ لا يخفى على من عنده أدنى مُسْكَةٍ من ذوق ؛ إنما نريد الحديث عن هذا التناغم الرائع ، وهذا الإيقاع العجيب ، وهذه الموسيقى الصادحة الصاخبة ، وهذه الصور التي صورتها الكلمات من ناحية ، والموسيقى من ناحية أخرى . إنها الأونوماتوبيا «Onomatopoeia» التي تَعْني محاكاةَ اللفظ بصوته لمعناه .

إن الشعر يمتاز عن النثر بنغماته وإيقاعاته ، كما يمتاز النثر عن الشعر بقدرته على تفصيل المعنى وبسطه ، فكيف إذا اجتمعت في أسلوب واحد مِيزَتَا الشعر والنثر في آن واحد ؟ .

وإذا تأملنا هذه الآيات القليلة بما حملت من معان بعيدة المرمى ، وأضفنا إليها الأداء الفني الذي سبكت به وصيغت من قِصَر الفواصل ، وترتيبها المنظم ، وتوازنها المحكم ، ومفرداتها الفصيحة ، وتراكيبها البليغة ، وحروفها المنسجمة ، وإيقاعها المتواتر ، ونغمتها المتساوقة « يتساءلون ــ العظيم ــ مختلفون ــ سيعلمون ــ مهادا ــ أوتادا ــ أزواجا ــ سُباتا ــ لِباسا ــ معاشا ... الخ ». وما أدَّاه حرف القلقلة « الجيم » في الأسئلة وهو أكثر الحروف وروداً بعد المدود.، ثم ما أضفاه الفَتْحُ في الحروف من جمال على سلوب وجدنا الإعجاز ذاته الذي شَدَهَ العرب ، ودفع كبراءهَم إلى أن يتسللوا في الظلام نحو بيت محمد ليستمعوا إليه وهو يرتل القرآن ترتيلاً .

ثم تأتي الآيات معبرة عن مصير أولئك الذين ينكرون البعث والحياة الآخرة ، فتصور لهم المقدمات التي تسبق يوم القيامة ، وما يكون فيها من ظروف واضطرابات ، فتبدأ بجملة اسمية خبرية مؤكَّدة بإنّ ، ثم يفصِّل الحديث ، فتورَد الجملة الخبرية المفتتحة بالفعل المضارع « ينفخ » ويقدم عليه الظرف « يوم » ليفيد الحصر ، والتخصيص ، وتأكيد الخبر ، وتلحقها جملة فعلية اخرى مبدوءة بمضارع معطوف على ما قبله بالفاء التعقيبيَّة ليشار إلى أن المهلة جدّ قصيرة بين نفخة الصور وحشر الناس . وتتوارد بعدها الجمل الفعلية الخبرية المبدوءة بالأفعال الماضية ، كأن الأمر أصبح عياناً ، ولمسه كل مخلوق ، وعاش فيه كل من جاء إلى هذه الحياة ، ورآه رؤيا العين ، وأصبح لا شك فيها . والفعل الماضي أنسب الأفعال للحديث عن الأمور التي أصبحت كالذكريات .

ولعلماء البلاغة اجتهاداتٌ طريفة في هذا التنقل بين الصيغ الزمنية للأفعال التي يسمونها « الالتفات » ومعظمهم يعلل سبب ورود الفعل الماضي للذي لم يأت بعد بأنه من الوضوح والجلاء واليقين إلى درجة أن السامع يستطيع أن يتصور الصورة الغريبة في خياله كأنها واقعة ملموسة . وقد كثر هذا اللون من التعبير في القرآن .

ولا بد أن نلاحظ أن عدد المفردات في تراكيب الفواصل المقاطع الثلاثة الأولى كانت أقلَّ من عدد مفردات تراكيب الفواصل في المقطع الرابع . ويظهر لنا أن الحماسة والتدفق في الأولى تحتاج إلى فواصل قصيرة متلاحقة ، بينما الوصف والتصوير في المقطع الرابع أقل حاجة إلى هذا التقصير . وقد كان القرآن رائعاً في هذا التعبير .

كذلك في اختيار المفردات في المقطع الخامس إبداع ما بعده إبداع ، ففردة « جهنم » و« مرصادا » و« للطاغين » و« أحقابا » و« حميما » و« غسّاقا » فيها ضخامة تملأ الفم ، ورعب يملأ الفؤاد . ولو أبدلنا مفردة « جهنم » هنا بما يرادفها كالسعير ، أو النار . ومفردة « للطاغين » بنظائرها كالظالمين ، أو الباغين ، أو المستبدين . ومفردة « أحقابا » بـ « أزمنة ، أوسنين ، أودهور » . وسرنا في طريقة الإبدال بين المفردات وصلنا إلى صورة باهتة شاحبة ، خالية من التأثير المطلوب ، فارغة من المعنى المرغوب ، وضاع النص الرائع لأن الصورة المخيفة تضاءلت بتغير المفردات .

لِنجربْ ترديد تلك الألفاظ التي أشرنا إليها مراراً ولْنلاحظ وقعها في نفوسنا ، وجرسها في آذاننا ، وصورتها في عيوننا ، ثم لنجرب المفردات الجديدة التي رغبنا في إحلالها محل الأولى ، ولْنردِّدْها مراراً . وسننتهي إلى النتيجة التي انتهى إليها مَنْ قبلَنا من العلماء والنقاد وأرباب الذوق والبلاغة وهي أن الإبدال مُخِلّ ، وأنه يجعل الأسلوب المعجز سواء من كلام الناس .

أما في الجانب الإيقاعي في هذا المقطع الخامس فإنّ إعجازاً آخر يتجلى لكل ذي عينين . فالإدغام في المطلع في النونات ، وكثرة التنوين في المفردات ، وازدحام المدود في كل مقطع ، وتراكم حركات الفتح على الحروف ، كلّها توحي بامتداد الزمن إلى آفاق لا منتهى لها ، واسترسال في عذاب أبديّ دائم ، وأنين مستمر متصاعد ، وصوت عظام تتكسر ، وصدى أفواه تتقيأ ، وصورة صديد يُتَجَرَّع ، ثم شماتة في النهاية ، شماتة بمن أعرض واستكبر وكفر .

وفي المقطع السادس يعود الهدوء ، ويطول التراخي ، وتتطاول الفواصل ، لأن الموضوع عاد إلى تحكيم العقل ، وبيان السبب ، وإقناع الناس بعدل الجزاء ، وَمَلءِ القلوب بخشية الله .

ويطلع علينا المقطع السابع بالوجه الآخر من الصفحة ، وهي صفحة الصفاء والهدوء والنعيم ، والدَّعَةِ والسرور والانشراح .

صورة الفريق الثاني من الناس ، الذين آمنوا بربهم ، وصدَّقوا محمداً ، واتقوا الله ، وفي سبيل عقيدتهم حرَّموا على أنفسهم ما حرّم الله ، وفي سبيل آخرتهم باعوا شهواتِ أنفسهم ، وعاشوا في الحياة كأنهم ليسوا من أبناء الحياة .

إنهم الفائزون ، ولهم الحدائقُ وثمراتُها ، واللذاتُ ومُتَعُها ، والأشربة وفرحتها ،

والصّحاب والأحباب ، وفوق هذا كله لهم رضى الله وحبه وقربه .

الهدوء في الكلمات ، والسكينة في التعابير ، واللذة في القراءة ، والانسياب في التعبير ، والراحة في وقع هذا كله على الأذن .. تجمعت في المقطع السابع وتلاحقت ، وكانت الألفاظ بجرسها صدى للصورة ، ومرآة للمعنى .

وتتلاحق المقاطع الثلاثة التالية رخية هادئة ، فيها تطاول وامتداد وفيها هدوء وارتياح ، وفيها انسياب وانطلاق ، وفيها جلال ووقار ، تصدح فيها الحروف ، وتسري الكلمات مطمئنة رخيَّةً حتى النهاية ، إلا أن المقطع العاشر ينتهي بالإنذار الهادئ ، والزفرة الحَرَّى يطلقها مَنْ فَاتَهُ الرَّكْبُ ، وضلَّ عن السبيل . وما أشبهها بنهاية العاصفة الحمراء المدمرة التي دمرت ما دمّرت وأصابت ما أصابت ، ووقف ابنُ الأرض حسيراً يذرف الدموع على مصيبته ، يعض يده على عدم احتياطه لمثل هذه الساعة الرهيبة .

* * *

وبعد ، فيقول الناقد الفرنسي « بول فاليري » : إن النص الخالد هو الذي يشكِّلُ معناه مع مبناه كلاًّ لا يتجزأ ، أو ما أسميه : « بالتجاوب الموسيقي Transmission Musicale » .

ويخيل إلينا أن القرآن أكبر ما هدف إليه الناقد ، ووصل إلى أبعد مما رمى إليه ابن الإنسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة القلم

ن وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ *
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *
فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ
ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ
مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ
بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ *

يكاد العلماء يجمعون على أن سورة القلم من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، ولكنهم يختلفون في تاريخ نزولها ، أأنزلت بعد سورة العلق « اقرأ باسم ربك » أم أنزلت بعد المدثر والمزمل ؟ .

ومهما يكن من أمر اختلافهم فإنا لا نشك في أولية هذه السورة ، ولكنا نميل إلى أنها نزلت متأخرة عما ذكروا لما فيها من مجابهة صريحة حادة مع المشركين ، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أول دعوته يدعو الناس سراً ، ولم يكن يجابه الناس ، أو يصطدم بهم ، ولم يحدث ذلك إلا في وقت متأخر بعض التأخر.

كذلك يختلف المفسرون في معنى هذه النون التي افتتحت بها السورة ، ويذهبون في تأويلها مذاهب شتى ، هي بعض ما ذكرناه في فصل « فواتح السور » . ولقد ملنا في ذلك الفصل مع القائلين : إن هذه الأحرف هي أحرف اللغة العربية ، منها تتكون كلماتها ، ومنها نزل القرآن ، فأعجزهم بفصاحته ، وبهرهم ببيانه مع أنه تألف من حروف العربية ذاتها التي منها النون والقاف والصاد والحاء والميم ..

لكن معظم المفسرين اتفقوا على تفسير القلم بأنه القلم الذي يسجّل به الملائكة سجل الناس في اللوح المحفوظ ، أو هو الأداة التي ينتقل بها الإنسان من عالم الجهل إلى عالم العلم والنور. وبما أن الله أقسم بالقلم فهو قسم معظم ، وهو أداة مبجّلة ، ولولا ذلك ما استحق أن يحلف الله تعالى به .

ولقد سبق أن ملنا إلى الرأي القائل بأن أقسام الله على أنواع :

منها المقدس ، ويكون حين يقسم الله بذاته أو بصفاته .

ومنها الدال على التكريم ، وهو الذي يقسم فيه بعمر نبيه أو بما يتصل به من أمور.

ومنها الدال على أمر عادي ، وبحسبه أن يكون مجرد شاهد على صدق القول .

ولقد فصلنا الدلائل في هذا القسم تفصيلاً بيّنا ، ثم استشهدنا على ما ذهبنا إليه بشعر العرب في جاهليتها ، وبعد إسلامها ، وعند الأمم الأخرى على حد سواء .

نقول : إن الله يقسم بالقلم ـ وله أن يقسم بما يشاء ـ وسواء أكان القلم هو الذي يسطر به الملائكة أقدار الناس ـ بأمر ربهم ـ على اللوح المحفوظ ، أم كان القلم الذي يسجل به الرقيب والعتيد ما ينطق به كل مخلوق ، أم كان القلم العادي الذي يكتب به الناس شرعة الله ، وأنظمة حياتهم ، ونتاج عقولهم ، وخفقات

قلوبهم ؛ فان الله قد أقسم به استدلالاً على كرامة نبيه ، وصدق رسوله ، ومكانة مبعوثه .

وإن سياق الآيات ليوحي إلينا أن مجابهة ما ، حدثت بين محمد والمشركين ، فقال لهم ، وقالوا له ، وتحدث عنهم ، وتحدثوا عنه ، واصطدم بهم ، واصطدموا به ، وكان مما قالوا عنه : إنه مجنون .

والقرآن الكريم يؤكد هذه المجابهة ، وينقل إلينا ما اتهموه به ، ولا سيما الجنون فقال على لسانهم « وقالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون[1] » وقوله « قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون[2] » وقوله « ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون[3] » وقوله « ثم تولوا عنه وقالوا معلَّم مجنون[4] » وقوله « فتولى بركنه وقال : ساحر أو مجنون[5] » وقوله « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون[6] » وقوله « فذكِّرْ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون[7] » وآيات كثيرة أخرى تدل على ذلك الاتهام ، ونعوت أخرى وصموه بها .

إن الله الذي خلق الوجود والقلم والنور والحياة يقسم مخاطبا نبيه ، لينقل قوله إلى هؤلاء الأفاكين : لست أنت يا محمد المجنون ، وذلك فضل الله عليك .. ولست أنت الذي أنعم الله عليك برسالته مجنوناً .

إنك ــ يا محمد ــ لتحتمل هذه التهم وتحتمل ، وتصبر وتقاسي ، وتجابه وتؤذى ، وتنالك الشرور ، وتسلقك الألسنة ، إنك مأجور ، وأي أجر لك ؟ إنه أجر دائم خالد لا ينقطع ، ولا ينصرم ، ولا يكون فيه منّ أو استعلاء .. « إن لك لأجراً غير ممنون » .

يا محمد ! يا رسول الآله !

احتمِل الأذى ، واصبر على ما يقولون ، ودع قريشاً وظالميها يفترون ما يفترون ، ويتهمون ما يتهمون . دعهم ينالوك بألسنتهم وبأيديهم ، وبكل ما يملكون من وسائل الشر والضرر ؛ فللصبر أجره ، وللاحتمال ثوابه ، ولدعوة الحق التي

---

(١) الحجر ، ٦
(٢) الشعرا ، ٢٧
(٣) الصافات ، ٣٦
(٤) الدخان ، ١٤
(٥) الزرايات ، ٣٩
(٦) الزرايات ، ٥٢
(٧) السطور ، ٢٩

تدعو به عطاء الله الدائم ، وخيره الذي لا ينقطع ، فأنت أنت بعين الله ورعايته ، وأنت الذي ستصلي عليك الدنيا بعد صلاتها لله . يا محمد ! « إن لك لأجراً غير ممنون » .

هذه شهادة من الله ، ومصدقة من السماء ، ووثيقة ممن خلق الوثائق ؛ خذها يا محمد ، أعلنها في الوجود ، وانشرها على أسماع قريش ، واملأ بها الدنيا ، وباه بها العالمين .. يا محمد : « إنك لعلى خلق عظيم » .

فلتتزلزل الجبال ، ولتنشق السماوات والأرض ، ولتتفجر البحار ، ولتقم الدنيا وتقعد ، ولتملأ قريش مكة والجزيرة والوجود بالشرور والهوان ، وليتطاول عليك كل قميء وحقير ، وليقولوا ما يشاؤون ؛ إن شهادتنا بك دائمة ، ووثيقتنا خالدة ورأينا فيك : « إنك لعلى خلق عظيم » ..

دع قريشاً تقل إنك مجنون ، ودع الصغار يرمـوا عليك وأنت ساجد لله روث الجزور ، ودع صبيان الطائف يقذفونك بالحصى والحجارة حتى تدمى عقباك ، ودع أكابر المجرمين يتحلقون حول بيتك ليقتلوك ويتخلصوا منك ومن دعوة الحق ، واصبر ثم اصبر.فداعية الله وسفيره « لعلى خلق عظيم » .

هذه الإهانات ستكون سبة قريش يوماً ، وهذه الألوان من الشرور نستطيع أن نوقفها عند حدها ما بين لحظة عين وانتباهتها ، وقريش بأجمعها ومن سار في ركابها ، يمكن أن نبيدها بلحظة أو قبل أن يرتد إليك طرفك ، ولكنا نريد أن يبقى كل شئ طبيعياً في حياة الناس لنثبت للدنيا التي تعيش فيها اليوم ، ولآلاف آلاف الأجيال داخل الجزيرة وخارجها أنك يا محمد «ذو خلق عظيم » .

غداً ينجلي الغبار ، وتظهر الحقيقة ، وينكشف السر ويبدو لكل ذي عين وعقل وقلب : مَنِ الذي كان عاقلاً ، ومَنِ الذي كان مجنوناً .

ستمر الأيام ، وسيدور الزمان ، وستشرق الشمس على وجود كله يسبح لله ، ويؤمن بمحمد ، وكله يهتف بالصلاة عليك . وحينئذ ستبصر أنت ، وسيبصرون هم ، وستعرف ويعرفون من منكم الذي كان مفتوناً عن عقله ، مجنوناً صرعه الجنون ، وتخبطه الشيطان ، ومن منكم كان عاقلاً ، رصيناً ، رشيداً ؟

يقولون عنك ـ يا محمد ـ أشياء وأشياء ، وينشرون ما يقولون بين الناس . فلا تبتئس ، ولا تحزن ، فان الذي خلقك وسوّاك أعلم منك ، وأعلم من قريش ،

وأعلم من الوجود كله بمن ضل عن سبيل العقل والحق والهدى وعالم النور ، ومن عرف الطريق ، وسار على الصراط المستقيم ، واتبع هدى الله . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين .

كذابون هم يا محمد ، أفاكون هم ، مفترون هم .. يفرشون لك الطريق بالأماني ، ويزينون لعمك أبي طالب خذلانك ومهانتك ، ويعرضون عليك أن تلين لهم ليلينوا لك ، وأن تعترف بآلهتهم ليعترفوا بإلهك ، وأن تصانعهم وتداريهم ليصانعوك ويداروك ويكفوا عنك أذاهم ..

يا محمد ! كذابون هم ، إياك أن تطيعهم فيما يزعمون . إنّ بودّهم أن يصلوا إلى إسكات صوتك ، والاعتراف بآلهتهم بأي وسيلة وثمن ليعودوا من جديد يملأون الدنيا بتكذيبك ورضاك عنهم ، وحينئذ يصلون إلى ما يريدون . فلا تطع المكذبين ، ودّوا لو تدهن فيدهنون .

أما ذلك الرجل الذي وقف بين الناس يحلف لهم على كذب دعوتك ، ويحلف لك ، ويكثر من الحلف على أنه صادق فيما يقول : « إنك مخطئ فيما تذهب إليه وتبشر به » .. فإنه رجل حقير كذاب . كذاب لأنه يحلف ، ويكثر من الأقسام ، وكل إنسان يعوزه الصدق يتقوى بالأيْمانِ ، وتغليظ الأقسام . والرجل الصادق لا يحتاج إلى ما يؤكد كلامه لأنه صادق وكفى ..

ذاك الحلاّف رجل حقير مهين ، ويكفيه حقارة أنه يكثر من السخرية بالناس والاستهزاء بهم ، وأنه يمشي بالنميمة ليوقع العداوة والبغضاء بينهم ، ويكفيه حقارة أنه يقف في وجهك يمنع دعوة الخير عن الناس ، ويمنع الخير من أن يصل إلى الآذان ، ويمنع الحق حين يسعى بالنميمة بين المخلوقات . حقير هو لأنه يعتدي على الأعراض حين يسلقها ، وحين يفشي روح الشنآن بين أبناء قومه . حقير هو وأثيم ..

حقير هو ، في جسمه ، وفي نسبه ، وفي لسانه . انظر إليه كيف انتفخ بطنه ، واتسع شدقه ، وغلظ طبعه ، وساء خلقه ، انظر إليه . أليس هو الذي تصفه العرب بالعتلّ ؟ .

وفتش عن نسبه ، فإنك ستجده الدَّعيّ بين قومه ، اللصيق النسب ، الزنيم في قريش ..

ذلك الرجل هو الذي يكيل لك التهم ، ويتقوَّل عليك الأقاويل : كذاب

لأنه حلاف ، مشاء بالشر ، ساخر من الناس ، حقير المظهر ، حقير المخبر ، دعيّ النسب ، قذر اللسان ..

وماذا يهمك من أمر مثل هذا الذي يسمى إنساناً ؟ أتغتر بأنه غني وذو أولاد كثر ؟ .. وماذا يكون في الغِنى والأغنياء ؟ ومتى كان الأغنياء السادة الحقيقيين في المجتمعات ، أو ليسوا هم الطغاة البغاة ، أو ليسوا هم بؤر السوء في كل المجتمعات ؟ أو ليسوا هم ـ إلا من رحم ربك وهداه ـ قساة القلوب والأكباد ؟ ومتى كان فخر الرجال بكثرة ذريتهم ؟ بل من الذي وضع هذه المقاييس للناس ؟ ومن هو العاقل الذي يتعرفها ويؤمن بها ؟ ..

ذلك الحقير ، لا تقم له وزناً ، وإن وقف في المحافل وصرخ بأعلى صوته : إن قرآنك أسطورة من أساطير الأولين ، وخرافة من خرافات السالفين ، وكذبة تفتريها وتدعيها ، وتزعم أنها وحي السماء إلى الأرض ، وأنك رسول الله .

مهلاً يا محمد ! نحن الذين سنتولى قصاصه ، ونحن الذين سنكويه في أعز ما يفتخر به ويعليه ويرفعه ـ ألا وهو أنفه ـ إنا سنكويه في أنفه ، كما تكوى الحيوانات حين يراد وسمها ؛ وحينئذ سيضحك الناس منه ساخرين هازئين ، ولسوف تكون سخرياتهم منه أشد وأوقع مما كان يسخر به منهم .

* * *

لو تأملنا ما بين هذه الآيات من ترابطٍ لوقفنا على أمر عجيب ، وفكرة محكمة . ذلك أن الموضوع كان مجابهة حادة بين رسول الله وقريش ممثلة في أحد زعمائها وأدعيائها .

فقد أقسم الله بما يتصل بالعلم ، ليكون في الموضوع إشارة إلى أن ما سيأتي به ناجم عن علم ويقين . وابتدأت الآيات بعد القسم بثلاث صفات مدح للرسول متوالية ، متدرجة حسب أهميتها : فقد نفى عنه الجنون أولاً ، وذلك نعمة من الله لأن العقل نعمة لا شك فيها ، ثم وصفه بأنه المأجور على صبره أجراً دائماً ، وأنه أخيراً ذو خلق عظيم . وبهذه الصفات شحنه شحنة قوية من المعنويات ، وملأه قوة ويقيناً وقدرة على المجابهة . ثم التفت إلى الآخرين وقرنهم بمحمد ، وقرّر أنهم هم المجانين وأن محمداً هو العاقل ، وربط ذلك بفكرة العلم والمعرفة ، فهو الخالق العالِم ، وقد كان القسم بالقلم موحياً بهذا العلم كما ذكرنا . ثم أمر رسوله ألاّ يطيع قريشاً في اغرائها ، وكذب ادعائها في طلب مهادنتها . ثم انتقل

من التعميم إلى التخصيص ، وكان ذلك في مجابهة ذلك الخصم .. ولقد نالت منه الآيات نيلاً كبيراً ، فلم تبق صفة سوء ظاهرة وباطنة إلا رمته بها ، وكشفتها للناس ـ صادقة غير مفترية ـ وحين تم لها ما أرادت ، انتهت بالسخرية المريرة منه على طريقة العرب ، وهي الكي بالأنف ، ولم يكن أنفه أنفاً وانما كان خرطوماً ـ زيادة في الإهانة ـ .

* * *

وإذا انتقلنا إلى دراسة الأسلوب وقفنا على روعة الإعجاز في صياغة هذه الآيات المعدودات ـ والقرآن كله من هذا القبيل ـ .

وأول ما يستلفت نظرنا تعدد حذف المفعول ، فلقد حذف المفعول في ثلاثة مواضع . أولها في : « ما يسطرون » ، وثانيها في : « فستبصر ويبصرون » . وآخرها في : « لو تدهن فيدهنون » . ولقد قرأنا في علم المعاني : أن المفعول لا يحذف إلا إذا أريد أن يكون في ذهن السامع مطلقاً عاماً ، ينصرف إلى كل مفعول يتخيله الذهن أو أن يكون معلوماً ، وحذفه أولى من ذكره ، ومن فوائد حذفه الاختصار ، واغناء السامع عن الاتيان بألفاظ يعرفها في الذهن وإن لم تذكر في اللفظ .

ولو تدبرنا مفاعيل الأفعال الواردة في النص وجدناها من النوع الأول ، وهو العام المطلق الذي يلائم كل فكرة يتخيلها السامع أو القارئ . ولا شك أن الحذف سمة من سمات البلغاء.والحذف أولى إن صح الحذف والذِكر معاً في الكلام .

ويستلفت نظرنا كذلك كثرةتنكير المفردات ، وحين نعود إلى القواعد التي قررها العلماء في أمر هذا التنكير ، نجد أن من المفردات ما ينكر لغرض التعظيم والتفخيم والتكثير،ويضربون على ذلك الأمثلة منها « له حاجب عن كل أمر يشينه » ومن هذا القبيل : « لأجراً » و« خلق » الواردتان في النص .

ومن المفردات ما ينكر لغرض معاكس ، ويعنون بذلك التحقير والتقليل ومن أمثلة البلاغيّين « وليس له عن طالب العرف حاجب » . ومن هذا القبيل مفردات « بمجنون ، وحَلّاف ، ومهين ، وهماز ، ومشّاء ، وبنميم ، ومناع ، ومعتد ، وأثيم ، وعتل ، وزنيم ، وذامال ، وبنين » . الواردة في النص . ولو ربطنا بين القاعدة البلاغية المقررة في كتب علم المعاني وهذه المفردات ، وسياق النص وقفنا على روعـة ، وعلى الدقة المتناهية في استعمال المفردات

القرآنية .

أما المفردات التي وردت مُعرَّفة فلها شأن آخر ، وكأن كل معرفة في النص النص جاءت ومعها هدف آخر غير معناها الذي كشفت عنه معاجم وقواميسها . لقد ورد « القلم » معرفاً ومقسماً به ، والتعريف باللام الجنسية هنا دلالة على رفعة شأن القلم . ووردت « ربك » معرفة بالاضافة لتكريم المضاف إليه لا المضاف ، ونعني بذلك تكريم محمد ، وهذه الإضافة توحي إلينا بجو من الرعاية الكبيرة ، والعناية التامة بالرسول الكريم ، واستعمال « ربك » في هذا الموطن له من روعة الدلالة ما ليس لكلمة « الله » أو « الرب » أو « ربكم » أو ما أشبه ذلك . تأمل هذه الاضافة وقد وردت مرتين « بنعمة ربك » و« إن ربك » فكأن الخطاب لمحمد وحده ، وكأن الله ــ في هذا الموقف ــ رب محمد قبل أن يكون رب سواه ــ ولو ربطنا بين موقف محمد وقريش ــ وهو الرجل الوحيد في المعركة أمام قوة من الرجال كثيرة في عددها ، كبيرة في قوتها ، شديدة في أذاها ، طويلة في لسانها ، قادرة على أن تفعل ما تريد ــ أدركنا يقيناً لم أضيف الرب إلى كاف الخطاب ، ولِمَ لمْ تستعمل كلمة أخرى ، وهل هناك أكبر من هذا التركيب وما فيه من معنى في تقوية جنان الرسول ؟

ونجد التعريف باسم الموصول في قوله « هو أعلم بمن ضل عن سبيله » . و« من » للعاقل في الأصل ، وقد تكون مجازاً لغير العاقل ، ولكنها هنا جاءت على أصلها ، وجاء معها الفعل الذي هو الصلة مفرداً لبيان حقارة هؤلاء الذين ضلوا ، وهم قليل ، وكأنهم فرد ، وهو فرد يزعم أنه عاقل ، في حين ألحق اللفظة المضادة للضلال وهي الدالة على الاهتداء ، فكانت اسماً مجموعاً معرفاً بلام العهد الذهني للتكثير ، والتعظيم ، وكأن هؤلاء الذين آمنوا ــ على قلة عددهم يومذاك ــ جمع كبير يملأ الدنيا وأن الذين كفروا من الحقارة والقلة كأنهم لا شيء أو فرد واحد « بمن ضل عن سبيله » .

قد يقول قائل : لم فسَّرتَ « المهتدين » هذا التفسير مع أن « المكذبين » وهي جمع ، ومعرَّفة باللام كتعريف المهتدين قد وردت بعد تلك الآية مباشرة ؟ أفلا يصح أن يقال عن « المكذبين » ما قلته في تعليل كلمة « المهتدين » ؟

وجوابي بالنفي قطعاً . ذلك أن النظرة اختلفت . فالاهتداء والضلال أمران يحكم فيهما الخالق . أما التكذيب فهو من الأمور التي يعانيها الرسول الإنسان .

وَرُبَّ مكذب كان في عنفوانه وأذاه يعدل أمة بأسرها ، فهل هو في عداد الأفراد أو الجماعات . ولا شك أنك ستميل إلى القول الثاني ، وتجده جماعة ، كما وجدت إبراهيم وحده أمة بأسرها .

ومحمد بشر ، وقوته محدودة ، وإنسانيته بكل ما فيها من عناصر لا تختلف عن عناصر الناس ، فلا غرابة أن يكون المكذب القوي في وجهه يعدل أمة ، ويجد فيه تكذيب الناس جميعاً له ؟ .

بل ما بالنا نذهب في التأويل بعيداً ؟ وننسى أن الغالبية العظمى يوم نزول هذه الآيات كانت مكذبة ، وأن الآية صوَّرتها على حقيقتها ؟ .

قد تتساءل عن كلمة « الخير » وردت معرفة بلام الجنس الدالة على الماهية ، وأحيطت من كل جوانبها بالمفردات المنكَّرة ؟ .

ونحن نقول : إن الخير فكرة ، أو حقيقة ، ويدل بهذا التعبيرعلى كل خير في الوجود ، صغر هذا الخير أو كبر . ولو جيء بدلاً منها كلمة « خير » وهي نكرة ، وصارت الآية الجديدة على هذه الصورة « مناع لخير معتد أثيم » تضاءلت فكرة الخير ، وقلَّت مع أن الفكرة توحي بأن ذلك الإنسان يمنع كل شيء في الدنيا يمكن أن يطلق عليه كلمة الخير ، ولا يكون ذلك إلا في استعمال الكلمة معرفة . أما إذا نكرت فقد ضاع المعنى المراد ، وتخصص الخير في جزء صغير .

ويلفت نظرنا إضافة « آيات » الى (نا) الدالة على الجماعة ، وكذلك الضمير الدال على الجماعة في الفعل (سنسمه) ، مع أن الله واحد ، وقد كانت الإضافة إليه في حالة الإفراد في كلمة (ربك) التي ترددت مرتين .

وبقليل من التروي والتمعن ندرك أن ذلك الموضوع الذي كان تقوية لجنان الرسول ، وتثبيته قد انتهى حديثه ، وبدأ الحديث في شكل جديد حين تولى الله جل جلاله ذاته الأمر ، والحساب والبطش . وفي مثل هذا الموقف تبرز العظمة ، وتظهر العزة ويبدو الجبروت ، ولا يليق الحديث إلا إذا استعمل فيه ضمير الجماعة . وكذلك كان .

وقد تقول : ما دام الله ينظر إلى محمد هذه النظرة الرائعة ، ويمدحه بهذه الصفات الخالدة ، ويذم المشركين وخصومه ذلك الذم الشنيع ، ويفرد الخصوم ، ويجمع المهتدين ، فلماذا لم يخاطب الرسول بضمير الجماعة زيادة في تكريمه ، ودعماً لمكانته ، وقد ناداه وخاطبه دائماً بضمير الفرد فقال « ما أنت ، بنعمة

ربك ، وإن لك ، وانك لعلى ، فستبصر ، ان ربك ، فلا تطع ، لو تدهن ، ولا تطع » ؟؟

نقول : مهما كان محمد عند الله مكرماً ، ومهما ارتفعت مكانته ، ومهما وصفه الله وأنعم عليه فإنه إنسان ، له حدوده ، وبشريته ، ويجب أن يبقى كذلك في المقام الإنساني ، ويبقى فرداً محتاجاً إلى الله ، ضعيفاً أمامه ، عبداً من عباده إضافة إلى كونه رسوله وسفيره . وليس بين هذه الحدود الإنسانية والرسالة تعارض وتناقض، وإن التعبير البليغ هو مخاطبته في صيغة الإفراد العادي الطبيعي .

وأخيراً ، فانك واجد كلمة « المفتون » جاءت على صورة اسم المفعول ، وكان المقصود بها في هذا السياق المصدر وهو « الفتنة » التي هي معنى من معاني الجنون ، وما ذلك إلا أسلوب من أساليب العرب ، ولكلمة المفتون وقع موسيقي ليس لكلمة « الفتنة » ، ولا لكلمة « الجنون » لأن أواخر الآيات قد جاءت على الصورة التالية : مجنون ، ممنون ، ويلائمها المفتون أكثر مما يلائمها « الجنون » .

* * *

وإذا انتقلت إلى دراسة التراكيب وجدت أموراً كثيرة أولها : ذلك التقديم الدال على الحصر والاهتمام في قوله « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » « وإن لك لأجراً » ، وقدم الحديث عن الضالين على المهتدين لأن الآيات كلها نزلت من أجلهم فالأولى أن يهتم بأمرهم لأنهم الهدف وليس المهتدون هم المقصودين .

كذلك تلاحظ أنه قدَّم من صفات الذم صفة « حَلاّف » فرسم الجو كله برسم الكذاب ، وشحنه بالحقارة ، ومن ثم أتبعه بالصفات الذميمة الأخرى بعد أن مهّد له التمهيد النفسيّ الملائم .

والجمل في النص توزعت إلى قسمين : خبرية وإنشائية . أما الخبرية فكانت من النوع الإنكاري الذي كثرت فيه أدوات التوكيد من قسم ، وتقديم وتأخير ، وباء زائدة ، ولام مزحلقة ، وسين استقبال ، وضمير فصل ، وجمل اسمية . وسبب ذلك أن الله يريد أن يؤكد للمشركين بأقسى أنواع التوكيد وأشدها صدق رسوله ، وقوة عون الله إياه .

أما الإنشائية فهي بين نهي ، وتمنّ ، وشرط ، فالنهي في « لا تطع » والتمني في « لو تدهن » والشرط في « إذا تتلى » .

هذا التلوين في التعبير حرّك النص ، وبث فيه الحياة وأشاع النشاط والجدل ،

والرد ، وأظهر القوة والصلابة ، وربط العالم الحسيّ بالعالم النفسيّ ، والأمور الظاهرة بالباطنة ، كما ربط من قبل حياة محمد في الأرض بعلاقته بالسماء .

ويبقى أمر الفعل الذي جاء في صيغة المجهول « إذا تُتْلى عليه آياتنا » وكان جوابه في صيغة المبني للمعلوم . إن الذوق المرهف ليتطلب هذه الصيغة فاضمار الفاعل ، وبناء الفعل للمفعول يقصد به غايات كثيرة ، منها : تنزيه اللسان عن ذكر من فعل الفعل لرفعة شأنه وعلو مقامه . والآية تصور رجلين : رجلاً يمثل رسالة الله ، وآخر يمثل لسان الشيطان . وإن الأوْلى والأجدر أن يقال : « إذا تتلى عليه آياتنا » وهي أفضل من قولنا « إذا تتلو عليه آياتنا » للإبقاء على صفة كرامة الرسول مع أن الذي يتلو الآيات في البناء للفاعل أو في البناء للمفعول هو محمد نفسه .

* * *

أما **التصوير في النص** فإنه يتجلى في المقام الأول في صورتين ، كل منهما رسمت على حدة ، وتشكلان في نهاية المطاف صورة واحدة .

الصورة الأولى : ذلك « العُتُلُّ » رجل قصير القامة ، واسع الشدقين ، ضخم الوجه ، منتفخ البطن ، يأكل فلا يشبع ، ويتحرك فلا ينشط ، مكروه في كل مكان لنهمه ، وقبحه ، وسوء خلقه .. هذا العتلّ كذاب ، مدّع ، أثيم ، حلاّف ، نمّام ، ساع في الشرور ، يمثل الرذيلة من كل جوانبها .. ولفظة « عتُلّ » بثقلها صورت ذلك الثقيل السَّمج ، وأوحت أحرفها بصورته قبل أن توحي الكلمة بالمعنى ، وقبل أن تكون هذه الشدات المتوالية تردفها « هَمّاز ، مشّاء ، منّاع » وقبل أن تكون صيغة المبالغة فيها .

والصورة التالية : ساخرة أو « كاريكاتورية » ان لهذا العتل أنفاً ، ولكن ليس كالأنوف ، « هو في البصرة والأنف في البيت يطوف » ــ على حد تصوير ابن الرومي ــ لم يعد أنفه من ضخامته أنفاً ، وانما هو خرطوم طويل ، يجره أمامه ، ويضعه بين يديه ، أو في جنبه حين يجلس . . وفجأة حدث حادث لهذا السيّد الذي هو الأنف ، لقد انصبت عليه حديدة محمرة من شدة حرارتها ، وطبعت عليه بصمة ، وتركت عليه علامة لئلا يضيع ويجهل مع أنه العلم الفرد . .

وإذا تذكرنا مكانة الأنف عند العربيّ واشتقاقات هذه الكلمة كالأنفة ،والأَنِف وما إلى ذلك وربطناها بأنف هذا الرجل الذي انقلب إلى خرطوم ، ثم وسم عليه بسمة ، رأينا ما للسخرية الكبيرة في الصورة .

ولنجمع الصورتين : القزم ، الجافي ، الغليظ ، المنتفخ ، الشرس ، الشرير ، الحقير ، التافه مع أنف يعدل كل هذه الصفات ، ثم حقارة هذا الأنف ، دمغه بدمغة الأنعام ، حينئذ تتجمع لدينا الصورة النهائية التي توحي بمقدار العنف والقسوة التي جوبه بها هؤلاء المكذبون المشركون ، وندرك الأسلوب المكيّ على حقيقته .

* * *

بقي الحديث عن موسيقى النص :

إن الفواصل انتهت على الشكل التالي : (ون=سبع مرات ، ين = خمس مرات ، يم = أربع مرات ، وم = مرة واحدة) .

كل الفواصل السبع عشرة تنتهي بمدود ، إضافة إلى مدود أخرى تنبع من قلب النص « نون ، ما أنت ، لعلى ، فلا ، ولا ، وَدّوا ، حلاّف ، همّاز ، مشّاء ، منّاع ، ذا مال ، إذا ، تتلى ، آياتنا ، قال ، أساطير » .

ويختلف مقدار المدّ من كلمة إلى أخرى ، فمن الكلمات ما يمد بمقدار حركتين ، ومنها ما يمد بمقدار أربع أو ست حركات كقولك : ما أنت ، ومشّاء .

ونتساءل : ما علاقة المدّ بالصورة أولاً ، وبالمعنى ثانياً ؟

والجواب عن ذلك سهل يسير ، تستطيع أنت أن تدركه بنفسك على أن تقوم بتجربة :

اقرأْ : « يسطرون » ومدّ الراء بالضم مقدار أربع حركات : أي يجب أن تبقى مادّاً الراء بالضم بمقدار ما تعد على أصابعك من واحد إلى أربعة .

ثم اقرأ : « ما أنت » ومُدّ الميم بالفتح بمقدار ست حركات ثم ائتِ الى الهمزة في « أنت » .

وهكذا افعلْ في المدود الأخرى ، وأعط كلاً منها ما يستحقه من الصوت المقرر في علم « الفونيتيك » أو « الصّوتيات » أو ما يسميه المسلمون بـ « التجويد » .

والآن : اربط بين اطالة الصوت بالمد ومعنى « يسطرون » .

واربط بين المد الطويل و« ما أنت » و« مشّاء » وبين المعنى .

وهكذا افعل في كل كلمة مددتها .
أفلا تلاحظ الصوت قد انسجم مع الصورة ، وخرجت بالشيء العجيب .

عد الآن معي إلى فكرة « الأونوماتوبيا » التي ترجمناها بموافقة الصوت للصورة .
وقل معي : إن أسلوب القرآن صوت وصورة وهذا الانسجام الهائل من أول القرآن إلى آخره هو الإعجاز الحق ، الذي تاه عنه الدارسون وتعللوا بالتشبيه والاستعارة

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الزُّخْرُف

١ ـ وَلَوْلا أَنْ يَكونَ الناسُ أُمةً واحدةً لَجَعَلْنا لمنْ يَكْفُرُ بالرحمنِ لبيوتهم سُقُفاً من فضة ، ومَعَارِجَ عَليها يَظْهَرونَ ، ولبيوتِهم أَبواباً ، وسُرُراً عليها يَتَّكِئون ، وَزُخْرُفاً . وإنْ كُلُّ ذلك لَمَّا متاعُ الحياةِ الدنيا ؛ والآخرةُ عند ربِّك للمتقينَ .

٢ ـ ومن يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمنِ نُقَيِّضْ له شَيْطاناً ، فهو له قرينٌ . وإنهم لَيَصُدُّونَهم عنِ السَّبيل ، وَيَحْسَبُونَ أنهم مُهتَدُون .

حتى إذا جاءنا قال : يا ليتَ بيني وبينَك بُعْدَ المشْرِقَيْن ، فبئسَ القرينُ . وَلَنْ ينفَعَكُمُ اليومَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أنكمْ في العَذَابِ مشتركونَ .

٣ ـ أفأنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ، أو تَهدِي العُمْيَ ، وَمَنْ كانَ في ضلالٍ مبين ؟ أو نُرِيَنَّكَ الذي وعدناهم ، فإنا عليهم مقتدِرون ؟

فاستمسِكْ بالذي أوحِيَ إليكَ ، إنكَ على صِراطٍ مستقيم .

سورة الزخرف من السور المكية ، وعهدنا بالقرآن الذي نزل بمكة شديد النبرة ، قوي الجرس ، مرعد ، مبرق ، يذكر النار وأهوالها ، ويذكر الجنة ونعيمها ، ويدعو إلى الإيمان بالله ، والتصديق بمحمد ، وعمل الخير .

ونقف أمام هذه الآيات ، فنجد شيئاً مما تعودنا عليه في الآيات المكية ، ونفتقد شيئاً آخر : الا أن هذا الذي لم نجده جاء غيره تعويضاً له .

* * *

تنصرف هذه الآيات المكية إلى البحث النفسي في أعماق المؤمنين ، ورسم صفات الكافرين ، وتنتهي بخطاب الرسول العظيم .

وكأنّ هذه الآيات تعني : أنه لولا خوف الله من افتتان المؤمنين به ، واضطراب أنفسهم ، وتزعزع قلوبهم ، لأعطى الكافرين ، وأعطاهم . وأمدهم بكل نعيم ، وبكل ما تشتهيه نفوسهم ، وتتمناه أحلامهم ..

إن الموضوع جد خطير ، وان العقل ليتيه في بعض الحالات في الظلمات . وان الإنسان ليفكر ويتساءل : لماذا يبقى المسلم ، والمؤمن بالله ، والرجل الصالح ، والإنسان المستقيم ، والمهتدي بهدي محمد ، والمطيع لربه . . . لماذا يبقى دون الناس فقراً ، ولماذا ينشد الطعام فلا يجده ، ويتلمس الغنى فيندّ عنه الغنى ، ويبغي المال ليقضي به حاجات الحياة فلا يرى المال ؟ ولماذا ينظر إلى هؤلاء الذين كفروا بالله ، وصدوا عن سبيله ، وأغرقوا في البعد عنه ، وتاهوا في الضلال ، وأمعنوا في الباطل ، وظلموا الناس ، واشتدوا على الضعفاء ، وأفسدوا في الأرض ، لماذا لا يجدهم إلا أقوياء أثرياء ، أغنياء كبراء ، يرفلون بالحرير ، ويركبون الرياح ، ويجدون ما يتمنون ؟ لماذا كل هذا ؟

أمن العقل أن يتلازم الكفر والغنى ، والايمان والفقر ؟؟ أمن الحق أن يجوع المؤمن ويتخم الكافر ؟

أمن الإنصاف أن يجوع محمد ، وأبو بكر ، وعمر ، ويعرى الصحابة ، ويتضور العلماء ، ويبقى الطائعون على الطوى والجوع والحرمان ؟ .

أمن الإنصاف أن يغنى كل كافر ، وأن ينعم كل جاهل ، وأن ترقص الحياة لكل حمار ؟ .

تلك بعض خواطر ، تجيش في صدور المؤمنين ، ولكن حياءهم من الله القويّ

الغني العادل يمنعهم من بثها والإفصاح عنها ؛ إنهم راضون بما قسم الله ، قانعون بما كتب ... ولكن لم كتب هذا ؟ .. أوليس من العدل أن يكون الأمر معكوساً ، فينعم المؤمن لأنه مؤمن ، ويشقى الكافر لأنه كافر ؟؟ .

وتهبط الآية المكية الرائعة : يا أيها الناس ، يا أيها المسلمون ، يا أيها الذين آمنوا ، لا عليكم .. ليس المقياس هذا ؛ وليس رزق الناس على قدر إيمانهم .. أبداً ليس هذا هو المقياس ..

إنا نمتع كل من كفر ، ونرزق كل من أشرك ، بل والأكثر من هذا ، إنا ـ لولا خشيتنا من انتشار الكفر بين العالمين جميعاً ـ لرزقنا كل من كفر ، بل وأعطيناه على مقدار كفره ، وكلما ازداد كفراً وبعداً عن الله ازداد رزقاً ..

ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ـ في الكفر ـ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ، ومعارج عليها يعرجون ...

ولكن ، مَهْلاً يا مؤمنون ! لا تعجلوا في الحكم ، لا تنظروا النظرة السريعة ، لا تغتروا في الظواهر .. أبداً لا تغتروا .. أنتم الأحباب الحق ، أنتم الأصفياء ، أنتم المقربون .

ذلك المال عند هؤلاء متاع الحياة الدنيا ، ولهو الأيام القصيرة المحدودة ، والأنفاس المعدودة .

تلك تجربة وامتحان . لكم ولهم . إنا نريد أن نستوثق من أنكم لا تحبون سوانا ، ولا تعبدون غيرنا ، ولا تؤمنون إلا بنا . وانا نريد أن نستوثق من أنهم لا يحبون سوى المال ، ولا يعبدون غيره ، ولا يؤمنون إلا به إلّهاً .

فصبراً ، أيها الأحبة ! إن الخلود للصابرين .

* * *

إن من يعمى عن ذكر الله ، ويتيه عن دربه ، وينأى عن حياضه نمهد له السبيل ، ونهيئ له الرفاق والأصحاب وكل دعاة الغواية والضلال يلازمونه ويزينون له الطريق ، ويحببون له ذلك السلوك ، ويجرونه إليه ، ثم يفلسفون له حسن الاختيار .

إنا نريد الامتحان ، ونريد معرفة من آثرنا وآثر سوانا ، ورغبنا ورغب عنا .. وسوف يأتي يوم نقدم فيه لكلٍّ من الفريقين كشف الحساب .

حينئذ ، يعض الظالم على يديه ، ويتمنى لو اتخذ مع الرسول سبيلاً ، وإلى الإيمان طريقاً ... ولكن هيهات ! لقد فات الأوان .

* * *

وأنت أنت ، يا محمد !

ما بالك اليوم ؟ أتريد أن تخترق الحواجز ، وتصل إلى المستحيل فتسمع الصم ، وتكلم البكم ، وتهدي العمي ، وترشد كل ضال ؟ وأنت بشر ، وقوتك محدودة ، ووسائلك معدودة ؟ .

دع عنك كل هذا ، وسر في دربك المرسوم ، وتوكل على الله ، وتابع التبليغ ، واستمسك بما يوحي به الله ، وثق يا محمد ، يا رسولنا أنك على الصراط المستقيم .

* * *

في هذه الآيات ثلاث فكر : غنى الذين كفروا بالله ، وضلال تفكيرهم ، وتثبيت فؤاد الرسول .

ولو تأملنا مدى الترابط بين هذه الفكر لوجدناها متماسكة كل التماسك ، تكاد كل منها أن تسلمنا إلى ما بعدها .

فالكافرون الذين يعيشون في النعيم ، ويجدون ما يحلمون به ، يظنون أن هذه هي الغاية والمبتغى ، وتأتيهم شياطين من جنسهم فيزينون لهم سوء عملهم ، ويغرقونهم في أعماق الضلال ، ويحولون بين عيونهم والنور ، وقلوبهم والهدى ، وآذانهم وكلمة الحق بغشاوات وحواجز . ويأتي الرسول العظيم إلى هداهم ، يسمعهم قول الله ، وينصحهم ، ويخاطب قلوبهم ، ويفتح عيونهم إلى النور ، فلا يستجيبون ، ولا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا يعقلون ، فلقد ختم على قلوبهم ، وغشّي على أعينهم . ويحزن الرسول لهذا الوضع ، فتنتهي الآيات الكريمة بتصبيره ، وتقوية جنانه ، وتثبيته على الحق ...

أفلا ترى الآيات كوَّنت كلاً منسجماً ، مترابطاً ، موحداً ؟

وإذا انتقلت إلى دراسة الأسلوب وجدت عجباً . ألفاظ قليلة لا تكاد تجاوز سطورها أصابع اليدين حملت من المعاني ما يضيق عنه كتاب كبير .

فأنت تستطيع أن تأخذ كل فقرة ، وتشرحها ، وتسهب في شرحها ، وتأتي عليها بالشواهد ، والأمثال ، وحوادث التاريخ ، ووقائع زمانك ، فتجد الآية

أوسع وأوسع ، وأرحب وأرحب .

وتنتقل إلى علم النفس ، فتأتي إلى الأحاسيس والمشاعر ، والرغبات والميول والأهواء والغرائز ، والعقد النفسية وتكونها وأصول حلّهَا وما إلى ذلك وتقرنها بالآيات فتجد الآية أوسع وأوسع ، وأرحب وأرحب .

وهكذا تستطيع أن تتنقل بالآيات من علم إلى علم ، ومن فن إلى فن ، وتبقى الآيات بين يديك طرية نديّة مطواعة لكل ما تريد .

أفليس هذا إعجازاً ؟ أوتستطيع أن تفعل الشيء نفسه بمعلقة امرئ القيس ، أو الأعشى ، أولبيد ، أو سواهم ؟ أوتستطيع أن تفعل الشيء نفسه بكتابات أبلغ بلغاء الدنيا ؟ . وما دمت لا تستطيع ، وأنت بهذا العجز معترف ، فثق أن هذا جزء من الإعجاز ، وليس كل الإعجاز .

المفردات القليلة حملت من المعنى ما يعجز عن تحميله مخلوق من بني الإنسان .

انتقل معي الى دراسة هذه المفردات ، وقف عند كل مفردة فلسوف تجدها جميعاً مفهومة ، عادية ، شأنها شأن معظم المفردات في اللغة العربية .

وإذا سألت عن السر في كون مفردات العربية لم تعط ما أعطته جميع هذه المفردات مع أنهما من فرع واحد ، فاعلم أنه النظم ولا شيء سواه . والذي نعنيه بالنظم : ما نعنيه بنظم الجوهرة إلى جانب الجوهرة ليكون منها العقد الفريد .

نلحظ في نظم الفقرة الأولى تقديماً كثيراً ، فقد قدمت (لبيوتهم) على متعلقها مرتين ، وقدم الجار والمجرور على متعلقه (ومعارج عليها يعرجون) و(ولبيوتهم أبواباً) و(سرراً عليها يتكئون) .

كذلك أمر التقديم في الفقرة الثانية (فهوله قرين) ، و(يا ليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين) و(أنكم في العذاب مشتركون)

والأمر نفسه في الفقرة الثالثة (فانا عليهم مقتدرون) .

ماذا يعني كل هذا التقديم في الأسلوب ؟ إن البلغاء يقولون : التقديم ملازم للتخصيص ، وهو طريق من طرق القصر ، وفائدته تكون في لفت النظر ، وتأكيد المعنى ، والتأثير في النفس ، والجمال التعبيري .

جرب في جملتين أن تضع كلاً في موضعه الأصيل ، فتؤخر ما يجب تأخيره ، وتقدم ما يجب تقديمه حسب القواعد النحوية . إنك ستقول :

« .. لجعلنا لمن يكفر بالرحمن سقفاً من فضة لبيوتهم ، ومعارج يعرجون عليها ،

وأبواباً لبيوتهم ، وسرراً يتكئون عليها » .

« .. ومَن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض شيطاناً له ، فهو قرين له » .

عد إلى القرآن من جديد ، واقرأه بصوت عال . واقرأ ما جئت به بصوت عال . وكرر هذا وذاك . إنك ستصل في آخر المطاف الى الاعتراف بأن النظم القرآني بلغ من الروعة ما لا حدّ له .

* * *

تأمل ما في الآيات من وقع مطرب ، وانظر بقلبك أثر هذه الفواصل :

١) ومعارج عليها **يظهرون**
وسرراً عليها **يتكئون**
والآخرة عند ربك **للمتقين**

٢) ويحسبون أنهم **مهتدون**
فبئس **القرين**
إنكم في العذاب **مشتركون**

٣) ومن كان في ضلال **مبين** .
فإنّا عليهم **مقتدرون**
إنك على صراط **مستقيم**

واللحن المنسجم ، والموسيقى التصويرية ، والايقاع الرتيب المنظم ، كان مما حملته تلك الفواصل ، وكان ذلك احدى سمات السور والآيات المكيـة ، وكان ذلك الذي دعا المغيرة الى أن يقول : أن تمله لحلاوة .

* * *

إن أسلوب القرآن شديد العناية بما نسميه « الأونوماتوبيا » اي اقتران الصوت بالصورة .

وفي هذه الآيات تلك « الأونوماتوبيا » واضحة في هذا التماوج الراقص ، الرخيِّ ، الناعم ، الصادح في الفقرة الأولى فالكلمات حملت الموسيقية والمعنى المتفق وهذه الموسيقى : غنيٌّ راقص ، وحياة باذخة ، وأموال طافحة ، ونعيم لذيذ . وإلى جانب هذه المعاني تلك الغنّات بالنونات ، والمدّات في الحروف اللينة ، والانسياب في الأصوات كالانسياب في الحياة واللذات ..

وفي الفقرة الثانية ازدادت الحركة بعض الزيادة ، وظلت المدات تنساب خلال تلك التحرّكات .

وفي الفقرة الثالثة ازدادت الحركات أكثر ، وتضاءلت المدات بعض التضاؤل ..

كل ذلك كان منسجماً والمعاني التي تحملها كل فقرة .

فالأولى رخاء ونعيم .

والثانية نعيم وإقناع وحركة مؤيدين .

والثالثة : رسول يضطرب ويغلي ليؤمن الناس ، ويتحرك هنا وهناك ليصل إلى ما يريد .. ولكنّ أمر الله لا بد منه .

* * *

ذلك كلام الله ، والمعجزة التي حيّرت الناس بنظمها ، ولا تزال .

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الإسراء

وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ؛ إمّا يَبْلُغَنَّ عندك الكبر ، أَحَدُهُما ، أو كلاهما ، فلا تَقُلْ لهما : أفٍّ ، وَلاَ تَنْهَرْهما ، وقُلْ لَهُمَا قولاً كريماً . واخفضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ من الرحمة ، وقلْ : ربِّ ارحَمْهما كَمَا رَبَّيَاني صغيراً . ربُّكمْ أَعْلَمُ بما في نفوسِكم ، إنْ تكونوا صالحين ، فإنه كان للأوّابين غفوراً . وآتِ ذا القُربى حقَّه ، والمسكينَ ، وابن السبيل . ولا تُبَذِّرْ تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين ، وكان الشيطانُ لربه كَفُوراً . وامّا تُعْرِضَنَّ عَنهم ابتغاءَ رحمة منْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ، فقُلْ لهم قَوْلاً مَيْسُوراً .
ولاَ تجعَلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ، ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً. إنَّ ربك يبسُطُ الرِزْقَ لَمَنْ يَشَاءُ ، ويَقْدِرُ ، إنّه كانَ بعبادِه خبيراً بصيراً .

نبع من الحنان يغدو ويروح ، ينام ويستيقظ ، يفتح جناحيه ويلف بهما فلذة القلب ، وحبة الفؤاد .

إنه إنْ تمثل في الدنيا بمخلوق ، فلن يكون في غير الأم أولاً والأب ثانياً .

ونعتقد جازمين أنا لو شرحنا ما تتجشمه الأم في سبيل ولدها ، وما يعانيه الأب في سبيل ولده ، وما يبذلانه معاً من تضحيات ، إذن لوضعنا القارئ في مرتبة دنيا من التفكير ، ودرك من الإسفاف في التعقل ، ووصمناه بتبلد المشاعر ، وضعف الملكة العقلية . ولذلك فلن نعبر أبداً عماعانى الوالدان ، لأن قارئنا في مرتبة من الفهم والذكاء لا يحتاج فيها إلى هذا التعبير .

انما الذي نريد الحديث عنه قراءة الصفحة الثانية من هذه العملة الإنسانية ، بعد أن كانت الصفحة الأولى للوالدين مع ولدهما .

سطور وسطور في هذه الصفحة الثانية ، وأيسرها قراءة بعض واجبات الولد نحو والديه ..

إن الواجبات كثيرة وكثيرة ، وهي لا تكاد تعدّ شيئاً إلى جانب سطور الصفحة الأولى . .

السطر الأول:اعبد الله أولاً ، ثم أحسن إلى والديك . وإن الإحسان إليهما واجب يأتي بعد عبادة الله مباشرة . وقد تتساءل عن كيفية هذا الإحسان ، وصورة التعبير عنه ؟ وما أسهل الجواب ! أمامك والداك كلاهما ، أو أمامك أحدهما فقط ، وهو طاعن في السنّ ، ضعيف الجسد ، خائر القوى الجسدية ، وقد يكون منهدّ القوى العقلية كذلك .. يتكلم فلا يحسن الكلام ، وتحدثه فلا يفهم الحديث ، وتعطيه شيئاً فلا يكاد يلمسه حتى يسقط من بين يديه ... قد يرتجف بلا برد ولا مرض .. وقد يطلب الشيء في غير أوانه ، أو يهلك العزيز عليك من المتاع دون أن يقصد ؛ وقد يكون منه ما كان منك وأنت طفل صغير لا تعي ، ولا تملك أمرك ..

وأنت اليوم الغصن الرطيب ، والوردة العبقة ، والشباب الطافح بالحياة والقوة والمشاعر والآمال والعنفوان .. وهنا يبدأ السطر الأول من سطور واجباتك نحو والديك .. الإحسان أولاً : التفاني ، الذوبان ، العاطفة ، البذل ، الحنان ، الحب الصادق ، التضحية ، الروح ، المال .. كل شيء ابذله تحت قدمهما .. حتى دمع عينيك ، ونورهما ، حتى سهدك وسهرك وراحتك ، وما ملكت يداك وجسمك . ومن هذا الإحسان:ألا تقول كلمة ، ولو كانت صغيرة ، تافهة ،

حقيرة تشعرهما بانزعاجك ، وتأففك . إياك ، ثم إياك ، أن تقول لهما : أف . إياك ثم إياك أن تنهرهما ... ان من الإحسان ألا يتحرك لسانك إلا بالقول الكريم ، وتختلج عضلات وجهك إلا بالرضى عنهما ، وطلب برّهما ، ورضائهما ..

والسطر الثاني في هذه الصفحة الوالدية أن تكون أنت الأرض التي يمشيان عليهما ، ومن الفخر أن تضع خديك على مواطئ نعليهما راضياً ، فرحاً ، مسروراً .. ثم ارفع رأسك إلى السماء ، وادع الله أن يرحمهما ، ويرحم ضعفهما كما ربَّياك صغيراً .

إنها تجربة الله لك ، وبها تثبت صلاحك أو فسادك ، وبهما تقترب من الله ، وبهما يتوب الله عليك ، ويحسن اليك ، وما أروع إحسان الله وغفرانه ، وما أحوج الإنسان إليه ..

* * *

أنت الإنسان الصالح ، الإنسان الذي يأخذ كل ما له حقوق ويدفع كل ما عليه من واجبات ..

هناك واجب آخر ، هو مساعدة الضعفاء جميعاً . الضعفاء من الأقرباء أولاً ، وهم أولى بالمعروف من سواهم ، وهم جلدك ، ولحمك وعظمك ، وعزك وفخرك . ثم يأتي دور المساكين الذين أَخْنى عليهم الدهر ، وأزرت بهم الأيام ، وليس لهم من ولد يحنو على ضعفهم ، أو قريب يتفقد أمرهم ، فصاروا في ذمتك أنت ، لأنك أنت المسلم والمواطن الصالح ، والإنسان الذي يفعل الشيء ليرضي الله قبل أن يرضي مخلوقاته . ثم يأتي بعد المساكين رعاية أبناء السبيل ، أولئك النفر الذين وقعوا في المصيبة ، والعجز ، والحاجة ، ولم يكونوا في الأصل مصابين ، أو عاجزين ، أو محتاجين . ولكن قطع المسافات ، والتنقل في الآفاق ، والأسفار ذات المصائب والمهالك هي التي أودت بهم إلى الاحتياج .

إن مساعدة ذوي القربى ، والمساكين ، وأبناء السبيل لا تعني أن تتنزل عن كل مالك لهم ، ولا أن تدفع كل ما جنته يداك في سبيلهم .. أبداً ليس هذا هو المقصود ، ولا هو مطلوب منك أن تغنيهم لتبقى أنت الفقير ، وتعيلهم لتبقى أنت المحتاج .

لا تبذر في كل شيء ، والمبذر قرين الشيطان ، إنه كالمنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى .

ربما قلت : لا أملك المال الذي به أساعد ، أو القوة التي بها أعين ، أو الجاه

الذي به أنصر ، فماذا أفعل ؟ هل تملك اللسان الذي يتحرك ؟ إذا كنت تملك ذلك فحركه حركة الخير ، وأدره بالقول المعسول ، وتحدث به باللغة العذبة .. فرب كلمة كانت أحلى وأنفع من ألف عون ..

* * *

أما بالنسبة إليك ، فعليك واجب نحو ذاتك ، أعط نفسك وجسدك وروحك وقلبك حقها . لا تحرم ذاتك من طيبات الحياة ، كذلك لا تغرق ذاتك في طيبات الحياة . .

اعتدل . توسط في كل شيء . لا تجعل يدك شحيحة كأنها المقطوعة التي لا تستطيع أن تتحرك بالعطاء وبالخير ، ولا تجعلها كريمة إلى حد الإسراف والجنون ، وكأنها من طولها ، وقدرتها تستطيع الانبساط والامتداد إلى كل موجود في الوجود . إن خير الأمور أوساطها ..

لا تخش الفقر فتصبح شحيحاً ، ولا تسبح في الأمل وحده فتكون مبذراً .. إن الله يبسط الرزق ويقدره ، هو الذي خلق الناس وهو الذي يعرف ما يحتاجون ، ومن أعلم ممن خلق ؟ .

* * *

وبعد ،فلم يكن القرآن إلا دستور مجتمع ، يربط الإنسان بالله ، كما يربط الإنسان بأخيه الإنسان ، أياً كان ذلك الإنسان ، ولا يتركه ينسى ذاته بل يعطي كل ذي حق حقه .

بهذا الدستور ـ يوم طبّق الناس هذا الدستور ـ ساد المسلمون العالم ، وانتصروا على أمم الأرض . وحين تخلوا عنه إلى غيره من مبادئ مستوردة ، وفكر مستعارة ، ومُثُل دخيلة ، ذلوا ، وهزموا ، وغلبتهم الأمم الذليلة ، وأصبحوا سخرية في كل مكان .

وحين يعود الناس إلى دستور الله ، ويضعون قوانينه ومبادئه موضع التنفيذ يعودون كما كانوا سادة الدنيا ، وفخر الوجود .

ألا من لنا بهؤلاء الذين يؤمنون بالعزة والنصر والحياة الكريمة ؟ .

* * *

إذا التفتنا إلى دراسة الأسلوب طالعتنا قبل كل شيء مفردة « وقضى » هذا الفعل الذي يدل على معنى مضى كأنه يشير إلى أن الحكم صدر وانتهى ، ولم

يعد يحتمل استئنافاً أو تمييزاً ، أو طرقاً من طرق المراجعات ، ولم يبق فيه إلا أن يخرج إلى حيز التنفيذ . قضى الله ، وانتهى الأمر وفرضت الطاعة وتنفيذ هذا القضاء .

ونلاحظ تقديم الجار والمجرور بالوالدين متعلقهما وهو« إحساناً » ليفيد التخصيص والاهتمام بأمرهما .

كذلك نلاحظ تثنية الوالدين ، وافرادهما. فقد يكون للولد أب حي ، أو أم حية فقط ، وقد يعرف أباه ولا يعرف أمه ، أو يعرف أمه ولا يعرف أباه .. ومهما كان وضعه ، وسواء كان له والدان أو واحد ، فالبر واجب .

واستعمال كلمة « أف » بهذه الصيغة ذو دلالة ، فهو يشير إلى معنى التأفف ، كما يشير في الوقت ذاته إلى وجوب الامتناع عن التفوه بأصغر كلمة تشير إلى هذا التأفف .

والكناية الرائعة التي وقف أمامها البلغاء طويلاً ، وتفننوا في التعبير عنها ، وشرحها ، وبيان الإعجاب بها هي « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » . ففيها صورة الخضوع ، وخفض الجناح ، والرحمة التي ما بعدها من مزيد .

كذلك الكناية الأخرى في قوله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » ويكفي أن تحمل هذه الكناية الإشارة اللطيفة إلى سلوك يمكن أن يعبر عنه الكاتب بكل فنون التعبير ، ويجد نفسه مرتاحاً ، والآية ندية ، وتحتمل المزيد .

أما تلك النغمة الموسيقية ففيها الهدوء أكثر مما فيها الضجة والعنفوان . ولقد تكونت من عناصر عدة : من المفردات أولاً ، ونظم هذه المفردات ثانياً ، والمدود ثالثاً ، والحركات رابعاً .. ومن هذه الفواصل الإيقاعية المنسجمة .. صغيراً ، غفوراً ، تبذيراً ، كفوراً ، ميسوراً ، محسوراً ، بعيداً ..

وبعد ، فليس إعجاز القرآن إلا ما حوى هذا المعاني الرائعة الخالدة على مدى الزمن مسبوكة بهذا القوالب التي عجز ابن آدم عن سبك مثلها .

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الحُجُرات

يا أَيُّها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً منهم ، ولا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ، عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً منهنَّ. ولا تَلْمِزُوا أنفسَكُم ، ولاَ تَنَابَزُوا بالأَلْقَابِ ، بِئْسَ الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإِيمَانِ ، وَمَنْ لم يَتُبْ ، فأُولَئِكَ هُمُ الظالمون .

يا أيها الذينَ آمنوا اجتنبوا كثيراً مِنَ الظن إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ اثمٌ ، ولا تجسَّوا ، ولا يَغْتَبْ بعضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أحدُكُمْ أنْ يأكُلَ لَحْمَ أخيه مَيْتاً فكرِهْتُموه ، واتقو الله إن اللهَ تَوّابٌ رحيم .

يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذَكَر وأُنثَى ، وجعلْنَاكم شُعوباً وقبائلَ لِتَعَارَفُوا ، إنَّ أكرمُكُمْ عندَ اللهِ أتقاكُمْ. إنَّ اللهَ عليمٌ خَبيرٌ .

استقر المسلمون بعد هجرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاء النصر والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكان لا بد بعدئذ لهذا المجتمع الجديد من تنظيم ، وربط ، وتشريع يكفل السعادة للمجتمع ، ويرسم طريق المستقبل ، ويبني هذه المجموعات بناء جديداً ، يحميها غوائل الحاضر والمستقبل .

وتكفلت الآيات المدنية بمتطلبات الحقبة الجديدة ، والمجتمع الوليد ، وراحت تتنزل تباعاً موقرة بهذه الحاجات . وكان من جملتها : سورة الحجرات التي اقتطفنا منها هذه الآيات .

ابتدأ الخالق العزيز بنداء الذين آمنوا ، وكانت السور المكية في الماضي تنادي الناس عامة ، وتكثر من قولها : يا أيها الناس . ولقد سبق في الباب الثاني من هذا الكتاب ، وفي بحث علم المكي والمدني بصورة خاصة أن بينا الفوارق المختلفة بين ما نزل بمكة ، وما نزل بالمدينة ، وذكرنا هذا الفرق في النداء ، واستدركنا بأن ذلك لا يعني كونه قاعدة عامة ، ولا يعني أن كل نداء بـ : « يا أيها الناس » هو مكي ، وكل نداء بـ : « يا أيها الذين آمنوا » هو مدني ؛ وإنما قلنا : ذلك هو الأعمّ الأغلب ، لأنه قد يكون في المدني نداء بـ « يا أيها الناس » . وها نحن أولاء اليوم نستشهد بسورة الحجرات ، وهي مدنية بأجمعها . وقد ورد فيها النداءان معاً . نداء الذين آمنوا ، ونداء الناس .

ويخيل إلينا أن النداء بـ « يا أيها الذين آمنوا » يحمل صورة من العطف ، ويزخم بجو من المحبة ، ويوحي بتعاطف كبير ، فكأن الذين آمنوا هم الأهل ، والأحبة ، والمقربون . بخلاف النداء بـ « يا أيها الناس » ففيها صورة مختلفة كل الاختلاف عن الصورة الأخرى .

المقربون ، والأحبة ، والمؤمنون يجب أن يرتاحوا ، ويتفقوا ، ويتعاونوا ، ويكونوا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ليبقوا في مركز القوة ، والتحابّ ، وقد جاءت هذه الآيات تعلمهم كيف يكونون كذلك .

« لا يسخر قوم من قوم » وهل هناك أشد إيلاماً في حياة الإنسان من أن يسخر منه الآخرون ؟ وما السخرية في حقيقتها إلا حط من الكرامة ، وامتهان للإنسانية ، وابتذال للشخصية ، ومهانة ما بعدها مهانة . ولو تساءل الرجل عن الدواعي التي تدفع إلى السخرية لرأى أن منها ما قد يكون ناشئاً عن فقر الإنسان ، أو مرضه ،

أو ضعفه ، أو أمر حلّ به ، وجعله موطن الهوان ، سواء أكان مظهراً جسمياً أم عقلياً أم نفسياً .

وكثيراً ما يكون هذا السبب مفروضاً على الإنسان ، لا طاقة له برده ، ولا قدرة له على إزالته ، ولا مشيئة له بصنعه وانما كتب عليه كالقدر ، وطبع به طبعة لا يستطيع منها فكاكاً .

هذه النواقص في الإنسان ، لا تعني أن صاحبها على هامش الإنسانية ، ولا تعني أنها توجب أو تحل للآخرين أن يستغلوها للمهانة ، والتنقص ، والإذلال .

كم من هؤلاء المشوهين ، أو الضعفاء ، أو المرضى ، أو الفقراء ، أو المصابين بالمصائب من يحمل العقل الكبير ، وكم منهم من يملك القلب الرحيب ، وكم منهم من يساوي آلاف آلاف الأصحاء والأقوياء !

إن واقع الحياة ليثبت أنه ليس كل صحيح وقوي وغني هو الإنسان الصالح ، وأن كل مريض وضعيف وفقير هو الإنسان الطالح .

« عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن » .

وما يُدري الساخر أن من يسخر منه أرفع مكانة عند الله ، وأكثر نفعاً للناس . وأطهر قلباً من الكثيرين ؟ وما يدري المرأة التي تسخر بغيرها من النساء أن تكون تلك أعلى منها مقاماً ، وأطهر جسداً وأكبر عقلاً ، وأطيب قلباً . بل هو في الواقع كذلك ، لأن السخرية بحد ذاتها ، وهي تصدر من مخلوق ، لَتَدُلُّ على ضعف ارتباطه بالمجتمع ، وهوان مكانته بين الناس ، وتفاهة نظرته إلى المجتمع ، وضعف عقله الذي يعيش به .

كذلك أمر الله ألا يلمز المرء أخاه ، واللمز لون من ألوان السخرية ، يكون بإشارة من العين ، أو حركة من اليد ، أو همسة من اللسان أو بغير ذلك من وسائل ؛ إنما هو في تعدد مظاهره شيء واحد يقصد به السخرية ، والاستهانة بالآخرين .

وتلقيب الناس بألقاب بذيئة ، أو غير بذيئة أمر حرام إذا كان المقصود بها حطاً من القيم ، وانتقاصاً من الكرامة . تلك أمور حرمها الله ، ومرتكبها آثم ، عليه التوبة والاستغفار ، لا إلى الله وحده ، بل عن الذنب ، وطلب الصفح من الإنسان . وأن من يحجم ، ويأبى ، فإنه ظالم نفسه . وللظالمين مصير معروف .

عودة من جديد إلى نداء الذين آمنوا ، ونصيحة أخرى جديدة ، ونظرة ثانية إلى الإنسان ، لا من ظاهره ، وانما من ضميره . إن النصيحة الآن تتوجه إلى الأعماق

في الإنسان .

كم من الناس الذين زينت لهم نفوسهم وشهواتهم الظن بالآخرين ظن السوء ، وكم من الناس الذين ذهبوا ضحية هذا الظن الآثم . ألا نجد نحن ـ وقد بعدنا عن زمن نزول الآية أربعة عشر قرناً من عمر الزمان ـ أن كثيراً من الأحكام يحكم بها حاكمون على أفراد من المواطنين لمجرد أنهم ساروا في طريق معينة ، أو رافقوا إنساناً له سمته الخاصة ، أو تحدثوا بحديث فاشتمّوا منه بفعل حاسة شمهم الرهيبة رائحة ولاء أو عداء ، فأنزلوا به ما شاء لهم شيطانهم أن ينزلوا به من مصائب ؟

كم من الناس قتلوا لأن الظن بهم كان آثماً ، ثم تبين لهم أنهم كانوا على خطأ فيما ظنوا ؟

كم من النساء مزقت أعراضهن لمجرد نظرة لمحها لامح ، أو لمجرد بسمة ، أو خطرة ، أو كلمة توهمها ظان ؟

إن من يدخل السجون يجد العجب العجاب ، ذلك أن كثيراً من المجرمين ، ارتكبوا جريمتهم لظنة وشبهة ، ثم تبين لهم أنهم كانوا متوهمين ، ومخطئين ، ولكن سبق السيف العذل .

كذلك التجسس على الناس . والتجسس صور وألوان ، وفي حقيقته واحد . وإذا كان في الماضي يقوم على وسائل مادية ، فهو اليوم ألف ألف شكل ولون . هو اليوم آلات تصوير بالغة الدقة ، وطائرات لا يبلغها المدفع بله النظر ، وآلات تسجيل توضع في زهرة ، أو في عروة سترة ، وهاتف وراءه ألف أذن وأذن ، وعيون تتفتح في الظلام ، ولا تتقي الله في نظرة .. هو اليوم أكثر من أن يحصيه عدّ ، أو يخطر في بال إنسان حكيم ..

وإذا كان التجسس على أعداء الوطن ، والعقيدة ، وكرامة الناس واجباً ، فإن التجسس على حياة الأفراد ، وإحصاء حركاتهم ، وسكناتهم ، وتصرفاتهم الإنسانية خيانة للوطن ، وتهديم للعقيدة ، واهدار للكرامة ، وتمزيق لوحدة الأمة ، ودفع إلى الهزيمة في كل ميدان ، سواء كان ميدان حرب ، أم ميدان سلام .

ولا تقلُّ مغيبة الناس عن التجسس ، وظن السوء واللمز ، والتنابز بالألقاب . فالمغيبة هي ذكر الإنسان في غيبته بما يكره ، والطعن به ، ونهش عرضه وكل ما فيه ، سواء أكان ما يقوله المغتاب حقاً أو باطلاً . إن المغيبة واضحة المعالم ،

بينة الحدود ، انها تسمى مغيبة إذا ذكرت أخاك بأمر يكره أن يذكر به ، ولو كان حقاً . فإذا قلت في غيبته : إنه أعرج ، وهو في الواقع أعرج ، وهو يكره أن يقال عنه هذا في حضوره فذكرك هذه الصفة مغيبة ، فكيف إذا كان المغتاب يكيل التهم والافتراءات كيلاً ؟ .

إن من يغتاب الآخرين كمن يأتي إلى ميت فاحت روائحه ، وامتلأ بالدود لحمه ، وسالت منه الأقذار من كل ثغرة وفتحة في جسده ، فاقتعد منه جانباً ، وراح يقتطع من لحمه قطعاً ، فينهشها ، ثم يعلكها . وطبيعي أن حيواناً يأنف من هذه القاذورات ، فكيف بالإنسان الذي كرمه الله ، وأعلى مكانه ؟ وما المغتاب إلا كناهش لحوم الموتى ، الذين لا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم ، لأنهم موتى .

اتقوا الله أيها الذين آمنوا ، اتقوه بإخوانكم . ومن فعل ذلك وجبت عليه التوبة إلى من لا يرد توبة تائب .

وتنتقل الآيات من الجو الخاص إلى العام ، ومن بيئة الذين آمنوا إلى الناس جميعاً في كل صقع ، وزمان ، فتخاطبهم الخطاب العام ، وتخبرهم أنهم من جنس واحد ، وأنهم ليسوا إلا ذكراً وأنثى ، يكمل بعضهم بعضاً ، وأنهم أسر وقبائل ، ومنهم تتكون الشعوب والأمم . إن أصلهم واحد ، وإن حقيقتهم واحدة ، وغايتهم واحدة . لهذا وجب عليهم أن يتعارفوا ، وإذا تعارفوا تحابوا ، وإذا تحابوا نشروا السلام ، والتعاون ، والإخاء بينهم . وحينئذ ، وحينئذ فقط يتساوون ، فلا يكون بين إنسان وإنسان من فروق ، في اللون ، أو في الجنس ، أو في المكان ، أو في الزمان ، أو في القوة ، أو في الضعف ، أو في الغنى ، أو في الفقر .. انما الفرق الوحيد هو في تقى الإنسان وطاعة ربه .

وإن الله هو الذي خلق هذا كله ، وهو الذي يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور .

* * *

إن تأملاً بسيطاً في هذه الآيات المحدودات يدفعنا إلى أن نقول : إن عنوانها « كيف يجب أن يكون الحب » .

ويبدو لنا أن الحب وحده أساس الخير في الدنيا . والذي نريده بالحب كل ما يدخل تحت نطاق هذه الكلمة . حب الشاب للفتاة وحب الأخ للأخ ، وحب الأخت للأخت ، وحب الوالد للولد ، وحب الصغير للكبير ، وحب التلميذ

للأستاذ ، وحب المعلم للمتعلم ، وحب المواطن للوطن ، وحب الحاكم للمحكوم ، وحب البلد للبلد ، وبصورة مختصرة : حب الإنسان للإنسان .

هذا الحب هو شعار الإسلام ، وأساس التقدم ، وركن النهضة الحقة ، وبدونه فلا سلام ، ولا حضارة ، ولا نصر ، ولا تعاون ..

* * *

ولو فتشنا عن سبب تخلف المجتمعات في عصرنا ، وبحثنا عن مركز العلة ، وعمقنا النظرة ، أدركنا أن التخلف وليد فقدان الحب بين الإنسان وأخيه الإنسان .

ولا نريد أن نسهب في تحليل ما نقول ، ونثبت صحة ما ندّعي،فالواقع ، بل كل شيء في الحياة يسخِّر نفسه ليكون برهاناً على ما نذهب إليه .

والآيات الكريمة تعلم كيف يكون الحب بين الإنسان والإنسان ، والمجتمع والمجتمع . وتبني بهذا الحب المجتمع الجديد الوليد وتهديه إلى طريق الحياة ، متخذة الهدوء في التعبير ، والبرهان في الحجة ، واللين في القول . وذلك شأن السور المدنية .

أما الأسلوب فإنه يختلف عن أسلوب السور المكية ، فلقد ذهبت الحدة ، وغابت الحماسة ، وتدنى عنصر الانفعال ، وحل محلّها السكنية والوقار ، والنظرة البعيدة ، والأسلوب الهادئ .

لقد طالت الفقرات ، وامتدت التعابير ، ولانت اللهجة ، وغابت عناصر كثيرة من الموسيقية الصاخبة الشديدة .

كذلك غابت ألفاظ النعيم والجحيم إلى حد كبير ، وحلّ محلها ألفاظ الحياة ، ومفردات الواقع .

وإن هذا لا يعني غياب السحر الحلال ، وروعة الأداء ، وإعجاز التعبير .

ولو تأملنا طريقة استعمال المفردات من تعريف وتنكير ، ودقة وبيان لوقفنا على بعض سر الجمال : إن استخدام لفظة « قوم » منكَّرة تؤدي من وقع موسيقي ، وأداء معنوي ما لا تؤديه لو كانت معرفة .

ان « قوم » في حالة التنكير رسمت جواً رحيباً ، وابتعدت بالمعنى إلى آفاق لا تبلغها لو كانت في حالة التعريف . وكذلك استخدام « عسى » في المرتين وتحمل من الشحنة العاطفية ما لا تحمله أي كلمة أخرى في العربية كلها .

وهذا « الكثير من الظن » فيه من الانطلاق إلى أجواء مترامية ، ومسافات متنائية

حتى تكاد تغيب ويغيب معها كل ظن . وفي استخدام الكلمة على هذه الصورة « كثيراً من الظن » نجد شيئين ، هو أن أكثر الظنون خاطئة ، ولكن ليس كل الظنون خاطئة . وهذا الإدماج والفصل في آن واحد أدته كلمة « كثيراً » على صورتها المنكرة .

كذلك تقول الشيء نفسه في « اثم ، وبعضاً ، ولحم أخيه ، وذكر ، وأنثى ، وشعوباً ، وقبائل » فتنكيرها أوحى بالجنس أولاً ، وبالمعنى الدال على الكثرة ثانياً ، وبالتعميم المطلق ثالثاً .

أما المفردات المعرفة فقد كان لها طعم آخر : لقد أضيفت « أنفس » إلى « كم » فكأنه يحدد اللمز بحدود اللامزين ، وأنهم وحدهم الذين يصابون به ، ويعانون من أذاه . ومثلها « بعضكم » . ولقد عرفت « الألقاب » ، و« الاسم » ، و« الفسوق » ، و« الايمان » ، و« الظن » باللام الجنسية لتدل على الماهية والحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان .

وفي التعابير روعة من حيث التلوين بين الخبر والانشاء . فالنداء في مطلع كل آية ، ثم تلوين هذا النداء وتعميمه بعد تخصيصه . والنهي المتكرر في « لا يسخر ، ولا تلمزوا ، ولا تنابزوا ، ولا يغتب . والأمر في اجتنبوا ، واتقوا الله . والاستفهام في « أيحب » . ثم الخبر في « فأولئك هم الظالمون » ، و« إن بعض الظن اثم » ، و« انا خلقناكم من ذكر وأنثى » ، وفي « جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » « وإن أكرمكم عند الله أتقاكم » و« إن الله تواب رحيم » و« إن الله عليم خبير » . هذا التلوين في الإنشاء ، والخبر ، ثم هذا التأكيد اللطيف في الجمل الخبرية ذاتها أدت بالنص إلى حركة ، وحياة ، وسهولة أداء ، ويسر حفظ،ما له نظير .

* * *

أما الكناية في الآية الثانية : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، ففيها صورة من الايحاء بعيدة المدى . وإن المقصود من هذه الصورة ليس حقيقتها الظاهرة ، وإنما ما وراء تلك الحقيقة من تقزز ، وعمل ما لا يجب عمله . وكذلك أمر الكناية في علم البيان ففيها معنيان : قريب لا نريده ، ولازم من المعنى القريب هو الذي نسعى إليه .

* * *

وإذا بحثنا عن الإيقاع الموسيقي في الأبيات وجدناه ، ولكنه دون وقع السور

المكية بدون جدال .

السينات المتكاثرة في الآية الأولى : يسخر ، عسى ، نساءٌ ، نساءٌ ، عسى ، بئس ، الاسم ، الفسوق . وما يتبع السينات من حروف صفير كالزاي في تلمزوا ، وتنابزوا .. كلها توحي بجو الصفير الذي يكون في الغالب مرافقاً لحالات السخرية والاستهزاء .

والنونات في الآية الثانية : الذين ، آمنوا ، اجتنبوا ، الظن ، إنّ ، وما يتبع هذه النونات من حركات تنوين توحي بالجيشان النفسي ، وما الظن إلا عارض نفسي باطني . وأولى أن يعبر عن هذه الحالة النفسية بما يتفق معها من حروف تعبر عن النفس والضمير أكثر مما تعبر عن المظهر والعوارض الخارجية .

والمدود في الآية الثالثة ، يا أيها الناس ، إنا ، خلقناكم ، وأنثى ، وجعلناكم شعوباً ، وقبائل ، لتعارفوا ، أتقاكم .. » تصبغ الجو بانطلاقة بعيدة المدى ، أفلا تشبه هذه المدات امتداد الآفاق التي يجب أن يلفها الحب في أرجاء العالم ؟ .

* * *

وبعد ، فهذا كتاب الله المعجز . وآياته البينات ، وأسلوبه التي وقف الناس أمامه حيارى ذاهلين لأنهم عجزوا أن يأتوا ولو بآية من مثله معارضين .

خاتمة

لقد حاولنا ـ قدر ما نستطيع ـ أن نلم أطراف هذا الموضوع المتشعب ، ونتجه دائماً نحو الهدف المرسوم ، ألا وهو الوقوف على سر الإعجاز لهذا القرآن العظيم . لنقدمه إلى طلابنا في كليات الآداب يسيراً سائغاً ، متفقاً والمنهج الدراسيّ المرسوم .

ولقد نأينا ـ قاصدين ـ عن أبحاث كثر الجدلُ فيها ، وبقي الخلاف قائماً ، ووجهات النظر مختلفة ، وحصيلتها جميعاً لا تقدم في الموضوع شيئاً ـ إن لم نقل : إنها تؤخره أو قد تضربه بعض الضرر ـ . كذلك نأينا عن بحوث هي إلى الدراسات الشرعية ، والأصولية أقرب .

ويشهد الله أنا ما كتبنا كلمة في هذا الكتاب إلا وكان الخوف من الله يملأ قلبنا ، ويملك علينا سمعنا وبصرنا وقلمنا .

ولئن خالفنا كثيراً من العلماء ، وخرجنا عما قاله كثير من المفسرين ، إنا ما كنا أقل منهم تقوى لله ، وخوفاً على كتابه .

فإذا أصبنا المحزّ ، ورمينا الهدف ، وصحّ اجتهادنا فالحمدلله . وإن أخطأنا الطريق ، وحدنا عن الحق فإن ما يشفع لنا حسن النية ، وصفاء السريرة ، والإخلاص لكتاب الله .

إنا نرفع أيدينا في خاتمة هذه البحوث إلى الله تعالى داعين مستغفرين :

رَبَّنا لا تؤاخِذْنا إنْ نَسينا ، أو أَخْطأْنا . ربَّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً كما حَمَلْتَهُ على الذين منْ قبلنا . رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طَاقَةَ لنا به ، واعْفُ عَنَّا ، واغفِرْ لنا ، وارحَمْنا . أنتَ مولانا ، فانصُرْنا على القومِ الكافرين .

فهرس المصادر والمراجع

الرقم	المؤلف	عنوان الكتاب	الناشر	التاريخ
١		القرآن الكريم		
٢	إخوان الصفاء	رسائل إخوان الصفاء	مكتبة الآداب ـ القاهرة	١٣٠٦هـ
٣	اسماعيل باشا ، عبد العزيز	الإسلام والطب الحديث	مكتبة الاعتماد ـ القاهرة	١٣٥٧هـ
٤	الأشيقر ، محمد علي	لمحات من تاريخ القرآن	مطبعة النعمان ـ كربلاء	لا.ت.
٥	ابن أبي الأصبيع ، محمد	بديع القرآن	مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة	١٩٥٧م
٦	الأصفهاني ، الراغب	مقدمة التفسير (في هامش تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار)	المطبعة الجمالية ـ القاهرة	١٣٢٩هـ
٧	الآصفي ، علي محمد	دراسات في القرآن الكريم	مكتبة النجاح ـ النجف	١٣٨٠هـ
٨	اطفيّش ، محمد	هميان الزادالي دار المعاد	زنجبار	١٣١٤ هـ
٩	الآلوسي ، محمود	روح المعاني ط ٢	المطابع المنيرية ـ القاهرة	١٣٤٥هـ
١٠	أمين ، أحمد	ضحى الإسلام	مطبعة لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة	١٩٣٣م
١١	أمين ، أحمد	فجر الإسلام	مطبعة لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة	١٩٣٥م
١٢	ابن الأنباري ،	البيان في غريب القرآن	دار الكاتب العربي القاهرة	١٩٦٩م
١٣	الباقلاني ، محمد	إعجاز القرآن	دار المعارف ـ القاهرة	١٩٥٤م
١٤	الببلاوي ، محمد علي	التعريف بالنبي والقرآن الشريف	دار الكتب المصرية القاهرة	١٩٢٧م
١٥	البخاري ، محمد بن اسماعيل	صحيح البخاري	مطبعة بولاق ـ القاهرة	١٢٩٦هـ

الرقم	المؤلف	الكتاب	الناشر	التاريخ
١٦	بدوي ، أحمد أحمد	من بلاغة القرآن	مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة	١٩٥٠م
١٧	البغدادي ، عبد القاهر	الفرق بين الفرق	دار المعارف ـ القاهرة	١٣٢٨هـ
١٨	البغدادي ، الحسين	معالم التنزيل	مطبعة المنار ـ القاهرة	١٣٤٥هـ
١٩	بن بني ، مالك	الظاهرة القرآنية	مكتبة دارالعروبة ـ القاهرة	١٩٥٨م
٢٠	البوطي ، محمد سعيد	من روائع القرآن ط ٢	مكتبة الفارابي ـ دمشق	١٩٧٠م
٢١	البيضاوي	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	دار الكتب العربية القاهرة	١٣٣٠هـ
٢٢	الترمذي	الجامع الصحيح أو « سنن الترمذي »	مطبعة البابي ـ القاهرة	١٩٣٧م
٢٣	التستري ، سهل	تفسير القرآن العظيم	مطبعة السعادة ـ القاهرة	١٩٠٨م
٢٤	التنوخي ، عز الدين	تهذيب الايضاح	مطبعة الجامعة السورية ـ دمشق	١٩٤٨م
٢٥	تيمور ، محمود	فن القصص	مجلة الشرق الجديد ـ القاهرة	١٩٤٥م
٢٦	ابن تيمية ، أحمد	الإكليل في المتشابه والتنزيل	المطبعة العامرة الشرقية ـ القاهرة	١٩٢٣هـ
٢٧	ابن تيمية ، أحمد	مقدمة في أصول التفسير	دار القرآن الكريم ـ الكويت	
٢٨	ابن تيمية ، أحمد	منهاج السنة النبوية	المطبعة الأميرية ـ القاهرة	١٣٢١هـ
٢٩	الثعالبي ، عبد الرحمن	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	الجزائر	١٣٢٣هـ
٣٠	الجاحظ ،	البيان والتبيين	مطبعة لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة	١٩٤٨م
٣١	الجديلي ، محمد	نظرات حديثة في التفسير	المكتب التجاري ـ بيروت	١٩٦٣م

الرقم	المؤلف	عنوان الكتاب	الناشر	التاريخ
٣٢	الجزري ، ابن الأثير	أسد الغابة في معرفة الصحابة	المطبعة الوهبية ـ القاهرة	١٢٨٠هـ
٣٣	الجزري ، شمس الدين	شرح منظومة الجزري في القراءات مخطوط	الجامعة الأمريكية ـ بيروت	
٣٤	الجصاص	أحكام القرآن	المطبعة البهية المصرية ـ القاهرة	١٣٤٧هـ
٣٥	الجلال المحلي والسيوطي	تفسير الجلالين	دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة	١٣٤٥هـ
٣٦	جلبي ، ملا كاتب	كشف الظنون	دار الطباعة المصرية القاهرة	١٢٤٧هـ
٣٧	جمال ، أحمد محمد	مع المفسرين والكتاب	دار الكتاب العربي ـ القاهرة	١٩٥٤م
٣٨	ابن جني	الخصائص	دار الكتب المصرية ـ القاهرة	١٩١٣م
٣٩	ابن جني	المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات	المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة	١٣٨٦هـ
٤٠	ابن الجوزي	تلبيس إبليس	مكتبة النهضة ـ القاهرة	١٩٢٨م
٤١	ابن الجوزي	زاد المسير في علم التفسير	المكتب الإسلامي ـ دمشق	١٩٦٧م
٤٢	جولدتسيهر ، اجنتس	المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن	مطبعة العلوم ـ القاهرة	١٩٤٤م
٤٣	جوهري ، طنطاوي	الجواهر في تفسير القرآن الحكيم	مطبعة البابي ـ القاهرة	١٣٤٠هـ
٤٤	الجويني ، مصطفى	منهج الزمخشري في تفسير القرآن	دار المعارف ـ القاهرة	١٩٥٩م
٤٥	ابن أبي الحديد	شرح نهج البلاغة	دار الكتب العربية ـ القاهرة	١٣٢٩هـ
٤٦	ابن حزم ، علي	الفصل في الملل والأهواء والنحل	المطبعة الأدبية ـ القاهرة	١٣١٧هـ
٤٧	حسن ، محمد كامل	القرآن والقصة الحديثة	دار البحوث العلمية بيروت	١٩٧٠م

الرقم	المؤلف	الكتاب	الناشر	التاريخ
٤٨	حسين ، محمد الخضر	بلاغة القرآن	المطبعة التعاونية ـ دمشق	١٩٧١ م
٤٩	الحموي ، ياقوت	معجم البلدان	ليدن ـ ليبزيغ	١٨٦٦ م
٥٠	أبو حيان الأندلسي	التفسير الكبير	مطبعة السعادة ـ القاهرة	١٣٢٨ هـ
٥١	ابن الخازن الشيخي	لباب التأويل في معاني التنزيل	محمد وأحمد حسين ـ القاهرة	١٣٢٨ هـ
٥٢	ابن خالويه	اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم	دار الكتب المصريه ـ القاهرة	١٩٤١ م
٥٣	الخطيب ، عبد الكريم	إعجاز القرآن	دار الفكر العربي ـ القاهرة	١٩٦٤ م
٥٤	الخطيب ، عبد الكريم	التفسير القرآني للقرآن	دار الفكر العربي ـ القاهرة	
٥٥	ابن الخطيب ، محمد	أوضح التفاسير (ط ٦) .	المطبعة المصرية ـ القاهرة	١٩٦٤ م
٥٦	ابن خلدون	مقدمة ابن خلدون	المطبعة الشرفية ـ القاهرة	١٣٢٧ هـ
٥٧	خلف الله ، محمد وسلام	ثلاث رسائل في إعجاز القرآن	دار المعارف ـ القاهرة	١٩٥٥ م
٥٨	خلف الله ، محمد	الفن القصصي في القرآن الكريم	مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة	١٩٥١ م
٥٩	ابن خلكان	وفيات الأعيان	المطبعة الأميرية ـ القاهرة	١٢٩٩ هـ
٦٠	الخوئي ، أبو القاسم	البيان في تفسير القرآن (ط ٢) .	مطبعة الآداب ـ النجف	١٩٦٦ م
٦١	الخولي ، أمين	التفسير : معالم حياته ـ منهجه اليوم	دار المعلمين للطبع والنشر ـ القاهرة	١٩٤٤ م
٦٢	الداني ، أبو عمرو	المحكم في نقط المصاحف	مديرية إحياء التراث القديم ـ دمشق	١٩٦٠ م
٦٣	الداني ، أبو عمرو	المقنع في رسم القرآن الكريم (مخطوط)	الجامعة الأمريكية بيروت	

الرقم	المؤلف	عنوان الكتاب	الناشر	التاريخ
٦٤	ابن أبي داود ، أبوبكر	كتاب المصاحف	المطبعة الرحمانية القاهرة	١٩٣٦م
٦٥	دراز ، محمد عبدالله	النبأ العظيم .	مطبعة السعادة ـ القاهرة	١٩٦٠م
٦٦	الديب ، محمد السباعي	البيان في إعجاز القرآن	مطبعة صبيح ـ القاهرة	١٩٦٠م
٦٧	الذهبي ، محمد حسين	التفسير والمفسرون	دار الكتب الحديثة القاهرة	١٩٦١م
٦٨	الذهبي (الحافظ)	ميزان الاعتدال	مطبعة السعادة ـ القاهرة	١٣٢٥هـ
٦٩	الرازي ، فخر الدين	التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب	المطبعة البهية المصرية ـ القاهرة	١٩٣٨م
٧٠	الرافعي ، مصطفى	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية	المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة	١٩٦٥م
٧١	رضا ، محمد رشيد	تفسير المنار (ط ٨)	مطبعة المنار ـ القاهرة	١٣٤٦هـ
٧٢	الزجاج	اعراب القرآن	الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ القاهرة	١٩٦٣م
٧٣	الزرقاني ، عبد العظيم	مناهل العرفان	مطبعة شبرا القاهرة	١٣٥٩هـ
٧٤	الزركشي ، محمد بن بهادر	البرهان في علوم القرآن	دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة	١٩٥٧م
٧٥	الزركلي ، خير الدين	الأعلام	مطبعة كونستاتوماس القاهرة	١٩٥٤م
٧٦	الزمخشري	الكشاف	مطبعة محمد مصطفى ـ القاهرة	١٣٠٨هـ
٧٧	الزنجاني	تاريخ القرآن	مطبعة لجنة التأليف ـ القاهرة	١٩٣٥م
٧٨	السبكي ، تاج الدين	طبقات الشافعية الكبرى	المطبعة الحسينية ـ القاهرة	
٧٩	السجستاني	غريب القرآن	المطبعة الرحمانية القاهرة	١٣٤٢هـ

الرقم	المؤلف	عنوان الكتاب	الناشر	التاريخ
٨٠	ابن سعد ، محمد	كتاب الطبقات الكبير	بريل ـ ليدن	١٣٤٢هـ
٨١	أبو السعود	ارشاد العقل السليم	المطبعة المصرية ـ القاهرة	١٣٤٧هـ
٨٢	سلام ، محمد زغلول	أثر القرآن في تطور النقد العربي	دار المعارف ـ القاهرة	١٩٥٢م
٨٣	ابن سيناء	جامع البدائع	مطبعة السعادة ـ القاهرة	١٩١٧م
٨٤	ابن سيناء	رسائل ابن سيناء	المطبعة الهندية ـ القاهرة	١٩٠٨م
٨٥	السيوري ، مقداد	كنز العرفان في فقه القرآن	تبريز	١٣١٤هـ
٨٦	السيوطي	الإتقان في علوم القرآن	مطبعة البابي ـ القاهرة	١٩٣٥م
٨٧	السيوطي	الإكليل في استنباط التنزيل	دار الكتاب العربي ـ القاهرة	١٣٧٣هـ
٨٨	السيوطي	حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة	فهمي الكتبي ـ القاهرة	١٣٢١هـ
٨٩	السيوطي	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	المطبعة الميمنية ـ القاهرة	١٣١٤هـ
٩٠	السيوطي	المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والبربرية	مكتبة القدسي والبدير ـ دمشق	١٣٤٨هـ
٩١	السيوطي	معترك الأقران في إعجاز القرآن	دار الفكر العربي ـ القاهرة	١٩٦٩م
٩٢	الشاطبي	الموافقات في أصول الشريعة	مطبعة المكتبة التجارية ـ القاهرة	
٩٣	شاهين ، عبد الصبور	تاريخ القرآن	دار الكاتب العربي ـ القاهرة	١٩٦٦م
٩٤	شديد ، محمد	منهج القرآن في التربية	مكتبة الآداب ـ القاهرة	
٩٥	الشرباصي ، أحمد	قصة التفسير	دار القلم ـ القاهرة	١٩٦٢م
٩٦	الشربيني الخطيب	السراج المنير	المطبعة الأميرية القاهرة	١٢٩٩هـ

الرقم	المؤلف	عنوان الكتاب	الناشر	التاريخ
٩٧	الشريف الرضي	تلخيص البيان في مجازات القرآن	مطبعة مجلس الشورى ـ طهران	١٣٧٢ هـ
٩٨	الشهرستاني	الملل والنحل	المطبعة الأدبية ـ القاهرة	١٣٢٠هـ
٩٩	الشوكاني	فتح القدير	مطبعة البابي ـ القاهرة	١٣٤٩هـ
١٠٠	الصابوني ، محمد علي	التبيان في علوم القرآن	دار الإرشاد ـ بيروت	١٩٧٠م
١٠١	الصالح ، صبحي	مباحث في علوم القرآن	مطبعة الجامعة ـ السورية ـ دمشق	١٩٥٨م
١٠٢	صبيح ، محمد	بحث جديد عن القرآن (ط ٦)	دار الثقافة العامة ـ القاهرة	
١٠٣	الصعيدي ، عبد المتعال	النظم الفني في القرآن	مكتبة الآداب ـ القاهرة	١٩٥٠ م
١٠٤	ضيف ، شوقي	البلاغة ، تطور وتاريخ	دار المعارف ـ القاهرة	١٩٦٥م
١٠٥	ضيف ، شوقي	تفسير سورة الرحمن وبعض سور قصار	دار المعارف ـ القاهرة	١٩٧٠م
١٠٦	الطباطبائي	تفسير آيات الأحكام	مطبعة النجف ـ النجف	١٣٨٥هـ
١٠٧	الطبرسي	مجمع البيان	طهران	١٣١٤هـ
١٠٨	الطبري	تاريخ الأمم والملوك	المطبعة الحسينية ـ القاهرة	١٣٣٦هـ
١٠٩	الطبري	جامع البيان في تفسير القرآن	المطبعة الأميرية ـ القاهرة	١٣٢٣هـ
١١٠	الطوسي ، أبوجعفر	التبيان في تفسير القرآن	المطبعة العلمية ـ النجف	١٩٥٧م
١١١	الظافر ، نصير الدين	حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز	المطبعة الانجليزية الأميركانية ـ القاهرة	
١١٢	عابدين ، عبد المجيد	الأمثال في النثر العربي القديم	القاهرة	
١١٣	عبد الجبار (القاضي)	تنزيه القرآن عن المطاعن	المطبعة الجمالية ـ القاهرة	١٣٢٩هـ
١١٤	عبد الرحمن ، عائشة	التفسير البياني للقرآن	دار المعارف ـ القاهرة	١٩٦٢م

الرقم	المؤلف	عنوان الكتاب	الناشر	التاريخ
١١٥	عبد الرحمن ، عائشة	القرآن والتفسير العصري	دار المعارف ــ القاهرة	١٩٧٠م
١١٦	عبده ، محمد	تفسير جزء عم	مطبعة مصر ــ القاهرة	١٣٤١هـ
١١٧	عبده ، محمد	تفسير سورة الفاتحة	مطبعة النار ــ القاهرة	١٣٤٦هـ
١١٨	أبو عبيدة ، معمر بن المثنى	مجاز القرآن	مكتبة الخانجي ــ القاهرة	١٩٥٤م
١١٩	العدوي ، محمد مخلوف	عنوان البيان في علوم التبيان	مطبعة المعاهد ــ القاهرة	١٣٤٤هـ
١٢٠	ابن العربي ، أبو بكر	أحكام القرآن	مطبعة السعادة ــ القاهرة	١٣٣١هـ
١٢١	ابن عربي	الفتوحات المكية	دار الكتب العربية ــ القاهرة	١٣٢٩هـ
١٢٢	ابن عربي	الفصوص	مطبعة الزمان ــ القاهرة	١٣٠٤هـ
١٢٣	العسقلاني	الإصابة في تمييز الصحابة	المطبعة الشرقية ــ القاهرة	١٩٠٧م
١٢٤	العسقلاني	تهذيب التهذيب	الهند	١٣٢٥هـ
١٢٥	العسقلاني	الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة	الهند	١٣٤٨هـ
١٢٦	العسكري ، الحسن	تفسير العسكري	تبريز	١٣١٤هـ
١٢٧	عطاء عبد القادر	التفسير الصوفي للقرآن	دار الكتب الحديثة ــ القاهرة	١٩٦٩م
١٢٨	العلوي ، عبدالله	تفسير القرآن	طهران	١٣٥٢هـ
١٢٩	ابن العماد الحنبلي	شذرات الذهب	مكتبة القدسي ــ القاهرة	١٣٥٠هـ
١٣٠	الغزالي	إحياء علوم الدين	مطبعة لجنة نشر الثقافه الإسلامية ــ القاهرة	١٣٥٦هـ
١٣١	الغزالي	جواهر القرآن	محيي الدين الكردي ــ القاهرة	١٣٢٩هـ
١٣٢	الغزالي	فضائح الباطنية	ليدن	١٩١٦م
١٣٣	الفارابي	فصوص الحكم	مطبعة السعادة ــ القاهرة	١٩٠٧م

الرقم	المؤلف	عنوان الكتاب	الناشر	التاريخ
١٣٤	الفراء	معاني القرآن	دار الكتب المصرية ـ القاهرة	١٩٥٥م
١٣٥	الفيروز آبادي	تنوير المقابيس من تفسير ابن عباس	المطبعة الأزهرية ـ القاهرة	١٣٤٤هـ
١٣٦	الفارسي	الحجة في علل القراءات السبع	دار الكاتب العربي ـ القاهرة	
١٣٧	الفراهي ، عبد الحميد	إمعان في أقسام القرآن	المطبعة السلفية بالهند ـ أعظم كره	
١٣٨	الفيض الكاشاني ،	الصافي في تفسير القرآن	المطبعة الإسلامية ـ طهران	١٣٧٤هـ
١٣٩	القاشاني ، عبد الرزاق	تفسير ابن عربي	المطبعة الأميرية ـ القاهرة	١٢٨٣هـ
١٤٠	ابن قتيبة	تأويل مشكل القرآن	دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة	١٩٥٤م
١٤١	ابن قتيبة	تفسير غريب القرآن	دار أحياء الكتب العربية ـ القاهرة	١٩٥٨م
١٤٢	القرطبي	التذكار في أفضل الأذكار	مكتبة الخانجي ـ القاهرة	١٣٥٥هـ
١٤٣	القرطبي	الجامع لأحكام القرآن	دار الكتب المصرية ـ القاهرة	١٩٣٥م
١٤٤	القشيري	لطائف الإشارات	دار الكاتب العربي ـ القاهرة	
١٤٥	القطان ، مناع	مباحث في علوم القرآن	الدار السعودية للنشر ـ الرياض	
١٤٦	قطب ، سيد	التصوير الفني في القرآن	دار المعارف ـ القاهرة	١٩٤٥م
١٤٧	قطب ، سيد	في ظلال القرآن	دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة	١٩٥٣م
١٤٨	قطب ، سيد	مشاهد القيامة في القرآن	دار المعارف ـ القاهرة	١٩٤٧م
١٤٩	قلعجي ، محمد رواس	العالم والمتعلم (لأبي حنيفة)	المكتبة العربية ـ حلب	١٩٧٢م
١٥٠	القيسي ، قاسم محمد	تاريخ التفسير	المجمع العلمي العراقي ـ بغداد	١٩٦٦م

الرقم	المؤلف	عنوان الكتاب	الناشر	التاريخ
١٥١	ابن قيم الجوزية ،	التبيان في أقسام القرآن	المكتبة التجارية الكبرى ــ القاهرة	١٩٣٣م
١٥٢	ابن قيم الجوزية ،	كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان	مكتبة الخانجي القاهرة	١٣٢٧هـ
١٥٣	الكازراني ، عبد اللطيف	مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار	طهران	١٣٠٣هـ
١٥٤	ابن كثير ، اسماعيل	تفسير الحافظ ابن كثير	مطبعة المنار ــ القاهرة	١٣٤٣هـ
١٥٥	الكواكبي ، عبد الرحمن	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد	المطبعة الجمالية ــ القاهرة	
١٥٦	الكياهراسي	أحكام القرآن	مخطوط في الأزهر رقمه (٣٩٨)	٧٨٦٦
١٥٧	المانــع ، محمد	إقامة الدليل والبرهان على تحريم أخذ الأجر من تلاوة القرآن	المكتب الإسلامي ــ بيروت	١٩٧١م
١٥٨	المبارك ، مازن	النحو العربي	المكتبة الحديثة ــ دمشق	١٩٦٥م
١٥٩	المبارك ، محمد	دراسة أدبية لنصوص من القرآن	دار الإرشاد ــ بيروت	
١٦٠	المبرد	ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد	المطبعة السلفية ــ القاهرة	١٣٥٠هـ
١٦١	محمود ، مصطفى	القرآن : محاولة لفهم عصري للقرآن	دار الشروق ــ بيروت	٠م١٩م
١٦٢	المراغي ، مصطفى	الدروس الدينية	مطبعة الأزهر ــ القاهرة	١٣٥٦هـ
١٦٣	مروّة ، يوسف	العلوم الطبيعية في القرآن	منشورات مروة العلمية ــ بيروت	١٩٦٨م
١٦٤	ابن المعتز ، عبدالله	البديع	لوزاك ــ لندن	١٩٣٥م
١٦٥	مغنية ، محمد جواد	عليٌ والقرآن	منشورات الشركة الحديثة ــ بيروت	
١٦٦	مكرم ، عبد العال	القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية	دار المعارف ــ القاهرة	١٩٦٨م
١٦٧	موسى ، محمد يوسف	القرآن والفلسفة	دار المعارف ــ القاهرة	١٩٦٦م

الرقم	المؤلف	عنوان الكتاب	الناشر	التاريخ
١٦٨	ابن ناقيا البغدادي	الجمان في تشبيهات القرآن	المطبعة العصرية ــ الكويت	١٩٦٨م
١٦٩	النحاس ، أبو جعفر	الناسخ والمنسوخ في القرآن	مطبعة السعادة ــ القاهرة	١٣٧٢هـ
١٧٠	النسفي	مدارك التنزيل وحقائق التأويل	مطبعة السعادة القاهرة	١٣٢٦هـ
١٧١	نوفل ، عبد الرزاق	القرآن والعلم الحديث	دار المعارف ــ القاهرة	١٩٥٩م
١٧٢	النيسابوري	غرائب القرآن ورغائب الفرقان	المطبعة الأميرية ــ القاهرة	١٣٢٣هـ
١٧٣	ابن هشام ، عبد الملك	سيرة ابن هشام	مطبعة بولاق ــ القاهرة	١٢٩٥هـ
١٧٤	هيكل ، محمد حسين	حياة محمد	مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة	١٩٦٥م
١٧٥	الواحدي ، علي	أسباب النزول	مؤسسة الحلبي ــ القاهرة	١٩٦٨م
١٧٦	اليماني ، محمد	كشف أسرار الباطنية	مطبعة الأنوار ــ القاهرة	١٣٥٧هـ
١٧٧	يوسف ، يعقوب	لفتات علمية في القرآن	دار العباد ــ بيروت	١٩٥٩م

المراجع الأجنبية

1 — Amir Ali	The Spirit of Islam. London. Christophers, 1923.
2 — Blachère, R.	Le Probleme de Mahomet. Paris. Presses Universitaire de France, 1952.
3 — Dermenghem, E.	The Life of Mahomet. New York. Dial Press. 1930
4 — Encyclopoadia of Religions And Ethics.	
5 — Lerouge, R.	Vie de Mahomet. Paris. Fasquelle. 1939.
6 — Muir, Sir W.	The Life of Mahomet. (from original sources.) Edinburgh, John Grant 1912.
7 — Muir, Sir W.	Mahomet and Islam. London. R.T.S.
8 — Renan, E.	Mahomet et les Origines de L'Islamisme. Paris Imp. Gerdès 1851.

فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة

الباب الثالث : تفسير القرآن

الباب الرابع : إعجاز القرآن

الصفحة

الباب الخامس : أسلوب القرآن

الصفحة

ARTISTIC EXPRESSIONS

IN

AL-QURĀN



BY

Dr. BAKRI SHEIKH AMIN